طه جابر العلواني

تأملات في الثورات العربية





تأملات في الثورة العربية

المؤلف

د. طه جابر العلواني

الناشر



مركز صناعة الفكر
للدراسات والأبحاث
Think Tank Center for Studies

تمهيد

هذا الكتاب: هو حصيلة تأمل في كبرى الأحداث السياسية التي غيّرت واقعنا العربي السياسي في العام 2011 باتجاه مستقبل مشرق تسطره الشعوب العربية بإرادتها. بدايته عن انفصال الجنوب السوداني، ليذكّر بأنّ جزءًا من جسد هذه الأمة قد بتر في مستهلّ العام، وختامه عن بناء الأمة بالقرآن، ليمنح الأمل من جديد في إمكان توحيد هذه الأمة. ومواضيع الكتاب تتراوح بين التعليق المباشر على الحدث و نقد بعض المفاهيم السياسية الشائعة و التأمل العام ما بين القرآن والكون.

شكر وثناء

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. بعد أن بلغ الكتاب هذه الغاية لا يسعني إلاّ أن أتقدم بجزيل الشكر إلى عدد من أهل الفضل في مساعدتي في إعداد هذا الكتاب. في مقدمتهم: الباحثة سارة الصغير، طالبة الماجستير في الفلسفة الإسلامية، التي أعانت في مرحلة البحث المساعد والكتابة الأولية لهذه المادة ؛ ثمّ الأديبة دينا الحصي، التي ساعدت في التحرير، وجمع الأخبار التي كانت سببًا لكتابتها؛ ثم الباحثة خديجة يوسف جعفر، طالبة الماجستير في الفلسفة الإسلامية، التي قامت بالتحرير للكتاب وإخراجه بهذه الصورة , ولمركز صناعة الفكر للدراسات للمساهمة في التحرير النهائي والإخراج والطباعة

وفقنا الله وإياهم لما يحبه ويرضاه.

طه جابر العلواني

مقدمة

هذه مجموعة تأملات ودراسات كتبت في ظل الظروف التي أحاطت بالأمة في العام 2011. ما يجمع بينها أنها تعبر عن مواقف الكاتب ومن ينطلق من منطلقات مماثلة لمنطلقاته في النظر إلى هذه الأحداث، بحيث نستطيع أن نقول إنها تعبر عن مواقف فصيل من فصائل الأمة من تلك الأحداث والوقائع، تستمد أهميتها من كونها مواقف تنطلق من رؤية قرآنية لأحداث معاصرة، يريد كاتبها أن يقول للناس: ما زال القرآن المجيد هو المخرج لهذه الأمة، وهو الهادي للحق والمفسر الأقوى والأدق والأهدى والأحسن لأحداث اليوم والغد، كما كان كذلك بالنسبة للأحداث والوقائع الماضية؛ ولذلك آثرنا جمعها ووضعها بين يدي القارئ المعاصر ليستفيد بها أو ببعضها في النظر إلى أحداث ما زلنا نعايشها أو نعايش آثارها.

إنّ كثيرًا من أولئك الذين اطّلعوا على بعض هذه المقالات أو الدراسات رأوا فيها وسيلة من وسائل إعادة بناء الوعي على الذات، وطرح رؤية لابد أن تقدم لاتصالها بعقيدة الأمة ورؤيتها الكلية وتصورها الإسلامي لتشق طريقها إلى العقل المسلم بين سائر ما يعرض له أو يعرض عليه من مواقف وآراء. نقطة القوة الأساسية فيها أنها تنطلق من مبدأ جمع بين القراءتين: قراءة الوحي بكل ما يمثّل من قيم ومقاصد، وهداية وأهداف وقراءة الواقع بسائر تضاريسه.

والله ولي التوفيق.

طه جابر العلواني

القاهرة

30 ديسمبر 2011



الفصل الأول: منهج النظر في الثورة

في الحالة الثورية العربية

عندما نتقدم بعقلية رصينة لتقييم هذه الظاهرة التي تعم المشهد العربي الآن تثور لدينا عدة تساؤلات لابد وأن نجيب عنها بين يدي محاولة بناء فقه الثورات الشعبية. ومن قبيل الأسئلة التي تثور أمامنا: كيف يمكن أن نعرف ونصنّف الثورات الشعبية؟ وهل يمكن النظر إليها بمعيار التمييز عن الفتن؟ وما هي ملامح الفارق بين الثورة الشعبية والفتنة؟ أين يلتقيان؟ وأين يفترقان؟

وكذا تثور تساؤلات حول: ما الفروق بين الثورات الشعبية والانقلابات العسكريّة؟ وهل يمكن النظر إليها في إطار فضاء العصيان المدنيّ؟ ومتى يصبح العصيان المدنيّ ثورة شعبيّة؟ وما الأسباب التي تؤدي إلى احتقان الشعوب وتوترها في أجيال مختلفة لتنفجر فيما بعد فيما يعرف بالثورات الشعبيّة؟ وما هي الشروط التي تتوافر في الشعوب التي تفجّر ثورات شعبيّة؟ وما تأثير العوامل التالية في تهيئة الناس للانخراط في ثورات شعبيّة؟

وأخيرا تثور التساؤلات: كيف نقيّم عمليّات المشاركة في مختلف العناصر في الثورات الشعبيّة؟ وهل يمكن لثورات شعبيّة أن تفرز قيادتها في الثورة وفي البديل الَّذِي تقدمه لمن ثارت عليه من بين صفوفها؟ أم أنّها مهدّدة دائمًا باقتناص بعض الانتهازيين والطامعين فيها في مراحلها الأخيرة وتحويل اتجاهها إلى مصالحهم؟ وهل يمكن لهذا المحظور المظنون أن يخذّل عن المشاركة في هذه الثورات؟

ما المراد بالثورة الشعبية؟

الثورة الشعبية هي ثورة وانفجار يقوم به شعب مظلوم مضطهد سلبه مستبد أو مستبدون حقوقه الخاصة والعامة، أو تدخلوا فيها بشكل يؤدي إلى مصادرتها وحرمان أصحابها منها، وسلبوا مع ذلك خصوصيات أبناء الشعب، وانتهكوا حرماته، وجعلوا منه كلًّ على المستبد؛ يتلاعب به كيف يشاء، يستعلي عليه وحاشيته، ويتسلطون على ماله وبشرته وسائر حقوقه وشخصيته. وليس له أن يرفض أو يستنكر أو يجترئ بالشكوى؛ لأن المستبدين يرون أنه وماله وعرضه وكل مقدراته مِلك خاص للمستبد، له أن يتصرف به كيف يشاء.

وحين يجد الإنسان أنه قد فقد كيانه وحقيقة إنسانيته واستلب لصالح المستبد وسخّر لصالح أعوانه ونظامه يحتقن كل ما لديه من عوامل غضب ورفض لينتظر لحظة تاريخية أو لحظة فارقة ينفجر فيها بوجه ذلك الطاغية دون مبالي بتهديداته ولا تهديدات أعوانه.

ومن أهم نماذج الثورات الشعبية التي سجلها القرآن الكريم نموذج ثورة بني إسرائيل ممثلين بالسحرة في وجه فرعون حين خروا ساجدين، وقالوا آمنا برب موسى وهارون، فدهش الطاغية وفقد صوابه، ونسي أنهم من أعوانه الذي كان يعتمد عليهم قبل لحظات، فإذا به يقول: "آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى" (طه:71-73)، فترى ذلك الخانع الذي كان يسترضى فرعون بشتى الطرق ويسأله عن الأجر الذي سيتقاضاه إذا هزم موسى وإذا به يتحول إلى إعصار في وجه فرعون، ومثل ذلك ثورة أصحاب البروج.

والثورات الشعبية ليست بطائفية ولا حزبية ولا طبقية ولا فئوية لأن المفروض بها أن تضم سائر الفئات الشعبية المضطهدة دون نظر إلى انتماء طبقي أو حزبي أو طائفي أو ما إليها، فإن هي لم تتصف بهذه الصفة فيمكن أن يطلق عليها اسم آخر، تسمى انتفاضة حزبية أو طائفية أو عمالية أو ما إلى ذلك.

الإطار العربي كوعاء للثورة.. تاريخ

بلادنا العربيّة المحيطة بـ"إسرائيل" كانت تعيش في ظلّ نظام عثمانيّ أنقذ بقاياها من غزوات متصلة من الصليبيّين ثم المغول، وأعاد جمعها تحت رايته موظفًا الانتماء المشترك إلى الإسلام، وبعد عقود أربعة من حكم العثمانيّين وتراجع الدولة العثمانيّة في الداخل والخارج أمام المدّ الأوروبيّ؛ بعد اكتشاف طرق المواصلات الحديثة البريّة والبحريّة، وقبلهما اكتشاف البارود، حاولت الدولة العثمانيّة اللّحاق بأوروبا بأشكال مختلفة لكنها كانت متأخّرة، ولذلك فقد أصبحت محاولات التحديث بالدولة العثمانيّة محاطة باستمرار بعوامل إفشال وفشل لم تسمح لها بأن تؤتي نتائج مثل النتائج التي حصلت أوروبا عليها أو أقل منها بكثير.

والأكثر من ذلك، أن أدت تلك المحاولات إلى بروز إشكالات جديدة عديدة أدت إلى تعميق التفكك في المجتمعات التقليديّة وبناها التحتيّة وصناعاتها التقليديّة؛ دون أن تتمكن من نقل الحداثة ودخول العصر وتحديث البلاد، فلا هي حافظت على مكان ولا حصلت على مَا تطلعت للحصول عليه. وقد فشلت محاولات مُحَمَّد علي في مصر، وإصلاحات خير الدين التونسيّ، كما فشلت محاولات سليم الثاني ومحاولات أخرى بأنحاء مختلفة من العالم الإسلامي.

فيما يتعلق بالنظام العربيّ؛ كانت الحرب العالميّة الأولى وانضمام تركيا العثمانيّة إليها بمثابة الرمق الأخير الَّذِي لفظت الخلافة العثمانيّة أنفاسها بعده، وبعد أن انتصر الحلفاء على ألمانيّا وحلفائها ومنهم الأتراك، وجاءت ثورة (9 شعبان 1916) لتمهّد لقيام نظام عربيّ جديد في ظلّ نظام دوليّ تولت قيادته بريطانيا وفرنسا وتحوّل العالم العربيّ إلى دويلات مستقلة أو تحت الحماية أو الانتداب أو النفوذ لبريطانيا أو فرنسا، فأقيمت ممالك وسلطانات وحكومات هشّة وزّع عليها التاريخ العربيّ كما وزّعت من قبل ذلك عليها الجغرافيّا، ولو مع كمّ هائل من مشكلات حدوديّة، وخلال ذلك أعطى وزير خارجيّة بريطانيا بلفور عام (1917) وعده لقيادات الحركة الصهيونيّة بفتح أبواب الهجرة لفلسطين تمهيدًا لقيام دولة إسرائيل فيها.

ومنذ ذلك التاريخ وما عُرف بالنظام العربيّ الرسميّ الَّذِي تقاسمته اثنتان وعشرون دولة وحكومة من صغيرة إلى كبيرة، ومن فقيرة إلى غنيّة يعاني من مجموعة من التناقضات والمشكلات والأزمات التي حرمته رغم الموارد البشريّة والماديّة والمواقع الجغرافيّة المتميزة من أبسط الحقوق التي يستحقها، ومع ذلك فقد حاولت تلك الحكومات المنضوية في إطار ذلك النظام أن تأخذ أشكال الدولة وأن تصنع مجموعة مؤسّسات تشير إلى أنّها دولة بالفعل، ملك أو رئيس أو شيخ أو سلطان ودستور ومجلس أمّة أو شورى أو كلاهما، وجيش وشرطة ووزراء ومجالس وزاريّة يُبالغ في أعدادها أحيانًا ويقتصد بحسب ظروف كل بلد والموازنات والترضيات التي يحرص على القيام بها.

أمّا الجيوش فقد أقبلت على تشكيلها الحكومات، وأحسنت الشعوب استقبالها وأيدتها وشجّعتها على ذلك؛ لأنّ بها تعبير عن ذكريات كامنة في الثقافة تشير إلى معاني القوة والمنعة وما إلى ذلك، وكان الناس يشعرون بالسعادة حينما يكونوا لدى الأسرة والعشيرة أو الحي بعض الضباط أو الرجال الذين ينخرطون في السلك العسكريّ.

وبالنسبة للغرب كان حريصًا أن لا تأخذ هذه الجيوش مداها في البناء والتنظيم والتسليح؛ لأنّه لم يكن واثقًا من أنّ الشعوب العربيّة لن يأتيها يومًا تسترد فيه وعيها وتنتبه لتميز هويّتها، وآنذاك قد تصبح هذه الجيوش خطرًا على الوجود الغربيّ، ومصالح الغرب ونفوذه في المنطقة، ولذلك حرص الغرب على أنّ تكون هذه الجيوش دائمًا في حاجة إليه في تسليحها وتدريبها وتكوينها، فذلك هرم يضمن له منع أيّ ضرر محتمل قد يأتيه من ناحيتها. بل إنّ الغرب اعتبر وجود تلك الجيوش في بعض البلدان وسيلة ناجحة نافعة له لتغريب عناصر لا يمكن للنظم التعليميّة أن تقوم بتغريبها أو تهيئتها لدخول العصر.

إن القطاع الغالب من أبناء القبائل في بعض البلدان ورثوا نفرة ورفضًا للانخراط في الجيش لأسباب عديدة. وهؤلاء قد يحافظون على تقاليدهم القبليّة وأنماط حياتهم، ويبتعدون عن قبول تقاليد الحداثة الغربيّة. والقبائل في بعض البلدان مثل العراق كانت بطبيعتها تعيش حالة تحالف بين القيادات القبليّة وعلماء الدين والقادة السياسيّين. وهذا التحالف كثيرًا مَا يؤدّي إلى متاعب للدول الراغبة في بسط نفوذها على هذا البلد أو ذاك من بلداننا العربيّة، فكانت عمليّة فك الارتباط بين زعماء القبائل ورجال الدين هدفًا يسعى إليه المحتلون أو أصحاب النفوذ في بعض الممالك الجديدة، فشعروا أنهم بذلك سيتمكنون من تغيير الولاءات. فبدلا من أن يكون ولاء أبناء القبائل لشيوخ عشائرهم أو قبائلهم؛ يكون الولاء للضباط والقائد، وتكون المجموعة العسكريّة فوجًا أو فصيلة أو سريّة هِيَ البديل عن القبيلة، وفي الوقت نفسه يكون الجيش مستودعًا قادرا على أن يقدم بدائل عن الحكام الذين يفشلون في الهيمنة على شعوبهم أو تنفيذ السياسات المختلفة المتفق عليها مع تلك الدول الحليفة أو ذات النفوذ في بلداننا.

رؤية في المشهد العربي المعاصر

وبعد إنشاء الحركة الصهيونية دولة لليهود فعلا في فلسطين المحتلة، أخذ بعض الضباط مواقعهم في قصور الحكم بدلا من الثكنات العسكريّة، وذلك بانقلابات عسكريّة لم يكن من الممكن لسواهم أن يفعلها، وبدأت سلسلة الانقلابات العسكريّة قبل انتهاء النصف الأول من القرن الماضي، واستمرت حتى نهاية السبعينات. وفي عام (1979) تفجّرت ثورة إيران، وكانت أوّل ثورة شعبيّة، لكنّها جاءت في أعقاب محاولات كثيرة سبقتها لم تنجح، ونجحت هِيَ بقيادة رجال-علماء- دين

استطاعوا توظيف التطورات اللاحقة لتلك المرحلة إلى أن بلغوا مستوى القدرة على تفجير ثورة شعبيّة عارمة انتهت بإسقاط الشاه؛ بعد بدء اندلاع تلك الثورة الشعبيّة بحوالي شهرين.

والملاحظ أن موجة الانقلابات العسكريّة قد توقفت، ومؤشرها قد وقف عند ضباط جاءوا بعد سلسلة من الانقلابات جعلت أولئك الضباط متوسطيّ الرتب يصلون إلى سُدّة الحكم ويمسكون بها بيد من حديد، ويقيمون نظمًا شموليّة ويحكمون الشعب بنوع من الصرامة والقوة التي تضمن لهم السيطرة على شعوبهم وسائر مناطق القوة فيهم، وبعد أن استمرأ أولئك الحياة في قصور الحكم، وفضّلوها على العيش في الثكنات العسكريّة، تحول بعضهم إلى مَا يشبه الملوك؛ فنادوا بالبقاء في السلطة مدى الحياة؛ بل أطمع استسلام الناس لهم وترك السلطة في أيديهم طويلا أن الناس قد تم ترويضهم وتقبلوا الأوضاع كما هِيَ ولم يعد لدى الكثيرين منهم اعتراض على بقاء هؤلاء مدى الحياة ولا على توريثها لأبنائهم إن شاءوا بعد ذلك.

حدث ذلك في سوريا، وقد كان هناك ترتيب أن يحدث مثل ذلك في مصر واليمن وليبيا، وقبل ذلك في العراق، وإذا بلحظة فارقة تطلّ على العرب تبشّر بموجة جديدة للتغيير بعيدة كل البعد عن الموجات التي سبقت العشائريّة، ثم العسكريّة؛ ألا وهي موجات الثورات الشعبيّة، بدأتها تونس التي حكمها ابن علي بعد أَبُو رقيبة الَّذِي فرض على التونسيين حكمًا مستبدًا يزيد عن ثلاثين عامًا، منذ أن تسلّم راية الحكم من فرنسا بعد دماء وثورات كثيرة من الشعب التونسيّ الَّذِي فرض على فرنسا أن تنحني أمامه وتعطيه الاستقلال، لكن هذا الاستقلال كان أداة بيد أَبُو رقيبة لإخضاع الشعب التونسيّ لحكم وتهميش سائر القيادات الأخرى التي لولاها لما حدث الاستقلال ولما وقع، حدثت تلك الثورة بعد أن أخليت الساحة من المعارضة والمعارضين الذين نثروا بين المنافي والسجون وطال عليهم الأمد حتى نسى الناس بعضهم وتناسوا البعض الآخر.

في المشهد الثوري العربي الراهن

بدأت تلك الثورة بشاب لم يجد مَا يفعله للاحتجاج على حرمانه من العمل، أو مضايقته حينما ترك التفكير بعمل لدى الدولة أو بواسطتها، فحمل بعض الخضر والفاكهة ووضعها على عربة خشبيّة يدفعها بيديه لعلّه يرجع إلى أهله بقوتهم، وحين لم تسمح له عناصر البلديّة بأن يبيع على تلك العربة، لكي لا يشوّه الشارع بمنظرها ومنظر البضائع التي عليها، فصادرتها، وهي كل مَا يملك

ويضع فيها آماله وطموحاته، فصار تحت نوع من الضغوط النفسيّة الهائلة أدت به إلى إحراق نفسه أمام بلديّة لم ير رئيسها أو يقابله لعله يرأف بحاله ويسمع شكواه، ويأمر بإعادة عربته المتواضعة إليه، فلما لم يستطع أصيب بنوع من جنون وقتي دفعه إلى إشعال النار في نفسه أمام تلك البلديّة.

سرى دخان جسد محمد البوعزيزي المحترق سريان النار في الهشيم ليدخل إلى كل رئة تونسيّة لا في منطقته وحدها؛ بل في تونس كلها وفي المهجر، فكان كبت السنين الَّذِي كانت الصدور لا تستطيع إظهاره أو التعبير عنه بأي شكل من أشكال التعبير، فإذا برائحة الجسد المحترق تحوّلت إلى مَا يشبه الغاز المحترق الذي أشعل كوامن الغضب المكبوت في تلك النفوس التي طال عليها الأمد، وإذا بتونس كلّها تتقدم هاتفة بسقوط الطاغية وحياة صاحب الجسد المحترق، حتى وجد الطاغية نفسه في وضع لا يحسد عليه، وتحوّل إلى مَا يشبه جندي إطفاء مستجد حديث لا خبرة له يحاول إطفاء الحرائق من حوله؛ لكنّه لا يعرف كيف يفعل، وماذا يفعل، فذهب لزيارة البوعزيزي المحترق في مستشفاه وهو غير مصدّق أنّ شابًا عاطل عن العمل يهزّ العرش من تحته وهو وارث لعرش فرعون أَبُو رقيبة من قبله.

مجرد شاب بسيط من منطقة فقيرة من مناطق تونس كان كل طموحه أن تترك له عربته الصغيرة ليرجع ببعض أرغفة من الخبز يطعم بها الأفواه الجائعة من أسرته، ووقف ابن علي خاشعًا واضعًا يده على الأخرى يتأمل ذلك الجسد الَّذِي كان محاطًا بلفافات غمرته حتى لم يكد يظهر منه غير جزء يسير من الوجه، لم نسمع من الطاغية أي تعبير عن مشاعره، ولا ماذا كان يعتمل في نفسه وهو كان يتأمل هذا الجسد المحترق الذي كان احتراقه نارًا التهمت قوائم عرشه الَّذِي استمر يعتليه (23 عامًا)، ولم تمض سوى أيامًا قليلة فنجده يستدعي أسرة ذلك الشاب الَّذِي عجز عن مقابلة رئيس بلديّة، وإذا بالقصر يفتح أبوابه يحاول استرضائها وتعويضها عن ذلك الجسد الذي احترق وأشعل الأرض التونسيّة تحته، ثم لم يجد الطاغية بدًا من الفرار، ففرّ في ليلة سوداء يبحث وهو في الطائرة عن ملجأ يأوي إليه، فتجهمه الأصدقاء، وتنكّر له الحلفاء، وبدأت اللحظات الحرجة التي يواجه الطاغية فيها نفسه فقط دون حاجز أو مرآة.

بعد أن انحسر المشهد التونسيّ عمّا انحسر عنه، كان الناس ينظرون مندهشين مَنْ سيهرب بعد ابن علي من الدكتاتوريّين الذين احترف الشعب العربيّ ولادتهم وتصنيعهم منذ عهد معاوية بن أبي سفيان وولده يزيد، فهي الصناعة الوحيدة التي أتقنها العرب واختصوا بها وببضاعتها المزجاة،

هي المنتج الوحيد الَّذِي أنتجته أيديهم، وما تزال أيدي منافقيهم من أنصاف مثقفين وأرباع متعلمين تنتجه وتحاول تصديره، فلا تجد من يرغب في تلك البضاعة فترتدّ به خاسئة.

كان إعلان الرئيس مبارك الَّذِي جاوز به الثالثة والثمانين وحكم ثلاثين عامًا وبدأ يفكّر في توريث ولده جمال ويعدّه لذلك، وكأنّه يردّ على هواجس نفسيّة برزت في نفس رأس النظام والراغبين في وراثته لتقول: إنَّ مصر تختلف عن تونس، وأنَّ فرعون مصر غير فرعون تونس وأنّ ما حدث في تونس لا يمكن بل يستحيل أن يحدث مثله في مصر، وقبل أن يمضي شهر على انتصار الثورة التونسيّة إذا بثورة شعبيّة في مصر لم تفجّرها هذه المرة دخانات جسم محترق؛ بل فجرتها أجسام لمعتقلين عذّبوا حتى الموت؛ لم يكن آخرهم خالد سعيد بل واحد منهم.

كانت الأجهزة الرهيبة التي خطفت لقمة الفرد المصريّ العادي من فمه لتوضع في أفواههم؛ لا لأنّهم شرفاء، ولا لأنّهم سيقدّمون للشعب المصريّ خدمات، ولكن لأنّهم حرّاس الطاغية والقادرين على منحه طاقات الاستمرار، وإذا بهذه الأعداد الهائلة من الأجهزة تزيد النظام خبالا على خبال، واضطرابًا على اضطراب.

ومنذ اليوم الثالث لانطلاق الثورة الشعبيّة، ثورة يهيئ لها شباب متعلم ينتمي إلى الطبقة المتوسطة لا الطبقة المطحونة، يعرف كيف يتعامل مع التكنولوجيا الحديثة ويعرف كيف يوظفها، فإذا بهم يشعلون ثورة لم يأخذ بها أحد مأخذ الجدّ إلا بعد انطلاقها. إذا، هناك تغيير قد حدث ليعلن سقوط نظام عربيّ، وسقوط عدة مراحل تاريخيّة ارتبطت بهذا النظام، فلم يكن هناك شيء اسمه الانقلابات العسكريّة، فينتظر الناس خروج ضابط من الجيش يخالف سيده فيقرر السطو على الحكم، وإذا بهذه الثورة الشعبية تعلن سقوط النظام الحزبيّ الَّذِي قام في إطار مَا يسمى بالتعدّديّة وتداول السلطة تقليدًا شكليا شائها للغرب في ليبراليّته.

فهل هذا الذي حدث في تونس ومصر يصنف في إطار الثورات الشعبية أم كما يطرح بعض العلماء الشرعيين في بعض البلدان من أنه من قبيل الفتن التي تذر الحليم حيرانا؟

الحق أنّ الفرق كبير جدا بين هذه الثورات الشعبية بقطع النظر عما سيحدث فيما بعد وبين الفتن التي تذر الحليم حيران، وفي الصفحات التالية ستجد أيها القارئ العزيز مصداق ما قلنا ويتبن لك الفرق الدقيق بين ما يسمى بالثورة الشعبية وبين الفتنة، وأنّ من حاولوا أن يستوردوا من التاريخ والتراث مصطلح الفتنة ليسموا بها هذه الثورات وينفروا الناس من المشاركة فيها أو الإقدام عليها أخطأوا في المنطلق وفي الفهم وفي التحليل ولم يحالفهم الصواب فيما ذهبوا إليه.

هناك تفسيرات غيبيَّة للفتنة، تعمل على إحالة سائر مَا يحدث إلى أسباب غيبيَّة؛ لتعفيَ تلك التفسيرات أصحابَها ومَنْ يتبنَّاها من أعباء التحليل والنقد والمراجعة، ومن معاناة فهم الواقع، ومن تحليل عناصره ومعرفة صلة كل جانب أو عنصر من عناصر الواقع بالآخر.

الإحالة على الغيب لدى هؤلاء ليست بدافع الإيمان، بل بدافع العجز عن تقديم تفسيرات منطقيَّة معقولة متَّصلة بواقع الناس، ونحن لا ننفي صلة الغيب بما يحدث نفيًا مطلقًا، بل ننفي مبدأ إعفاء الناس من مسؤوليَّتهم عمّا يحدث إعفاءً تامًّا؛ لأنَّنا نرى أنَّ أيَّ حدث تلتقي في عمليَّة صياغته وإخراجة في الواقع عناصر ثلاثة -يشملها «التدبير الإلهيّ الغيبيّ» في تأثيراته- هي الزمان والمكان والإنسان، بمستويات عديدة مختلفة، بسطناها في مواضع أخرى.

التفسيرات الغيبيَّة والاستقالة العقليَّة

وهناك البيئات والطبيعة المسخّرة، وما تقدّمه من أسباب وتيسيرات وتسهيلات وقواعد ومقوّمات لإنتاج «الفعل الإنسانيّ»، ثم يأتي دور «الفعل والممارسة الإنسانيّة»، التي تبرز الفعل الإنسانيّ إلى الوجود انطلاقًا من التفكير فيه ثم الدواعي له، ثم العزم على إيجاده في الخارج؛ «النية»، ثم تنفيذه.

وقد يغفل الإنسان عن فعل الغيب، وعن مواقع الطبيعة من الفعل، فلا يرى إلا الجانب الإنسانيّ منه، فيغتر "إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي" (القصص:78)، فإذا أراد المكر لإبعاد المسئوليّة عن نفسه أو نفيها، قال: "لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ" (الأنعام:148)، أمّا عباد الله الصالحون فهم على إدراك دقيق لتعدّد الأدوار مع التفاعل بينها.

ولذلك فإنّهم إذا علموا شيئًا قالوا: "لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" (البقرة:32)، وإذا فعلوا خيرًا قالوا: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ" (الأعراف:43)، وإذا انتفعوا بما سخّر الله -تعالى- لهم قالوا: "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ"(الزخرف:13)، وإذا أخطأوا في شيء: "فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا" (النساء:64)، "رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ" (البقرة:286).

والعبد الصالح يتحرَّى ألا يفعل أو يقول قولًا يستبد به، بل يفعل حين يفعل «عملًا صالحًا»، ويقول حين يقول: «قولًا سديدًا»، فهو على ذِكْر لنعمة ربه فيما أعطاه ومكّنه واستخلفه فيه، وهو -في الوقت نفسه- يتحمّل مسؤوليّة مَا يفعل أو يقول، فيستغفر الله -تعالى- إذ لم يتأكد من موافقة قوله أو فعله لمراد الله سبحانه وتعالى.

مفهوم الفتنة في لسان القرآن المجيد

«الفتنة»: من «فتن»، أصلها إدخال الذهب النارَ؛ لتظهر جودته من رداءته، ولإزالة مَا يكون قد خالطه من معادن أخرى: "يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ" (الذاريات:13)؛ تشبيهًا لأهل النار به، حيث خالط فطرَهم نزغ الشيطان، فأبعدهم عن الصراط، وفِتْنَتهم على النار تجعلهم أكثر أسفًا وألـمًا على إتّباعهم لهمزات الشياطين، وتخلّيهم عن نداءات الفطرة السليمة.

ويقول الله -جلّ شأنه- لهم: "ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ" (الذاريات:14)؛ أي: جزاء تعذيبكم عبادي في الدنيا؛ لصدّهم عن السبيل. وقد قال تعالى في المنافقين: "لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ*وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ" (التوبة:48-49). ويُخاطب الله موسى -عليه السلام- وهو يصنعه على عينه: "إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى"(طه:40)؛ أي: اختبرناك اختبارًا لتكون خالصًا لما اخترناك للقيام به من تحرير بني إسرائيل، وإخراجهم من ذلّ العبوديَّة لفرعون مصر إلى عزّ العبوديَّة لنا.

والدنيا «فتنة»؛ أي: دار فتنة واختبار: "كُّل نفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ" (لأنبياء:35)، و: "اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ"(البقرة:191)؛ أي: تعذيب المؤمنين لإكراههم على تغيير دينهم أشد من القتل. وشرع القتال دفاعًا عن حريَّة العقيدة، ولمنع هذا النوع من الفتنة، قال تعالى: "قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ" (البقرة:193)، وقال تعالى: "فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ

وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ" (يونس83)، أي: أن يُعذّبهم لإكراههم على العودة إلى عبادته "إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ" (البروج:10).

وتأتي «الفتنة» بمعنى الإلجاء إلى الانصراف عن شيء بالإكراه أو بالتزيين والإغراء: "وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلا" (إسراء:73)، "وأنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ" (المائدة:49).

و«النعم» و«النقم» في الدنيا تجري مجرى الاختبار والتمحيص للبشر: "اَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ" (الأنفال:28).

وقد تُظهر «الفتنة» في هذا المجال أنّ بعض الأزواج والأولاد أعداء من حيث تأثيرهم السلبيّ على الأزواج والآباء وإسقاطهم في الفتنة: "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (التغابن:14). والناس -جميعًا- في هذه الحياة الدنيا في حال ابتلاء: "يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا" (الملك: 2)، "الم*أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ" (العنكبوت:1،2)، "وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ" (لمائدة:71).

و«المفتون»: مَنْ استجاب لدعاوى الفتنة فسقط فيها: "بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ" (القلم:6).

حقيقة الفتنة في اللغة

إنّ هذه الاستعمالات المتنوّعة في لسان القرآن تنبّه إلى أنّ مادة هذا المفهوم اللسانيّة دائرة به بين «الاختبار، والابتلاء، والتمحيص، والصرف عن الشيء، والإضلال عنه، والعذاب، والرخاء، ولوازم بعض هذه الكلمات أو المصطلحات ومقدّماتها»، وحين نبحث عن هذا المفهوم خارج الاستعمال القرآنيّ نجد أنّ الاستعمال قد انتقل -لدى المحدثين ثم الفقهاء- إلى لوازم تلك المعاني، فحذيفة -رضي الله عنه- كان ذا عناية بحفظ سرّ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في المنافقين(1).

وهناك مَا عُرف بـ«أحاديث الفتن»، و«فتنة الهَرْج»؛ أي: القتل، ترد كثيرًا في الأبواب التي تتناول «أشراط الساعة وعلاماتها»، وسنأتي على ذكر بعضها،ولدى الفقهاء يكثر التعبير بقولهم:

"إذا خيفت الفتنة"؛ أي: الافتتان بجمال المرأة الدافع إلى الرغبة فيها. ويقول بعضهم: بأنَّ على المرأة الجميلة تغطية وجهها إذا خيفت «الفتنة» بذلك المعنى.

ويكثر استعمال «الفتنة» في الشِّعر العربيّ في الغزل والنسيب. و«الفتنة» أوسع من ذلك وأشمل -كما تقدّم- لكن المعنى الأجمع هُوَ «الابتلاء» بأنواعه للتمحيص، ولإمضاء السنن الإلهيَّة، لا للجزاء؛ لأنّ الجزاء أخرويٌّ -كلّه- في هذه الشريعة مَا عدا الحدود، إذا أُقيمت في الدنيا على الجاني رُفعت العقوبة عنه في الآخرة.

عموم البلاء في الفتن

ولذلك فإنّ الجماعة أو الأمَّة التي تسمح لأيّ فريق منها بالظلم -في أيّة صورة من صوره- ولا تأخذ الطريق على الظالمين والمفسدين وتمنعهم منه فإنّها تؤخذ بجريمتهم، وتصيبهم -جميعًا- «الفتنة»:(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(الأنفال:25)، وقد ضرب الله لنا في القرآن مثلًا بـ«أصحاب السبت» لنأخذ منه العبرة والدرس: "وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ*وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ*فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ*فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ" (الأعراف: 163-166).

إنّ القرآن أراد أن يُوجد مجتمعًا متكافلًا متضامنًا كالبنيان المرصوص، فلا يتقبّل القرآن المجيد تلك النماذج القاعدة الكسلى، التي ترى الظلم والفساد يُحيط بكل مَا حولها فلا تحرِّك ساكنًا إلاّ إذا أصابها بشكل مباشر؛ خوفًا على النفس أو الرزق أو المال والولد.

وفي هذه الأحوال تكون هذه الأمور من «الفتن التي يفتن الناس بها» في هذه الحياة الدنيا، فالقرآن ينبّه على أنّ إنكار المنكر والوقوف بوجهه -مهما كان ثمنه- فإنّه أقل من ثمن السكوت عنه، وعدم مقاومته، فيعمّ العذاب المجتمع كلّه، فكأنّ الآية الكريمة تضع أولئك -الذين لم يقعوا في الظلم ولم يشاركوا فيه، ولكنّهم سكتوا عنه- بين خيار الإنكار والرفض مع تحمّل مَا قد يجرّه ذلك عليهم، أو عدم الإنكار والسكوت بانتظار العذاب الَّذِي سيعم الجميع، وينالهم نصيبهم منه، فذلك «قانون

اجتماعيّ قرآنيٌّ» لا مفر منه، فالإنكار يُنَجّي المنْكِرَ من عذاب الله: "فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ" (الأعراف:165).

مجتمع الإيمان

إنّ القرآن المجيد أنبأ بما عاهد عليه المسلمون الله -تعالى- أن يقيموا مجتمعًا مؤمنًا موحّدًا، مزكّى طاهرًا، يُعمر الأرض ويُقيم فيها العدل والحريّة والعمران، مجتمعٌ كَفَلَ القرآنُ المجيد بيانَ منهجِ إقامته؛ ليكون المجتمع النموذج، وأرسى دعائم القواعد والأصول والمبادئ التي تكفل إقامته على أقوى الدعائم، وأمتن الأسس؛ لحفظه، وإنماءه وتقويته، مجتمع يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، ويليق به أن ينتسب إلى الله. مجتمع تقيّ القلب، نظيف المشاعر، سليم اللسان، عفّ السريرة وطاهرها. مجتمع أو عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، أدب في هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه.

وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظّمة لأوضاعه، وله نظمه القرآنيَّة التي تكفل صيانته، وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الإيمان بالله وتوحيده والأدب معه، فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره، وتتلاقى شرائع هذا المجتمع ومشاعره، وتتوازن فيه دوافعه وزواجره، وتتناسق فيه أحاسيسه وخطاه، وهو يتجه ويتحرك إلى الله -تعالى- باسمه، ولا يوكل بناء وتنظيم ذلك المجتمع لمجرد التشريع والتنظيم، بل يتضافر فيه الإيمان ويقظة الضمير، ونظام المجتمع وشرائعه، والقوانين الحاكمة فيه.

فلا يسبق العبدُ المؤمن إلهَه في أمر أو نهي، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم، ولا يتجاوز مَا يأمر به وما ينهى عنه، ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيًا مع خالقه؛ تقوى منه لله وخشية ورغبة ورهبة منه له -سبحانه- وحياءً منه وأدبًا معه، مجتمع له أدب خاص مع خطاب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقوم على توقيره وتعزيزه.

وهو مجتمع له منهجه في التثبُّت من الأقوال والأفعال، والاستيثاق من مصادرها، وحماية وصيانة شرف كل فرد فيه. هذا المنهج داعٍ إلى تقوى الله، وإلى الرجوع بالأمر إلى رسول الله، في غير مَا تقدم بين يديه، ولا اقتراحَ لما لم يطلبه ولم يأمر به، ولا استباق له: "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ*وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ

اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ*فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيم" (الحجرات:6-8).

وهو مجتمع بشريٌّ مهما سما؛ ولذلك كانت له نظمه وإجراءاته العمليَّة في مواجهة مَا يقع فيه من خلاف وفتن وقلاقل واندفاعات تُخَلْخِل كيانه لو تُركت بغير علاج، وهو يُواجهها بإجراءات عمليَّة علميَّة منبثقة من قاعدة الأخوّة بين المؤمنين، ومن حقيقة العدل والإصلاح، ومن تقوى الله والرجاء في رحمته ورضاه: "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ*إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"(الحجرات:10،9).

وهو مجتمع له آدابه النفسيَة في مشاعره تجاه بعضه البعض، وله آدابه السلوكيَّة في معاملاته بعضه مع بعض: "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (حجرات:11).

وهو مجتمع نظيف المشاعر، مكفول الحرمات، مُصان الغيبة والحضرة، لا يؤخذ فيه أحد بِظنَّة، ولا تُتبع فيه العورات، ولا يتعرض أمن الناس وكرماتهم وحرّياتهم وخصوصيَّاتهم فيه لأدنى مساس: "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيم" (الحجرات:12).

وهو مجتمع له رؤيته وفكرته الكاملة عن وحدة الإنسانيَّة؛ المختلفة الأجناس المتعددة الشعوب، وله ميزانه الواحد الَّذِي يقوم به المجتمع، إنّه ميزان الله المُبَرّأ من شوائب الهوى والاضطراب: "يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات:13).

هو المجتمع النموذجيّ الرفيع الكريم النظيف السليم، يحدّد معالم الإيمان الَّذِي باسمه دُعي المؤمنون إلى إقامة ذلك النموذج، وباسمه هُتف لهم ليلبّوا دعوة الله الَّذِي يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل، الَّذِي يؤسّس الحافز إلى التلبية والتسليم: "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..." ذلك النداء الحبيب

الَّذِي يخجل مَنْ يُدعى به من الله أن لا يجيب النداء، والذي يُيسر كل تكليف ويُهون كل مشقة، ويُشوق كل قلب فيخبت ويلين ويسمع ويستجيب.

إنّه مجتمع وهبه الله للبشريَّة ليكون نموذجًا لها، تُشعرها رؤيتها له بعظم تلك الهبة الإلهيّة، والتي جعلت من هذه الأمَّة خير أمّة أخرجت للناس، أمّة وسطًا استحقت -بكل الصفات التي ذكرها الله تعالى- أن تكون وسطًا بين الأمم، شاهدة على الناس(2).

أمّة القرآن

إنّها أمَّة بُنيت بتوجيهات القرآن الكريم، وبالتربية النبويّة الحكيمة لإنشاء وتربية تلك الأمّة المسلمة، والتي مثَّلت ذلك المجتمع الرفيع الكريم النظيف السليم، الَّذِي وجدت حقيقته يومًا على هذه الأرض، فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثاليَّة، ولا حلمًا طائرًا يعيش في الخيال!

لقد نَمت هذه الأمَّة نموًّا طبيعيًّا بطيئًا، كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور، وأخذت الزمن اللازم لنموّها، كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطّرد الضروريّ لهذا النمو، واحتاجت إلى العناية الساهرة، والصبر الطويل، والجهد البصير في التهذيب والتشذيب، والتوجيه والدفع، والتقويّة والتثبيت، واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعيَّة المريرة، والابتلاءات الشاقَّة المضنية، مع التوجيه لعبرة هذه التجارب والابتلاءات، وفي هذا كلّه كانت تمثّل الرعاية الإلهيَّة لهذه الأمَّة المختارة -على علم- لحمل هذه الأمانة الكبرى، وتحقيق مشيئة الله بها في الأرض. وذلك مع الفضائل الكامنة والاستعدادات المكنونة في ذلك الجيل -«جيل التلقي»- وفي الظروف والأحوال المهيّأة له على السواء، وبهذا -كلّه-أشرقت تلك الومضة الرائعة في تاريخ البشريَّة، ووُجدت هذه الحقيقة التي تتراءى من بعيد وكأنّها حلم مرفرف في قلب، أو رؤيا مجنّحة في خيال(3)!

نقض الميثاق

هذا العهد والميثاق بين الله -تعالى- وبين هذه الأمَّة، لم تستقم الأمَّة طويلا عليه، فالحوارات التي جرت في السقيفة -إذا سلَّمنا صحة نقل المؤرخين لها كما نقلوها- كانت فيها مؤشرات لم تظهر فيها مضامين الرسالة والقيم التي جاء القرآن بها وعاهدوا الله عليها: "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ

وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (التوبة:111).

إنّ الإخلال بهذا العهد الإلهيّ، والميثاق الربانيّ، مدخل وباب واسع للولوج إلى تلك الفتن، والتّردي في دركاتها، فحين يتجاهل الإنسان ذلك الميثاق، وينصرف عن الوفاء به، تتوقف قوانين التسخير الكونيَّة عن الاستجابة له، والتجاوب معه، وتتمرّد الطبيعة عليه كما تمرّد على خالقه، وتصبح مثل خلايا السرطان، تعمل بعكس الاتجاه الطبيعيّ، فتصبح حركاتها مصدر ضرر وتدمير لما كان عامرًا من الجسم.

هذا النوع من الفتن الناجم عن ذلك هِيَ «الفتن الكبرى» التي تموج موج البحر، لا تهدأ يومًا إلّا لتنطلق من جديد، تستنطق العرب، وتُهلك خيارهم، يكثر فيها القتل دون معرفة الأسباب، لا يدري القاتل لِمَ قَتل ولا المقتول لِمَ قُتِل؟ وقد تذكر أسباب، لكنّها ليست أسبابًا حقيقيَّة، يبدو زيفها أو ضعفها عند أول اختبار!

هذه الفتن لا تدع أحدًا إلاّ لطمته، ترتدي مختلف الأشكال، فتبدو مرّة كفتنة دينيَّة أو طائفيَّة أو مذهبيَّة، وقد تبدو بثياب اقتصاد أو ثقافة أو سياسة، أو أيّة ثياب أخرى؛ لأنّ تلُّونها ذلك جزء منها؛ لتورث بذلك الناسَ مزيدًا من الحيرة والاضطراب؛ لأنّ «الفتنة» -في هذه الحالة- مُسَخَّرة وفق منهج معيَّن، ولتحقيق أهداف محدّدة، فكأنّها تتحرك وفق عقل ومنطق وقدرة على الاختيار، اختيار أهدافها بدقة «تدمّر كل شيء بإذن ربّها»، هِيَ نوع أو فصيل من جند الله: "وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ" (المدثر:31).

إنّ مَا لم يذكره القرآن، بل لعلّه أضمره في سياقه، نحو: ومن الذين قالوا إنّا مسلمون أخذنا ميثاقهم، فنقضوه وجلسوا في السقيفة يُساوم كل منهم الآخر، ولم يلبثوا إلا قليلًا ثم اقتتلوا، واستحل بعضهم دماء بعض، وتركوا الكتاب وراءهم ظهريًّا، وحملوه بطريقة مَنْ سبقهم: "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (الجمعة:5)، ونسوا حظًّا مما ذُكّروا به في القرآن، فطال عليهم الأمد، ولم يرجعوا ولم يتوبوا، فقست قلوبهم، فصار يقتل بعضهم بعضًا، ويُكفّر بعضهم بعضًا، ويفتن بعضهم بعضًا، ولن تتوقف تلك الفتن فيهم حتى يتوبوا؛ لأنّنا أجرينا فيهم سننًا في الذين خلوا من قبلهم: "فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" (المائدة:14).

إحالات مرجعية

(1)- راجع الوافي بالوفيات (95/4) ترجمة ابن اليمان وتهذيب الكمال للتمريّ (499/5) باب من «اسمه حذيفة وحذيم» والاستيعاب لابن عبد البر (98/1) باب حذيفة وفقًا لما ورد في المكتبة الشاملة/ الاصدار الثاني (2009م).

(2)- في ظلال القرآن، تفسير «سورة الحجرات» بتصرّف.

(3)- المرجع نفسه.

إنَّ «الفتنة» التي نحتاج أن نتناولها في الدراسة والتحليل هِيَ «الفتنة» بمعنى البلاء والعذاب الَّذِي قد يتجاوز مستحقيها إلى سواهم:(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّه شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال:25)، فهي فتنة تتناول الأمَّة -كلّها- وتشمل الخاصّة والعامّة بحرائقها، كالفتنة الدائرة في العراق وأفغانستان والصومال وفلسطين واليمن والجزائر والباكستان، ويوشك أن تندلع فتن مماثلة أخرى في بلدان مسلمة تالية، هذه الفتن كثيرًا مَا ينسبها المحلّلون السياسيّون إلى أسباب دنيويَّة مختلفة، منها أسباب طائفيَّة واقتصاديَّة وطبقيَّة ووجود فئات مهمّشة... إلخ، وما إلى ذلك من ظواهر، ويتجاهلون علاقة الخالق العظيم وفعل الغيب في الواقع، فتأتي تلك التحليلات قاصرة غير مقنعة.

إنّ الله -تبارك وتعالى- قال:(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)(الأنعام:65)، وقال جلّ شأنه:(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)(الأنعام:159)، فهناك نسب القرآن المجيد تحول الأمم إلى شيع، إلى «إلباس إلهيّ» (الآية:65)، وفي (159) نسب التحول إلى «شيع» إلى الناس أنفسهم:(وَكَانُوا شِيَعًا)(الروم:32)، فهل يعني ذلك أنَّ الله -تعالى- ألبسهم شيعًا، فكانوا شيعًا، أو فصاروا فرقًا ومذاهب، أو أنّهم هم الذين بادروا بعمل مَا يقتضي الفرقة فتفرقوا؟!

لعلّ تدبُّر مَا يأتي يحمل الجواب أو شيئًا منه، يقول سبحانه: "لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ

كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ"(المائدة: 12) ثم يقول:(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا)(النساء:155).

الخطوات المؤدّية إلى السقوط في الفتنة

1- نقض الميثاق مع الله تعالى، فإذا لم تتب الأمَّة وترجع تأتي الخطوة التالية، حيث...

2- تعقبها لعنة إلهيَّة، و«اللعنة»: طرد من الرحمة، فلا تجد الفتنة في وجهها رحمة إلهيَّة تعطّل آثارها أو تصدّها وتدفعها، بما أخلفوا الله مَا وعدوه بنقضهم الميثاق، فإذا لم يتوبوا ويرجعوا إلى رشدهم...

3- تظهر قسوة في القلوب على مستوى الأمَّة تترتَّب على اللعنة، وتوقف الرحمة عن العمل، وتهيّؤها تلك القسوة لتغيّر الرؤية، وقبول التحريف، وضعف الفهم والفقه في الكتاب وفي الواقع:)وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ) (البقرة:78).

4- ثم تحريف الكلم عن مواضعه، وتغيير المفاهيم حتى ترى الجماهير الحق باطلًا والباطل حقًا، وتنعدم قابليّة الصحوة واليقظة والرجوع إلى الله.

5- ثم يلي ذلك نسيان أو تناسي أو تجاهل جانب ممّا ذُكّروا به، ربما يكون من تلك الجوانب التي لم يستطيعوا تغييرها وتحريفها، وآنذاك تكثر خياناتهم لله ولرسوله، فيحق عليهم القول، إلا إذا أحدثوا توبة، ثم تأتي الآية (14) من السورة؛ لتُعيد مثل مَا حدث من سنّة إلهيَّة مع يهود بني إسرائيل مع النصارى منهم:)وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (المائدة:14)، وذلك مع النصارى من بني إسرائيل ومَنْ سواهم.

6- ثم تبرز أنواع من الغبش والزيف تُزاحم الحق وتُحاصره...

7-ثم تفتح على الناس أبواب الدنيا والتنافس فيها، ويُحيط الرين بالقلوب، فتفقد البصائرُ رؤيتَها وفعاليّتها.

أولا: الفتنة السياسيَّة: الأصل في السياسة المضافة إلى أيَّة أمَّة من الأمم أن تكون رعاية لشؤون تلك الأمَّة، وتحقيقًا لمصالحها، ونفيًا للمفاسد والمضارّ عنها، والعناية بترقيتها، يقوم عليها ساسة متَّقون، يشكرون الله -تعالى- على تمكينه لهم، ويسألونه -سبحانه- تسديد خطاهم، وترشيد سياساتهم، يُقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وينهون عن الفساد في الأرض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لا يُريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا؛ ولذلك بُنيت عمليّة اختيار القيادة السياسيَّة على التراضي بين الأمّة ومَنْ تختارهم، فليس لأحد أن يفرض نفسه على أمَّته دون إرادة منها ورضا، والحاكم أجير لأمّته بعقد مبرم بينهما، يُبيِّن الحقوق والواجبات، وذلك معنى «البيعة»؛ ولذلك لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: "مَنْ أمّ قومًا وهم له كارهون"(1).

وبعض القادة قد يفرض نفسه على أمَّته، وقد يفتئت عليها، ويستبدُّ بشأنها، ويُخالف شروط بيعته، ويرفض أيّ نصح أو دعوة إلى التغيير والالتزام بما عاهد أمّته عليه، ويغلق نظامه، فلا يعود ذلك النظام قادرًا على استيعاب القوى والطاقات الجديدة التي يُفرزها المجتمع، ويسد قنوات التعبير والتغيير، فتحدث حالة اختناق، أو احتقان، يؤدّي إلى الانفجار والفوضى والفتنة والهَرْج؛ أي: القتل، فحين تكون هناك قوى في المجتمع مثل الجيوش أو القبائل أو الأحزاب السياسيّة القادرة على إحداث التغيير يكون الانفجار العشوائيّ؛ ولذلك تحرص الأمم المتقدمة أن تكون لها على الدوام قنوات للتعبير، ووسائل وأدوات سلميَّة للتغيير، وما «الديمقراطيّة» ووسائلها إلّا محاولات إنسانيَّة لتجنُّب الوقوع في فوضى الانفجارات العشوائيّة، وما كانت «الشورى» شريعة إلهيَّة وفريضة لازمة إلا لتحقيق المشاركة الإيجابيَّة من أبناء الأمّة كافّة في سائر شؤونها.

والمسلمون في بدايات تجاربهم السياسيَّة لم يؤسسوا المؤسّسات والقنوات الكفيلة بتنظيم ذلك الأمر، ولم تؤسس للشورى المؤسّسات الكفيلة بترسيخها، والتأسيس لثقافتها؛ لمعالجة الأزمات والتحدّيات التي تواجه الأمّة، فسادت الفرديّة والاستبداد، فوقعت بينهم الفتن، فتنظيم شئون الأمم لا يعتمد على حُسْن النوايا وصلاح بعض الأفراد، بل على المؤسّسات المتينة الراسخة، المدعومة من الأمّة القادرة على إحداث التغيير فيها حينما لا تكون عن التغيير مندوحة.

ثانيا: الاستبداد والفتنة: لعلّ الاستبداد أهم -أو من أهم- أسباب نشوء الفتن، ودوام الفتنة بأشكالها المختلفة واستمرارها؛ لأنّ الأصل في السياسة أنّها رعاية شؤون الأمَّة والعناية بها، والمستبد لا يمكن أن يُعنى بشؤون الأمَّة؛ لأنّ الاستبداد أهم مداخل الطغيان: (كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى*أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) (العلق:7،6)، ولقد هفا السيد الأفغاني -وهفوات الكبار على أقدارهم- حين قال: "لا يصلح لحكم الشرق إلّا مستبد عادل"(2)، فلو تأمّل -يرحمه الله- هذه الآية الكريمة لما قال مَا قاله؛ لأنّ هناك تناقضًا وتنافيًا بين العدل والاستبداد، ومن أمثال ذلك قول ابن تيمية: "ظلم سنة ولا فوضى ساعة". ومثل هذه الأطروحات هي التي خدّرت جماهير المسلمين عبر العصور، وجعلتهم يخضعون للمستبدّين، وبذلك يجد المستبد -لنفسه- حماية من الثورة ضده أو الانتفاض عليه.

والمستبد طاغية خدع نفسه عن نفسه، أو خدعته جماهيره الغافلة الذلول عنها، فظنّ نفسه فوق البشر، فما يخدع الطغاة شيء مَا تخدعهم غفلة الجماهير وذِلّتها وطاعتها وانقيادها، وما المستبد الطاغية إلّا فرد لا يملك -في حقيقة الأمر- قوة أو سلطانًا، إنّما هِيَ الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرَها فيركب، وتمد له أعناقها فيجر، وتحني له رؤوسها فيستعلي، وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى(3).

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلّا من الوَهَم، فالطاغية فرد لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين، لو أنّها شعرت بإنسانيّتها وكرامتها وعزّتها وحريّتها، وآمنت بالله حق الإيمان، ووحّدته حق التوحيد.

والوقوف بوجوه الطغاة ينبغي أن يحدث قبل أن يصبح الطاغية طاغية ويستبد، وذلك بغلق منافذ الطُّغيان. وقد أسس القرآن المجيد لذلك بركن «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وجعله الركن السادس من أركان الإسلام، لكن الأمَّة -لأسباب كثيرة- لم تستطع تفعيل هذا الركن وتحويله إلى مؤسّسات قادرة، وحين استعملت «الحسبة» فإنّها لم تتحوّل إلى مؤسّسة فاعلة في كل زمان ومكان، وبحسب كل عصر وأدواته، وكذلك فكرة «أهل الحل والعقد»، والفريضة الغائبة «الشورى»، فكلّها أخذت أشكالًا هلاميَّة خاصَّة بعد انفراط عقد طرفي «أولي الأمر» -العلماء أو النخبة والأمراء- ليصبح كل منهما في شق، ويشد باتجاه معاكس لاتجاه الآخر.

وحينها بدأت ظواهر الطغيان تبرز، حتى تجرّأ أحد خلفاء بني أميَّة أن يقول: "مَنْ قال لي «اتق الله» قطعت عنقه"؛ لأنّ الإنكار على الطغاة تحوّل إلى مهمة فرديَّة، يقوم بها عالم متطوّع، إذا حاول أن يتجاوز حالة الإنكار اللفظيّ المجرد تناوله أعوان الطاغية بكل مَا يُسكته، كما أنّ كثيرًا

من أولئك الذين مارسوا الاستبداد أخذوا يشجّعون مَنْ لا يستطيعون إسكاتهم بسهولة على أن يقدموا نصائحهم إليهم بشكل مباشر وفي دواوينهم الخاصّة المغلقة؛ لئلا يُثيروا الجماهير، ولقد برز عندنا مَا عُرف بـ«نصائح الملوك»؛ ليكون بابًا من أبواب الأدب الإسلاميّ الهامّة ولا شك، لكنّ آثاره كانت محدودة.

ثالثا: منشأ فكر العزلة وحرمان الأمّة من طاقات أبنائها: من أهم السلبيّات التي تزخر الفتـن بها دفع عناصر الأمَّة النقيّة إلى «العزلة»، أو المغادرة إلى بلاد أخرى، أو المهاجرة، وحين بدأت الفتـن بعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- خاصّة بعد انسلاخ حكم الشيخين، الذين شُغل الأول منهما بحروب المرتدين الذين شكّلوا أخطر تهديد للجماعة المؤمنة الناشئة، وانشغل الخليفة الثاني بالفتوح ودرء الأخطار، وأمّا الخليفة الثالث فقد مرّت السنوات الست الأولى من خلافته دون فتنة، ولكن سرعان مَا بدأت المشكلات تتـراكم، وحالة الاحتقان تنمو، حتى انتهت بقتله في بيته بذلك الشكل المأساويّ، ثم بدأت الصراعات، واستمرت، ولم تتوقف حتى بعد اتفاق الْحَسَن ومعاوية الَّذِي سُمّي «بعام الجماعة».

ولم تتحقق وحدة الجماعة، وتتابعت الثورات، مثل «ثورة الحسين»، و«ابن الزبير»، و«محمد ذو النفس الزكيّة»، ثم ثورة «ابن الأشعث» و«القراء»، فلما رأى علماء الأمّة أنّ كل تلك المحاولات قد أخفقت في إعادة بناء وحدة الأمّة، وتعديل نظامها، ورأوا حجم المآسي المتـرتّبة على تلك الثورات نادى بعضهم بقبول الأمر الواقع، وإشاعة مقولة «الخلاف شر»، التي سرعان مَا تحولت إلى شعار شبه عام، وساهمت في ذلك أحاديث شاعت روايتها في تلك المرحلة، منها حديث: "الخلافة بعدي ثلاثون"(4)، وقابله الشيعة «بحديث الغدير»(5)، وأحاديث أخرى تُشير إلى اثني عشر إمامًا من ذريته -عليه الصلاة والسلام- آخرهم المهدي، ومدّت الشيعة عصر النص ليشمل زمن الأئمة كلهم، فيبلغ قرنين وزيادة.أمَّا سائر النظم التي قامت فهي باغية مفتأتة مستبدة في نظرهم.

الملاحم والفتن

إنَّ أحاديث وأخبار «الملاحم والفتن» قد صارت مطلبًا من مطالب كثير من رواة الآثار والأخبار والواعظين والقصاصين والمشغوفين بثقافة «الترغيب والترهيب»، فهناك أحداث جسام كثيرة

تحدث فتبهت الناس وتدهشهم، وتظل أبصارهم وبصائرهم شاخصة متقلّبة تبحث لها عن تفسير أو مغزى أو معنى يُزيل الحيرة، وينفي الاضطراب، ويُهدئ من ثائرة التساؤل، وما من شيء يُحدث ذلك في النفس ويترك أثره في الوجدان مثل أن يُربط بين الحدث وإشارة قرآنيّة أو حديث نبويّ؛ ولذلك حملت مدوّنات الحديث المتنوّعة أحاديث كثيرة تندرج تحت هذه العناوين؛ بل كُتِبَت كُتب خاصَّة في هذه الفتن، عُرفت بـ«كتب الملاحم والفتن»، كثيرًا مَا كانت فئات الواعظين والقصّاصين توظفها لتعزيز اتجاهات «الترغيب والترهيب» لدى الناس، خاصَّة في الأحوال التي يفشو فيها الترف، وتنتشر فيها الغفلة.

وحين تبرز ظواهر يمكن أن تنبّه الوعي الإنسانيّ إلى فكرة الإحساس بالفتنة، والشعور ببعض مظاهرها، فالقرآن المجيد مَا عُني بشيء -بعد تحديد «مقاصده العُليا الحاكمة»- عنايته بالتوكيد على «وحدة الأمّة»، وضرورة المحافظة عليها بالاعتصام بحبل الله، وعدم التفرّق، وتجنّب كل مَا من شأنه الإخلال بوحدة الأمَّة أو تهديدها، أو تعريضها للخطر.

ويربط القرآن المجيد بين توحيد الله -سبحانه- ووحدة الأمَّة وبين وحدة الأمَّة وخيريَّتها ووسطيَّتها وشهادتها على الناس، وحدّد مصادر كل مَا من شأنه أن يُضعف هذه الوحدة القائمة على الاعتصام بحبل الله، والالتزام بأخوة الإيمان ورابطة الإسلام، وحملت «سورة الحجرات» تفاصيل دقيقة لتعزيز هذه الوحدة والمحافظة عليها، إضافة إلى آيات أخرى في مختلف السور القرآنيّة بُثّت في سياقات عديدة لتؤكد على وحدة الأمّة وضرورة المحافظة عليها.

الفتنة في الأخبار والآثار تأويلًا للقرآن المجيد

لم تكن الأحاديث النبويّة الواردة في الفتن مثل مَا عُرف في تراث الأمم السابقة من نبوءات تعدّدت وتنوّعت أهدافها، بل هِيَ من رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- دائرة بين المهمّتين الأساسيّتين من مهامّه -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- وهما «البشارة» و«النِّذارة»، وفي سائر الأحوال كان -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- ينطلق في كل منهما من «تعليم الكتاب والحكمة» والتحذير من الغفلة عن «التزكية» التي تحققت في «جيل التلقي»، وذلك بقراءة «السنن الإلهيَّة» في الاجتماع والعمران كما وردت في كتاب الله تعالى.

فقد يرى رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بوادر أو مظاهر تُشير إلى ضعف في الوعي ببعض تلك السنن، فيُوقظ -عليه الصلاة والسلام- الوعي بتلك السنن بالتحذير من النتائج والمآلات، فيبدو مَا قاله -صلوات الله وسلامه عليه- وكأنّه قراءة مستقبليَّة؛ لأنّ تلك الظواهر -وهي في بداياتها- مَا تزال براعم لا يستطيع رؤية نهاياتها أو نتائجها إلا النبيّ الأمين -صلّى الله عليه وآله وسلم- الَّذِي ينظر بنور الله بنبوّته ورسالته، وإدراكه لتجارب النبيّين والمرسلين الذين سبقوه، فهو بذلك قادر على تلك الرؤية، وإدراك أنَّ تلك البدايات الصغيرة مثل مستصغر الشرر، إذا لم تُعالج فستتحول إلى حرائق ضخمة تأكل اليابس والأخضر.

لذلك نراه -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- كثيرًا مَا يلجأ إلى الدعاء للأمَّة من ناحية، وإلى تحذير الأمّة من ناحية أخرى عندما يستشعر خطرًا من هذا النوع، فقد كان -عليه الصلاة والسلام- إذا قرأ قوله تعالى: "قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ" (الأنعام:65) اضطرب -صلوات الله وسلامه عليه- واستغاث بالله -سبحانه- قائلًا: "أعوذ بوجهك" أو: "نعوذ بك نعوذ بك... "(6)، وكان يهرع إلى الدعاء.

فقد أخرج الطبري الحديث (13364)، وفيه أنَّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- صلّى ذات يوم الصبح فأطالها... فسُئل عن سبب ذلك فقال: إنّها صلاة رغبة ورهبة وذكر، وأنّه سأل الله -تعالى- لأمته أن يحفظها ويمنعها مما جاء في ذلك الوعيد، وأجمعُ مَا ورد فيه الحديث (13368) وفيه: "... إنّ الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ مُلك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها، وإنّي أُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإنّي سألت ربي أن لا يهلك قومي («أمّتي» عند أَحْمَد عن ثوبان) بسنَةٍ عامّة، وأن لا يلبسهم شيعًا، ولا يُذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا مُحَمَّد، إنّي إذا قضيت قضاءً فإنّه لا يُرد، وإنّي أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنَةٍ عامّة، وأن لا أسلّط عليهم عدوًّا ممن سواهم فيهلكوهم بعامة حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، وبعضهم يقتل بعضًا، وبعضهم يسبي بعضًا.. "، وكان تعقيب رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- أن قال: "إنّي أخاف على أمّتي الأئمَّة المضلّين، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة"؛ لأنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- يعلم أنّه خاتم النبيّين، لا نبيّ بعده تجتمع عليه الكلمة وتوقف الفتن.

وللحديث ألفاظ أخرى كثيرة، وروايات عديدة، وأورد الطبريّ في (13361) حديث أبي العالية في قوله تعالى: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (الأنعام:65)، قال أَبُو العالية: "فهن أربع، وكلّهن عذاب، فجاء مستقر اثنتين بعد وفاة رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بخمس وعشرين سنة، فألبسوا شيعًا، وأذيق بعضهم بأس بعض، قال: وبقيت اثنتان، فهما لا بد واقعتان... "(7).

إنّ خاتمة الآية) انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)، فتصريف الله هذه الآيات في أمم سبقت -قست قلوبها، ونسيت وتناست مَا أنزل الله -تعالى- فيها من كتب- سنّة ماضية، لا تقع في أمّة إلا حدث فيها ذلك، ومنعه -صلى الله عليه وآله وسلّم- إجابة دعوته في عدم إلباس أمّته شيعًا، واختلاط الأمور عليهم إذا تراخت قبضتهم عن كتاب الله -تعالى- فالتبست عليهم الأمور، واختلفت قلوبهم، واختلطت أهواؤهم، وصاروا أحزابًا متفرقة هُوَ أمر منوط بهم، وبفقههم للآيات التي صرّفها الله فيمن سبقهم، وهي لا بد جارية فيهم.

إنّ الأمَّة لو تمسّكت بالكتاب لما فرّطت بوحدتها ولا توحيدها، ولا رضيت بتسلّط الظالمين من فوقهم عليها؛ ولذلك لم يُبعد ابن عباس حين قال في قوله تعالى: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) (الأنعام:65) الأمراء الظلمة أو أئمة السوء أو: (مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)؛ يعني سفلتكم؛ أي: من أعوان الظلمة وأدواتهم. وفي إعلان رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- منع الباري رسوله من إجابة دعائه في هذا الأمر تذكير بسنن الله التي لا تبديل لها، وقوانين الله الثابتة، مثل سنّة «التدافع» وسنّة «الاعتصام بحبل الله» أو «التفريط» بذلك.

إنّ فتنة إلباس الناس شيعًا، وإذاقة بعضهم بأس بعض سنّة إلهيّة ماضية في أولئك الذين أوتوا كتبًا فلم يستمسكوا بها، وأُرسل إليهم رسلٌ فغيّروا في حياتهم؛ مثل بني إسرائيل، أو بعدهم؛ مثل أمّة مُحَمَّد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- فإنَّهم وفقًا لتلك السنن يذقون من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون:)فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ*أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ) (الزخرف:42،41).

وقد أورد الطبري أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بعد نزول هاتين الآيتين قام فراجع ربه -سبحانه- وقال: "أيّ مصيبة أشد من أن أرى أمتي يعذّب بعضها بعضًا؟"، فأوحى الله -تعالى- إليه: (الم*أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ*وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (العنكبوت:1-3)، فأعلمه أنَّ أمّته ليست استثناءً من هذه السنّة، وأنّها ستُبتلى كما ابتليت الأمم، إذا لم تستمسك بما أنزل الله، ثم أنزل سبحانه عليه معلّمًا إياه -صلّى الله عليه وآله وسلّم- كيف يدعوه في هذا الشأن:)قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ*رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (المؤمنون:93،94)، فتعوّذ بها رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- فأعاذه الله -سبحانه- فلم يشهد في أمَّته حتى وفاته إلا الجماعة والألفة والطاعة، ولم يشهد فتنتهم واختلافهم وفرقتهم رحمة منه -سبحانه وتعالى- بنبيّه الرؤوف الرحيم صلّى الله عليه وآله وسلَّم.

وفي حديث زيد بن أسلم لدى الطبري (13378) قال: "لما نزلت: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (الأنعام:65)، قال رسول لله صلّى الله عليه وآله وسلم: "لا ترجعوا بعدي كفّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف"، فقالوا مستغربين: "ونحن نشهد أنّ لا إله إلا الله وأنَّك رسول الله؟!" قال: "نعم!!"، فقال بعض الناس: "لا يكون هذا أبدًا!!"، فأنزل الله تعالى (.. انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ*وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ*لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (الأنعام:65-67)، لقد رحم الله نبيّه من شهود تلك المواقف الحرجة، فاستأثر به ورفعه إليه قبل أن يتغيّر القوم، وقبل حدوث الفتنة التي توعّد الله -سبحانه وتعالى- بها: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال:25)(8).

لقد أدى الأمانة -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وبلّغ الرسالة، ونصح الأمّة، وجاهد في الله حقّ جهاده، وبيّن أنواع الفتن فيما بيّن، فهناك فتن يُفتنها الإنسان في أهله وماله ونفسه، يكفّرها الصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهناك فتن كبرى، تموج كموج البحر، تُصيب الأمّة كلّها. لا تدع أحدًا إلا لطمته، كلّما قيل انقطعت أو توقفت قامت من جديد وتمادت، يُصبح الإنسان فيها مؤمنًا ويُمسي كافرًا، يتمايز الناس فيها في الأمور والشؤون والمواقف على اختلافها، يكون القابض فيها على دينه كالقابض على الجمر، وأخطر مَا فيها ذلك الغبش والتباس الأمور والتياثها، واضطراب المفاهيم، واختلاط الأمور والتباس الحق بثياب الباطل، والباطل بثياب الحق، وذلك مَا يجعل الحليمَ حيرانًا؛ وهذه الظروف يشهد الناس فيها تذبذبًا في المواقف والرؤى لا

عهد لهم به في مختلف فترات التاريخ، وهنا يجد الناس أنفسهم بين أمرين لا ثالث لهما؛ إمّا القرآن وإمّا الدجاجلة والشيطان.

فتنة اللبس والاختلاف، واضطراب الرؤى

«اللّبس» و«الاختلاف» و«اضطراب الرؤى» أن يلتبس المعروف بالمنكر، والمنكر بالمعروف، والخير بالشر، والشر بالخير، بحيث يُصبح من العسير أن يتمحَّض المعروف أو الخير خالصين من دون أن تشوب كلًّا منهما شوائب من المنكر والشر، ولا يتمحض الحق -خالصًا- من دون أن تشوبه شوائب من الباطل، وليس سهلًا رصد تلك الشوائب أو الدخن، وتخليص الخير والمعروف والحق منها، فذلك يحتاج إلى علماء ربّانيّين أكفّاء لهم من الخبرات والتجارب وأنوار البصائر مَا يُمكّنهم من تلك الـمَلَكة؛ فإنّ أخطر طاقات شياطين الإنس والجن تكمن في تلك القدرة الهائلة على «التلبيس» و«الخلط»؛ وهي قدرة تقوم على عمليّات معقّده نبّه القرآن المجيد إليها في قوله تعالى: (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) (العنكبوت:38)، وقال تعالى: (شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) (الأنعام:112).

مدخل التزيين والفتنة

ومدخل «التزيين» هذا مدخل في غاية الخطورة، فهناك «الزينة» الحقيقيَّة، وهي مَا لا يُشين الإنسان في شيء من أحواله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهي أمر مرغوب ومطلوب فطرةً للإنسان، وهناك مَا قد يُزيّن الإنسان في حالة، ويُشينه في حالة أخرى، وهي أمور تُدرك بالمعرفة والخبرات والتجارب؛ ولذلك قيل: "حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين"، فتكون زينة وشينًا نسبيّين في الأحوال والأشخاص والمعاني، و«الزينة» قد تكون نفسيَّة؛ كالشجاعة والعلم والمعرفة والأفكار والتصورات والاعتقادات الحقّة.

وهناك زينة تتعلق بالبدن؛ كالصحة والقوة وطول القامة واعتدالها وما إلى ذلك. وهناك الزينة الخارجيَّة؛ مثل المال والبنين والجاه والسلطان وما إلى ذلك. وقوله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ

إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) (الحجرات:7) إشارة إلى تزيين الله -سبحانه- الإيمانَ لُطفًا منه -سبحانه- وتفضّلًا ومنّة من الله على الإنسان أن يُحبّب له الإيمان، ويشرح صدره له، ويُكرّه إليه الكفر، ويحمله على ضيق الصدر به، وذلك من «الزينة النفسيَّة والقلبيَّة» إن شئت.

وفي قوله تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الأعراف:32)، وهذه في الزينة الخارجيَّة، ويمكن أن يُراد بها العموم في غير مَا نهى الله عنه وكرهه. وقوله تعالى:)فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (القصص:79)، وهي زينة خارجيَّة يخرج بها الملوك والقادة على أقوامهم في مناسبات وأعياد قد تُسمَّى بـ«يوم الزينة»، ومنها الأعياد الدينيَّة والقوميَّة وما إليها.

وأُطلق على الحلاّق في بعض البلدان «المزيِّن» لعنايته بتزيين من يحلق له زينة خارجيَّة، وقد يخذل الله -تعالى- بعض العصاة بمعاصيهم، فيكون خذلانه لهم وعدم حمايتهم من تزيين الشياطين وإضلالها لهم بمثابة «تزيين» منه -جلّ شأنه- لأعمالهم في أعينهم، وهو من قبيل السخريَّة بهم.

وأحيانًا ينسب الضالّون ضلالهم وعدم استقامتهم؛ انسياقًا منهم مع وساوس شياطينهم إلى الله -سبحانه- كأن يقولوا:)سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ) (الأنعام:148)، (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) (الأعراف:28،29).

وقد يتوهم الضالّون أنّهم يُمارسون ضلالهم تعبيرًا عن تمرّدهم وخروجهم على مشيئته -سبحانه- يقول سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) (النمل:4)، فهؤلاء الذين سوّل لهم كفرهم وكبرهم أنّهم سبقوا يُصيبهم الله -سبحانه- بحسرة أكبر بأنّهم لم يخرجوا بكبرهم وغرورهم وكفرهم عن دائرة الألوهيَّة والربوبيّة، فلو شاء الله إكراههم على الإيمان به وطاعته لما استطاعوا الخروج عن ذلك، لكن خذلانه -سبحانه- لهم لأنّهم نسوا الله فنسيهم، وأنساهم أنفسهم، وزيّنت الشياطين لهم كفرهم ومعاصيهم، وأوهمهم أنّهم يفعلون ذلك بإرادتهم واختيارهم، فقال سبحانه: (كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام:108)، فلا يُفهم من هذا أنّه -سبحانه- قد حملهم -بذلك «التزيين»- على الكفر،

بل وردت الآية في سياق بيان سنّة ماضية في البشريّة، وهي رؤية كل أمّة حسن وصحّ مَا هِيَ عليه.

فالله -تبارك وتعالى- يقول لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلم:)اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ*وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام:106-108)، كما وردت في وعيد الشيطان لبني آدم:)قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (الحجر:39)، ونحوه: (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال:48).

وقال جلّ شأنه: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (آل عمران:14)، وهنا بُني الفعل للمجهول، ونحوه: (زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (التوبة:37)، وكذلك في قوله: (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (البقرة:212)، وقوله:)وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) (الأنعام:137)، وقوله تعالى: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (فصلت:12)، وقوله تعالى: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) (الملك:5)، (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) (الصافات:6)، وقال سبحانه: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) (الحجر:16).

وهناك زينة معقولة يختص بمعرفتها الخاصّة. وتزيين الله للأشياء قد يكون بالتخلية بين شياطين الإنس والجنّ وبين الناس، فيمارسون مَا يمارسون تزويقًا باللسان ومدحًا، وذكرًا للشيء بما يرفع من شأنه، وقد ينسب «التزيين» إلى الله -تعالى- بذلك المعنى؛ لأنّه -سبحانه وتعالى- «لا يأمر بالفحشاء» ولا يُزيّنها لأحد، وقد يُنسب إلى الشيطان، وتلك أهم وسائله، وقد يُنسب للمجهول،

ويحدّد السياق المراد.إنّ أخطر الفتـن تلك التي تلتبس على الناس، فلا يتمخض الشر فيها، بحيث يظهر شرًّا مكشوفًا يستطيع الناس إدراكه، ومعرفة مَا فيه.

فتنة الحكم

لقد حدثت «فتنة الحكم» في وقت مبكّر من تاريخ الإسلام؛ في شكله، وكيفيّة توزيع الصلاحيّات، والمسئوليَّات، والواجبات، والتعيين، والعزل، والحقوق والواجبات، وإمامة المتغلّبين والمماليك وما إليهم، ولو ردّوه إلى الله -تعالى- وإلى الرسول -صلّى الله عليه وآله وسلّم- لوجدوا المحجّة البيضاء، ولكن بدلًا من أن تؤخذ الحلول من القرآن المجيد، والتفعيل والتأويل النبويّ له، بالحكمة التي آتاه الله -تعالى- وعندها كانت لتمنع ما حدث من تراكم مشكلات تلك الفتنة وتعقّدها واستبسالها، وتحوّلها لبؤرة ومصدر لتوليد فتـن أصغر وأكبر، فتحوّلت إلى مطحنة تطحن الأمّة، ودوّامة تتخبط الأمّة فيها وتتـردّى في كل عصر ومصر، وتتـراكم ظلماتها. وتجارب الفرق والطوائف المختلفة فيها لم تقدّم حلولًا.

وأعلن الواقع فشل تلك التجارب، ذلك وإن لم يحفز الأمّة لتجاوز تلك التجارب الفاشلة والعودة إلى الأمر الأول. وليت الأمر وقف عند تلك الحدود، لكنّه لم يقف عندها؛ بل تجاوزها إلى حد التلاعب بالمصادر الهادية؛ وذلك بالتفسير والتأويل المنحرف لنصوص الكتاب الكريم، وإدخال الأحاديث الموضوعة على السنن، وبقيت الحركات الإصلاحيّة المختلفة تتخبط يُمنة ويسرة، وكثيرًا مَا تحسب السراب ماءً حتى إذا جاءته لم تجده شيئًا، فمتى تجد الله -عنده- ليوفّيها الحساب، ويعلمها حكمه فيما تختلف فيه؟

إنّ الله تعالى دلّنا على الطريق، ومنّ علينا بحبل ممدود إليه، إذا تمسّكنا به أوصلنا إليه، لكن صبر البشر على ذلك محدود، وقدرة الناس على الإمساك بحبله -سبحانه- قليل منهم مَنْ يمكنه الصبر عليها، ويحتمل متطلبات ذلك الاستمساك والاعتصام بحبل الله -تعالى- العاصم من التفرق الحامي من الفتن، والـمُخرج منها بإذن الله تعالى.

ختامًا.. هل تُعدّ الأحداث الجارية في البلدان العربية من قبيل الفتن كما صرّح البعض؟ أم هي شيء آخر؟

لقد تبيّن مما تقدم أنّ «الفتنة» أمر عام شامل، يشمل الذين ظلموا ولا يقتصر عليهم، بل يتجاوزهم إلى الآخرين من أبناء الأمّة، وقد تغمر الفتنةُ الأمةَ كلّها، و«الفتنة» أمر تلتبس فيه الأمور، لا يُعرف فيها الحق من الباطل، والخطأ من الصواب، والاستقامة من الانحراف؛ لكثرة التأويلات وتشعّب التفسيرات، وانتشار وتفشي الدعاوى التي يستنصر بها المتجادلون، وعدم ظهور وجه الحق الصريح في أي منها، فإذا ظهرت وجوه الحق فإنّ الأمر لابد أن يجري التفكير فيه وفقًا لموازين الحق والباطل، والخطأ والصواب، والضلال والهدى.

وما يجري في الوقت الحاضر من الواضح أنّ فيه ما يُبيّن أو يُنبّه -ولو على مستوى الإماء والإشارة- إلى أنّ الحق مع فريق ظُلم واغْتصب حقّه وصُودرت حريّته، وأنّ مَنْ يُقابله فريق متغلّب استخدم القوة والسطوة التي لا يُفترض أن يستبدّ بها، وجعلها وسيلة لتمكين لنفسه، والاستبداد بشؤون الناس، وبالتالي فمن الصعب إضفاء صفة الفتنة على تلك التحرّكات مهما كانت الخسائر، إذ إنّ الاستبداد هو أخطر ما يدمّر إنسانيّة الإنسان، ومقاومة الإنسان للاستبداد فيها معنى الدفاع عن إنسانيّته وعن حريّته وكرامته.

لقد قصّ القرآن علينا من قصص بني إسرائيل الكثير، وبيّن لنا الدروس والعبر من تاريخهم، فهذا الشعب حين أُخضع للاستبداد الفرعوني انمحت إنسانيّته، حتى حين حرّره الله تعالى من فرعون، وأغرق فرعون بأشكال خارقة للعادة، ومَنّ عليهم بنبيّ ورسول هو قائد قوميّ في الوقت نفسه، ربّاه في قصر فرعون لكي لا يكون فيه أيّ أثر لعبوديّة قومه لفرعون، مع ذلك أخرجهم إلى الأرض المقدّسة، وأبدلهم بموسى قائدًا ونبيًّا ورسولًا، وجعل -جلّ شأنه- من نفسه حاكمًا لهم في أرض قدّسها لاتصالها باسمه الشريف، لكن ذلك كله لم يستطع أن يُطهّر نفوسَهم من آثار الاستبداد، فكانوا يحنّون إليه ويرجعون إليه من وقت لآخر؛ ولذلك عبدوا العجل، وطلبوا من موسى أن يُريهم الله جهرة، وفعلوا كثيرًا مما سجّله القرآن المجيد عليهم باعتباره جزءًا من تاريخهم الواسع.

إنّ الاستبداد استعباد من الإنسان لأخيه الإنسان، وهذا الاستعباد يمحق إنسانيّة المستعبَد والمستعبِد، فالمستعبِد تُزيّن له نفسه وتخدعه عن حقيقته، ويرى في نفسه امتيازًا عن البشر لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة، والمستعبَد تُسحق إنسانيّته تمامًا، فيكون أبكمًا لا يقدر على شيء، كلًّا على مولاه، لا يُحسن التصرّف في أي شيء؛ لأنّ الاستبداد يحوّل الإنسان إلى شيء من الأشياء؛ ولذلك فإنّه لا يمكن للإسلامي أن يسوغ الاستبداد مهما كان نوعه، ولا أن يُطالب الناس بالخضوع إلى المستبِد، كما أنّ

المستبِد يستحيل أن يكون عادلًا كما مر؛ لأنّ: (كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى*أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) (العلق:6،7)، والاستبداد يجعل المستبِد يرى أنّه مستغنٍ عن شهبه، لا حاجة له فيه، وأنّ شعبه هو المحتاج إليه دائمًا. والله أعلم.

إحالات مرجعية

(1) - نص الحديث: «من أمّ قومًا وهم له كارهون؛ فإنَّ صلاته لا تجاوز ترقوته»؛ (صحيح بمجموع رواية جمع من الصحابة بألفاظ متقاربة)، انظر الترغيب 171 / 1، وانظر السلسلة الصحيحة – الألباني، رقم 2325.

(2)- وقد تأثر تلاميذته بهذا حتى قال رشيد رضا في مقالته بعنوان «الإصلاح والإسعاد على قدر الاستعداد»: «لا مانع من التسليم بوجود القائد الداعي للإصلاح، المستبد العادل، الذي يسوق الناس إلى النهضة والعلياء سوقاً، لكونه يحكم أمة خاملة ورعية جاهلة فيحملها بالقهر والإلزام على ما يُطلب ويُرام».

(3) - في ظلال القرآن تفسير «سورة النازعات».

(4) - أخبرنا أبو يعلى حدّثنا عليّ بن الجعد الجوهريّ أخبرنا حمّاد بن سلمة عن سعيد بن جهمان: عن سفينة قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثمّ تكون ملكا».

قال: أمسك خلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتين وعمر رضي الله عنه عشرا وعثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة وعليّ رضي الله عنه ستّا. [ص:79] قال عليّ بن الجعد: قلت لحمّاد بن سلمة: سفينة القائل: أمسك؟ قال: نعم

= (6943) [8: 3]. [تعليق الشيخ الألباني]، حسن صحيح - تقدم (6623).

الكتاب: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه.

مؤلف التعليقات الحسان: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، (المتوفى: 1420هـ)، رقم (6904).

(5)- حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سلمة بن كهيل قال سمعت أبا الطفيل يحدث عن أبي سريحة أو زيد بن أرقم شك شعبة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب وقد روى شعبة هذا الحديث عن

ميمون أبي عبد الله عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه وأبو سريحة هو حذيفة بن أسيد الغفاري صاحب النبي صلى الله عليه وسلم.

تحقيق الألباني: صحيح، الصحيحة (1750)، الروض النضير (171)، المشكاة (6082).

الكتاب: صحيح وضعيف سنن الترمذي، رقم (3713). المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني.

(6)- تفسير الطبري محمود شاكر ومراجعة أَحْمَد شاكر. دار المعارف بمصر (423-422/11). وتفسير الآية والآثار الواردة حولها تبدأ بصفحة (434-416) من الجزء نفسه.

(7)- المصدر السابق (421/11). وهنا يقتضي الأمر بحوثًا مستفيضة دقيقة تتتبّع كل مَا حدث في جيل الصحابة بعد وفاة سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم- ورصد مختلف التغيّرات التي طرأت، وأدت إلى كسر الأبواب والسدود التي كانت قائمة في وجه الفتنة، وتحديد مَا أدى إلى ذلك.

(8) - إنّ استجابة الأمّة السلبيَّة لهذا التحذير الإلهيّ ثم النبويّ كانت للأسف استجابة عكسيّة، بل سلبيَّة لافتة للنظر، فهي بدلا من أن تنهض على قدم وساق لاتخاذ الاحتياطات اللازمة للحيلولة دون الطغيان والاستبداد الَّذِي يوجد أسباب الصراع والفتن والاقتتال ذهبت تنسحب بقيم الإسلام من أمام الطغاة لتمهد لهم الطريق فترفع شعار «الخلاف شر» ولا تدعو المتسلط لينزل عن سلطانه لصالح الأمّة، بل تدعو الأمّة لتسكت عنه. وأخذت تشرّع بعد ذلك لإمامة المتغلب والمتسلط وصاحب العصبيَّة فكانت فتنة أخرى ولو رجع الناس إلى كتاب الله –تعالى- وردّوا الأمر إلى «الأمَّة الشاهدة» وجعلوه شورى حقيقيَّة بينها تختار وتنظر إليهم على أنّهم أجزاء لديها. ورفضت «ولاية المغتصب والمتغلّب» أيّا كان، وأجرت على «الشورى» وفرضت إقامة المؤسَّسات التي تنظمها وتحميها، وتضمن لها الاستمرار لتحمي حريّة الأمَّة ومشاركتها، وتداول شئونها بين المتقين الأكفاء العدول المتميزين من أبنائها، وتحملت الأمّة الشاهدة مسئوليّاتها الكاملة في مراقبة حكامها بعد اختيارها وعزل من يثبت خطؤها في اختياره، لا الاستسلام له «خوف الفتنة» لهم، لو فعلت ذلك وتمسّكت به لتجنَّبت الفتنة، ولما سقطت فيها، ولما دفعت أرواح الملايين عبر تاريخها ثمنًا للاستبداد والطغيان.

إنّ المؤسف أنَّ العودة إلى كتاب الله كانت آخر مَا يتجه مَا عرف «بالفكر الإسلاميّ» إليه. فالشيعة ظنُّوا أنّ اللّجوء إلى «النصّ» سوف يحسم الخلاف فحمّلوا «حديث الغدير» مَا شاؤا حتى بلغ آخر شرح له ستة عشر مجلدًا. وحين أرادت إيران أن تقيم دولتها المعاصرة لم تجد إلا التحايل على «مبدأ النص على الولاية» بطرح «ولاية الفقيه» لتسمح لصناديق الاقتراع أن تأتي بحكام

معاصرين يستمدون شرعيّتهم من لجان صنعوها وصيغ ابتكروها. ولما أراد بعض المفكّرين الإسلاميّين السنّة أن يركبوا موجة انقلابات عسكريّة ليصلوا إلى السلطة التي عز عليهم الوصول إليها بغير ذلك الطريق نبشوا في التراث السنيّ ليجمعوا بين قواعد «المصلحة وسد الذرائع، وجواز إمامة المتغلّب» وما إلى ذلك، وإرضاء الله ليس مشكلة كبيرة إذ أنّه سبحانه متعطش في نظرهم –تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا- لبضعة جالونات دم من دماء المرتدين وبضعة اكف تقطع، ولا مانع من قطع بعض الأرجل من خلاف إذا اقتضى الأمر لإرضائه. وذلك هُوَ «تطبيق الشريعة» في نظر بعضهم كتطبيقها من محترفي القرصنة والقتل من الذين قد يسمّون أنفسهم في بعض الأحيان بالمجاهدين زورًا وبهتانًا وما هم –والله- إلا أصحاب فتنة: «ألا في الفتنة سقطوا». وكذلك القتلة المنتشرون في مختلف أنحاء الأرض يجنّدون ذوي العاهات من شباب ضائع أضاعته النظم ودفعته نحو كل موبقة ليهلك، لأنّه عبء عليها فمن هلك بالجنس والمخدرات فقد أراح واستراح وإلا فليهلك بذلك الَّذِي يسمّونه «جهـــاد» افتراءً على الجهاد والمجاهدين. يذهب أحدهم فيقتل أهله وذويه بسيارة مفخخة أو أيّ أداة إجراميّة أخرى، والقاتل والمقتول ربح لإبليس ولأعوان إبليس في الدنيا والآخرة. والقاتل وقود للنار التي وقودها الناس والحجارة.

القرآن المجيد وسؤال الثورة

إنّ القرآن المجيد كتاب الله مخرج من الفتن، مزيل للشبهات، منير، مشرق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا تزيغ به الأهواء، فيه خبر من قبلنا ونبأ من بعدنا وحكم ما بيننا، هُوَ الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ولو رددنا إليه أي أمر من أمورنا أو أي شأن من شئوننا لهدانا للتي هِيَ أقوم ولقاد خطانا إلى التي هِيَ أهدى وأسلم.

ولا شك أنّ بعضنا يرجع إلى القرآن المجيد، ثمّ قد لا يجد فيه ضالَّته وقد يتوهم بأنّ القرآن المجيد ليس فيه مَا يبحث عنه ولم يتطرق أو يتعرض إلى مَا هُوَ معنيٌّ به، وليس ذلك صحيحا؛ لأنّ القرآن المجيد لا يقصر عن الإجابة عن سؤال سائل عرف كيف يقرؤه ويثوّره ويتحاور معه. ولذلك فقد رأيت أن أقدّم لنفسي وللقراء هذه التجربة في حواري مع القرآن، ومساءلته والبحث فيه!!

مَا الَّذِي تراه يا قرآن في ثورة المظلومين على الظالمين من حكامهم إذا تسلَّطوا عليهم فضربوا أبشارهم، واستباحوا أموالهم، وقيدوا حريّاتهم، وأفسدوا حياتهم، واستبدوا بشؤنهم، يحاسبون مَن يخالفوهم ويفتكون بمن يعارضهم وينتهكون حريّة من يعاديهم، لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمّة، وهم في الوقت نفسه لم يطبقوا شريعة الله –تعالى- ولم يستنّوا بسنّة نبيه -صلى الله عليه وآله وسلّم- ولكنهم كما يرى بعضٌ أوجدوا حالة من السكون أو مَا يسميه البعض بالاستقرار، وحققوا بعض المكاسب في مجال بعض قشور مظاهر الحياة، وبعض مَا يطلق عليه مشروعات التنمية وما إليها، فهل تجوز الثورة عليهم والعمل على تغييرهم بقوة؟ وما قد يستتبع ذلك من إراقة دماء وتهديد استقرار وما إلى ذلك؟

يجب أن يعلم كل إنسان أنّ الملك لله ابتداءً وصيرورة وانتهاءً وعاقبة، وأنّ الله جلّ شأنه هُوَ مالك الملك يؤتي الملك مَن يشاء وينزع الملك ممن يشاء (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران: 26)، فإذا علمت هذا فذلك يعني أن ليس لأحد أن يبادر ربه، ويحاول أن يستحوذ على الملك فيأخذه لنفسه وينزعه من غيره أو يتصرّف في هذا المجال وكأنّه مجال حر لا تدخل لله -تعالى- فيه، لأنّ الملك ملكه أولاً وأخيرًا والبشر مستخلفون فيه!! ليس لهم الخروج عن شرائعه وما رسم لهم في ذلك كلّه، هذه هي المسلّمة الأولى.

هناك مسلّمة ثانية وهي أنّ الله –تعالى- مَا خلق السموات والأرض إلا بالحق، وأنّ كل مَا جاوز الحق فمآله إلى السقوط وإلى الاندثار، وأنّ العاقبة للمتقين وأنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأنّ حكمته قد اقتضت أنّ الأرض يرثها عباده الصالحون في نهاية المطاف.

انطلاقًا من هاتين المسلمتين على الإنسان المسلم أن يبدأ بتأسيس «نظريّته في عمليّة الإصلاح والتغيير السياسيّ عند الانحراف». فيعلم أنّ لله –تعالى- في هذا الكون سننًا وقوانين لا تتبدل ولا تتغير، وهذه السنن والقوانين بناها الخالق العظيم بعلمه: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير) (الملك:14) وتلك السنن اقتضت مشروعين يتصارعان منذ خلق الله –تعالى- آدم ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، ولكن إبليس استكبر وعصى ورفض السجود لآدم وقال: (أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) (الإسراء: 61) ثم سأل الله –جل شأنه- (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِين) (الحجر: 36-40)، ثم أدخل آدم الجنة، وبمقتضى الوعد الإلهيّ لإبليس بالإنظار أعطاه فرصة دخوله ورائهما فوسوس لهما بعد أن عرف أنّ الله –تعالى- قد أباح لهما الأكل من الجنة كلّها إلا هذه الشجرة، فظل يوسوس حتى استغل فرصة نسيان آدم عهد الله له (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) (طه: 115)؛ (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَان) (البقرة:36)؛ أي: أزلّ آدم وزوجه مستغلاً رغبتهما في الخلد وملك لا يبلى، وبعد ذلك رحم الله –تعالى- آدم وذريته، فعلّم آدم كلمات (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة: 37)، هِيَ كلمات تاب بها إلى الله –تعالى- وأناب وتذكّر عهده مع الله –جلّ شأنه- ثم اقتضت حكمة الله –تعالى- أن ينزل الجميع إلى الأرض؛ آدم وزوجه وعدوهما إبليس (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون) (البقرة: 38). وزيادة في لطفه جلّ شأنه اقتضت مشيئته أن يعزز آدم بالوحي وبالنبوات المتتابعة ليعينه أكثر على معرفة أحابيل الشيطان وطرائقه في الوسوسة ويجنبه أن يستغل منه غفلة مرة أخرى كما فعل مع أبويهم من قبل، فصار إبليس وحيدًا مذؤومًا مدحورًا يحمل حسده وحقده لآدم وبنيه ولا يملك إلا ذلك، وإن كان يحاول دائما أن يخيّل لبني آدم أنّه يملك شيء من سلطان، وهو لا يملك شيئا من ذلك وسيعلنه على الملأ في يوم لا ينفع الندم فيه (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ

بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (إبراهيم: 22)، وقال الله –تعالى- لآدم وبنيه: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (فاطر: 6)، وقال تعالى: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) (يس: 60-64).

ومنذ ذلك الوقت والأرض وما عليها ومَن عليها تسود فيها فكرتان ومشروعان، مشروع أسسه الرحمن –جلّ شأنه- يقوده أنبياؤه ورسله والصالحون من عباده لترسيخ توحيد الله –تعالى- ، وعمران للأرض، وتزكية للإنسان. ولا خير في فعل إنسانيّ إلاّ إذا دار حول هذه المقاصد والقيم العليا التي لا بد أن ينشغل الإنسان بها، فهي الحق وما بعد الحق إلا الضلال.

والمشروع الشيطانيّ يقوده إبليس والشياطين؛ شياطين الأنس وشياطين الجن، وهو مشروع يعمل على استبدال التوحيد بالشرك وتعدد الآلهة والأرباب المتفرقين وتدسية الإنسان وتدنيسه ودفعه نحو الفساد والإفساد، ودفعه إلى الاغترار بهذه الأرض وبالحياة الدنيا وإقناعه بأن مَا يفوته من الحياة الدنيا من ملذات فإنه يفوته إلى الأبد وأنه لا حياة أخرى إنّما (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين) (المؤمنون: 37) ويصوّر له مشروع الشيطان أنّه غير مطالب في هذه الحياة الدنيا بتزكية أو عمران أو توحيد؛ بل هُوَ مطالب أن يعبّ من الشهوات وأن يزجي أيامه وشهواته بلهو وباطل العمل وما إلى ذلك (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَاد) (البقرة: 205-207).

يقابل هذا الفريق فريق آخر استطاع أن يتغلب على وساوس الشيطان، ولم ينخدع بشيء منها بقطع النظر عمّا إن كانت صدرت عن شياطين إنس أو شياطين جن، وهم الذين يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله –تعالى- فباعوا أنفسهم له وجندوها لمشروع الرحمن، فكانوا حزب الله وأولياء الرحمن (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) (الفرقان: 63) لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادا، يحاربون الفساد ويرفضونه ويحاربون الشيطان، ويحولون دون انتصار مشروعه بكل مَا آتاهم الله من هداية ووسائل.

وقد اقتضت حكمة الله أن يضع سننًا وقواعد، فهناك «سنّة التدافع» التي تقوم على دفع الله الناس بعضهم ببعض، فيدفع مشروع الشيطان بمشروع الرحمن، ويهزم أعوان الشيطان بجهود وجهاد أولياء الرحمن. وستبقى الحال على مَا فصّل –عزّ وجل- وأقام ملكه عليه حتى تفنى الحياة الدنيا على انتصار شامل للمتقين وعاقبة للمؤمنين وتوريث الأرض للصالحين.

وأولياء الرحمن هؤلاء من شأنهم أن يتجردوا من حظوظ نفوسهم لكي تكون نفوسهم ورغباتهم وهواهم وتطلعاتهم وأشواقهم كلها متجهة نحو الباري سبحانه وتعالى وانتصار مشروعه –جلّ شأنه- وهزيمة إبليس ودحره.

والحكام المستبدون والأغنياء الباخلون والقارونيُّون الذين اتخذوا من قارون مثلاً حين فسد في الأرض، وظنّ أن كل مَا أعطاه الله –تعالى- من مال ليفنيه اعتبره مكسبًا جاءه من كده وجهده وعبقريّته (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) (القصص: 78)، فيصيب هؤلاء الفراعين والقارونيّين وأمثالهم من الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس مَا ينسهيم الله –جلّ شأنه- ويجعلهم مع الشيطان دائما لأنَّه (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف: 36).

وإذا قارن الشيطان إنسانًا وصادقه واستولى على عقله ولبه وقلبه فقد هلك. وهؤلاء الذين يبتلى الله بهم عباده من الذين إذا تولوا سعوا في الأرض ليفسدوا فيها وابتغوا العلو فيها وطغوا وبغوا واستبدوا وتعالوا على عباد الله، وألّهوا أنفسهم وشياطينهم، ونسوا الله فاستدرجهم وأنساهم أنفسهم، هؤلاء لا يعني أنّهم قد خرجوا عن محيط السنن الإلهيّة ودوائرها المحيطة بكل شيء، ولكن تكون هناك سنن مسخّرة أدت إلى غفلة الناس وتجاوزهم أسباب التقوى، فحين يفعلون ذلك قد يتسلط الأشرار على الأخيار، والمشركون والكفار على المؤمنين الموحدين، وأهل التدسية على أهل التزكية ودعاة التخريب والاستكبار في الأرض وتجاهل حقوق الله فيها على أولئك الصالحين، فتحدث الفتنة؛ أي: الاختبار والابتلاء بهولاء يفتن الناس وفق سنة أخرى هِيَ «سنة الفتنة»؛ يقول الله تعالى: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) (الأنفال: 25)؛ بل تعم كما في حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله تعالى عنها- قالت: (أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث))( ).

وفي حديث عائشة أن خسفًا ومسخًا وقذفًا( ) سيحدث في هذه الأمّة دون تحديد أن يكون هذا في هذه أو غيرها أو في الأرض بعامة، وكأن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- قد فهمت أن هذه الأمور ستكون في الأمّة المسلمة ولذلك تساءلت: «أنهلك وفينا الصالحون» قال -صلى الله عليه وآله وسلّم- نعم إن كثر فيكم الخبث، وهذه الأحاديث ينبغي أن تربط بآيات الكتاب الكريم وما يتعلق بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر الَّذِي هدفه التذكير بالله وتحذير الناس من الاسترسال في المخالفات وردهم إلى الله ردا جميلا.

وتأتي مع «سنة الفتنة سنة التدافع»، فالقضاء على فتنة هؤلاء يقتضي أنّه لا بدّ لأهل الحق من أن ينهضوا بواجباتهم ويقوموا بما عليهم (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج: 40)، فإن لم يقم أهل الحق بما عليهم فقد يظهر الباطل ويسود، فإذا عجز المؤمنون بعد الصدق وبذل كل الجهود فإنّ لله -تعالى- جنودًا غيرهم، (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُو) (المدثر:31). وقد يخضع أهل الباطل فسيخضعون لسنة الاستئصال والتدمير وتسليط شتى الابتلاءات عليهم، فالمقصرون ستمضي سنة الاستبدال فيهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (المائدة: 54)، (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (محمد: 38).

فمن اعتبر مقاومة من يسعون في الأرض فسادًا ويريدون علوًّا في الأرض، والذين يستذلون عباد الله ويصادرون حريّتهم ويمحقون إنسانيّتهم فتنةً فإنّه يكون قد ابتعد عن الوعي بهذه الآيات وحُسن فهمها.

لكنّ سنة التدافع هذه تقوم على وجود أقوام من المتقين يتحركون لا لمصلحتهم هم بل لإرضاء الله -تعالى- لإحقاق الحق الَّذِي خلق الله -تعالى- به السموات والأرض، فهم يسيرون على خطى الأنبياء لا يريدون أن يخلفوا الظالمين ولا أن يسكنوا مساكنهم ولا أن يرثوا مَا تركوا من جنات وعيون؛ بل يريدون أن تعلو كلمة الله على كل كلمة، وأن ينصر الله ويهزم الشيطان لتكون كلمة الله هِيَ العليا وكلمة الشيطان وأعوانه هِيَ السفلى، ولا يهمهم أن يكون التمكين بعد ذلك لهم أو لغيرهم؛ لأنّ التمكين والحالة هكذا إنّما هُوَ تمكين لكلمة الله ولتوحيد الله جلّ شأنه وما أمر به الإنسان من التزكية، وما استخلفه من أجله ألا وهو إعمار الأرض بالحق والعدل والهدى وإعلاء

كلمة الدين، دين الحق فلا تكون عمليّة الإصلاح عمليّة تغيير أشخاص بأشخاص، ولا طائفة بطائفة، بل تغيير على مستوى القيم والمفاهيم والأفكار والغايات والأهداف والمقاصد، ويكون المحور هُوَ إظهار دين الله الحق القائم على الهدى والتوحيد والتزكية والعمران والعدل والحريّة والمساواة بين البشر وإقامة شرع الله –تعالى- ورسالته، وهيمنة القرآن المجيد على شؤون الحياة وشجونها. ثمّ بعد ذلك يكون الحكم للأكفأ والأقدر على القيام بهذه الأمور وحُسن التمكين لها، فكأن المؤمن والحالة هذه يعد نفسه ويؤهلها تأهيلاً ربّانيًّا بحيث يكون من المتقين ومن أولئك الذين (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (الحج: 41).

إنّ هناك كثيرًا من الإرهاصات قد سبقت الأحداث فيما مضى من سنين وكثيرًا من المقدمات قد أثيرت فيما مضى، وهناك دراسات وتصريحات ووقائع تكاد تكون بمثابة الأحرف المتقاطعة التي تحتاج إلى جمع وتحليل وتفكير لتصبح كلمات وأمورًا مفهومة تساعد على فهم الواقع وتساعد المتدبّر على تنزيل أحكام القرآن عليه والميز بين المختلطات فيه وما أكثرها.

نقطة أخرى كانت واضحة جدًّا وهي تحديد «الفتنة» بأنَّها تحدث لدى الانحراف عن كتاب الله –تعالى- وتجنب الالتزام التام به، واستبداد الإنسان بشأنه. فقد يكون الإنسان على جانب من الإيمان كبير، ولكنه قد يلبس إيمانه بظلم أو يؤمن بالله ويشرك في الوقت نفسه، وتلك أمور كان الجهابذة من أهل الإيمان يبذلون جهودًا مضنية لميز هذه الأمور وعدم السقوط فيها، لذلك فإنَّ القرآن الكريم وحده المخرج من الفتن الهادي للتي هِيَ أقوم وهو حبل الله المتين الَّذِي ندعو أمّتنا إلى التشبث به والتمسك بأهدابه، وعدم الانسياق وراء اتخاذه شواهد ومعضدات لآراء ومواقف نبنيها بتصوراتنا القاصرة ورؤانا الكليلة.

ولعلّ لي ونحن في هذا الأمر أن أحذر تحذير شديدًا من هؤلاء الذين لا يجدون مناسبات كهذه إلا ويلقون في روع الأمّة من المخاوف وعوامل القلق وما لا قِبل لها باحتماله من إرباك وقلق، فذلك يصرخ بهيستريا شديدة بأنّ اليهود قادمون، وثان يصرخ بأنّ مخططات الكفر وراء كل شيء وأنّ كل مَا يحدث في بلداننا وتقوم به شعوبنا إنّما هُوَ من وحي تلك المخططات ونتائج تلك المؤمرات.

هؤلاء لا يقلّون خطرًا عن أعدى أعداء الأمّة في هذه الظروف وأصواتهم بقطع النظر عن نواياهم هِيَ مدمرة قد تقضي على مَا بقيى من طاقات الأمّة وتعمل على تكريس هزائمها النفسيّة وإشعارها بأن الأمريكان واليهود وأعداء الإسلام هم الذين يسيّرون الكون وليس الله -تبارك وتعالى- وهم

الَّذِين يملكون التحكم فيه وليس الله، والله لا يتدخل في شيء. وهذا دليل على ضعف في الوعي وهزال في الإيمان وعدم إدراك لسنن القرآن الاجتماعيّة والكونيّة ولسنن الله في كونه وهم يرون أنّ القدرة كل القدرة هِيَ في الكافر المستعمر، وأمّا الله تبارك وتعالى ففي أنظار هؤلاء قد سلّم الكون لأمريكا ولإسرائيل وتنازل عنه لهم وعن حاكميّته وسلطانه لمكرهم. فليتق الله هؤلاء ويتوقفوا عن هذا الهراء الذي يملؤون الأسماع به ليل ونهار.

لقد رحبت بالثورات الشعبيّة ورحبت بما حدث؛ لأنّ الإسلام أمرني أن أرفض الاستبداد بكل أشكاله ولأنّ القرآن علمني أنّ في الاستبداد حقًا لإنسانيّة الإنسان. فإذا تبينت المعالم وترجّح لدى قادة الأمّة وقادة الرأي فيها وأهل العلم والحكمة من أبنائها أنّه لا بدّ من الثورة ضد هذا المستبد أو ذاك فآنذاك تتخذ الثورة صفة الجهاد وتجري أحكام القرآن في الجهاد، أو التخلي عنه على الأفراد وفقًا لما وصلت الأمّة إليه من موقف تجاه ذلك المستبد. والله تعالى أعلم.

أرجو الله تعالى وأتمنى من الجميع أن يتدبّروا القرآن وأن يتأملوا في الوقائع والأحداث وما له علاقة بها من بداية وصيرورة ومآلات.

الحميد والخبيث في مفهوم الاستقرار السياسي

منذ فترة طويلة قد تمتد إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان، ثم ولده يزيد، والأمّة يُرفع في وجهها دائما سيف ذو حدين، حد يسمى "الاستقرار"، وآخر يسمى "الجماعة". أما الحدّ المختص بالاستقرار فخلفاء بني أميّة عدا عمر بن عبد العزيز -رضي الله تعالى عنه- كانوا دائما بحجاجهم وبزياد ابن أبيه وبابن أمه وغيرهم يرفعون فوق رقاب الأمّة سيف الاستقرار وثبات حال الأمّة على مَا يكونوا عليه وفقًا لصياغات الخليفة ومن حوله من حاشية يقل فيها ويضعف جانب المصارحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن جاء رجل يقول للخليفة: السلام عليكم أيها الأجير؛ ويذكّره بأنه أجير لدى الأمة، سارعت الحاشية المتملقة إلى ذلك الجريء المجترء على الخلافة لتقل له بل قل: أيها الأمير. ويصرّ ذلك الرجل الَّذِي أدركته نفحة من نفحات النبوة على تسمية ابن أبي سفيان بالأجير وتصرّ الحاشية على وجوب مناداته بالأمير حتى يتدخل الأمير الأجير بما عهد عنه من دهاء ليقول: دعوا فلانًا ليخاطبنا بما يراه فقد صدق.

تحول القدوة.. من القرآن للنموذج البيزنطي

لكن أولئك الخلفاء كانوا ينظرون إلى الدول من حولهم، البيزنطية وغيرها باعتبارها النموذج ولا ينظرون إلى مجتمع المدينة التوافقي الذي أسسه الرسول -صلى الله عليه وآله وسلّم- على أنه الأسوة والمثال. ويرون أن أخذهم بالمظاهر التي تأخذ بها تلك الدول أمر تستكمل به شكليّات الدولة ومواصفاتها المدنيّة فيصوّغون لأنفسهم اتخاذ القصور والحجّاب والحرّاس والتصرّف المطلق بالمال وما إلى ذلك. وتحت عصا الاستقرار والمحافظة على وحدة الجماعة جرت عمليّات مصادرة وقمع الأصوات الحرة التي لم تعد تجد لها متنفسًا إلا في قصور بعض الخلفاء؛ بل تحت ذلك السيف قطعت رقبة الحسين، وقمعت ثورات الأشعث والقراء والنفس الذكية وما إليها. وعلى أن يكون الأمر بين ذلك العالم الناصح وبين ذلك الأمير أو الخليفة نفسه، ثم الخليفة والأمير بالخيار إن شاء قبل، وإن شاء رفض وزجر ذلك الناصح، وإن شاء رشاه وملأ فمه ذهبًا وسخر منه وجفاه، حتى نأى علماء الأمّة المخلصون بأنفسهم عن غشيان بلاطات أولئك الخلفاء وتركوها وتركوهم نهبًا للمتملقين والدجالين والمداحين والندماء والمضحكين ومن إليهم.

وفجأة وجدت الأمّة نفسها دون نظام سياسي، ودون فقه سياسي يبث الوعي ويعلم كيف تكون التنشئة السياسيّة ويساعد على حماية وحدة الأمّة وحسن تدبّر شئونها، وكم من عالم عاملا ورع تقي تُرد بل اتهم في دينه وربما ألقي في السجن أو شرد به أو حمل على الهجرة إلى أقاصي الأرض، لمنعه من قول كلمة حق أمام أولئك الذين رفعوا في وجه الجميع سيف الفتنة وعدم الاستقرار وتفريق الجماعة وما إلى ذلك، بل فبركوا أحاديث موضوعة لا أصل لها، وقووا مأثورات ضعيفة لا سند لها، وصححوا وحسّنوا بسرٍ ناقص كثيرًا من تلك الأخبار؛ ليجعلوا منها سندا لمقولتهم تلك، وسياساتهم المستبدة. وبذا تم التأصيل للاستبداد والحكم المطلق وصُدرت الشورى وحرية التعبير التي أمر الله تعالى بأن تتاح، وجعلها من صفات عباده المؤمنين "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (النحل:75-76) فالأبكم المحروم من حريّة التعبير لا يتصف بالعبوديّة الصادقة لله تعالى.

قمع ثقافة الحرية بثقافة الاستقرار

إن حجب هذه الحريّة عن الإنسان يرده إلى العبوديّة إلى إنسان مثله وهو الَّذِي أعطى لنفسه حق حجب الحريّة عن الناس أو منحهم إياها، ومن المؤسف أنّ المسلمين إلى يومنا هذا تهيمن على عقول كثير منهم تلك الثقافة المريضة؛ ثقافة الاستقرار أيًّا كان نوعه حتى وإن كان استقرار الأموات. والجماعة أيًّا كان نوعها حتى ولو كانت مثل تجمعات الغثاء عندما يجرفه السيل، وما أراد الله سبحانه ذلك بما أمر به من الالتزام بالجماعة، فالجماعة في نظر القرآن هِيَ تلك الأمّة التي أعدت على عين الله -جلّ شأنه- وصنعت بعنايتة وبنيت لبناتها بوحيه فصارت خير أمّة أخرجت للناس وخير جماعة عرفتها البشريّة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وهذه الجماعة لا استقرار لها إلا والحق منتصر وكلمة الله هِيَ العليا وكلمة الكفر هِيَ السفلى، ولا يمكن لأمّة كهذه أن تعرف الاستقرار والناس يفتك بها الظلم والاستبداد والديكتاتوريّة والجهل والمرض والفقر وسوء التوزيع واستباحة المال العام وما إلى ذلك.

نفس المنطق السابق ينطبق على مفهوم الاستقرار؛ فالاستقرار من القرار ألا وهو الثبات (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَار) (إبراهيم:26) أي: مَا لها من ثبات.

والاستقرار لا يمكن أن يتحقق دون الحق والعدل والتزكية والعمران؛ ولذلك فإنّ ملاحظة هذا الأمر قد تخرج المسلمين من تلك الثقافة الهجين الغريبة عن روح الوحي وأهداف الرسالة والدين القيم، وقيم الدين، نريد استقرار؛ نعم. ولكنه استقرار الأحرار الأخيار الذين ينتمون إلى خير أمّة، استقرار الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، يقول تعالى: "الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَر" (الحج:41).

بين الحفاظ على الجماعة والاستبداد

إن القاتل وهو يَقتل يتمنى أن لا يقاومه القتيل، وأن يستسلم القتيل له، لكي يقتله وهو مستريح دون مقاومة ودون أن يعكر صفوه باهتزاز جسد القتيل أو تناثر دمه على ثياب القاتل، فذلك مزعج للقاتل مخلٌّ باستقراره ويتمنى لو ثبت هذا المقتول واستقر كي يسهل عليه مهمته.

والالتزام بالجماعة وعدم التفرق يصبح كذلك من أهداف ذلك الَّذِي تغلّب على الجماعة واستبد بها وتصرف بها كيف يشاء، وزعم أنّ المحافظة على الجماعة هُوَ ألا يُقاوم فسقه وفجورة مقاوم، ولا ينكر عليه منكر، هذه ثقافة بعيدة عن الإسلام والمسلمين أصّل لها أئمة الجور من طاغية بني أميّة وبني العباس ومن جاء بعدهم من الذين أخرجوا رسالة الإسلام من طريقها الَّذِي رسمه الله ونفذه رسوله، وهو طريق الدعوة إلى طريق الفتح وإقامة الدول والسلطنات والحكومات ومشابهة دول الجور فيما قامت عليه ناسين أو متناسين أنّ هذه الأمّة هِيَ أمّة دعوة ورسالة، لا أمّة فتح وقهر.

كم نتمنى على تلك الأصوات التي ترتفع كلّما قام مصلح يدعو إلى الإصلاح، فأزعج حاكم من الحكام بدعوة تلك الحاكم إلى الإصلاح، فيسارع المتملقون إلى رمي الداعي بكل مَا في قواميسيهم من بلايا ورفع سيف الجماعة والفرقة وتهديد الاستقرار وضمان الأمن.

إنّ الموت استقرار وثبات ولا شك ولكنه موت، أمّا الحياة فهي بطبيعتها متحركة دائمة التحرك سائرة إلى الأمام، والإنسان كادح إلى ربه فملاقيه، وسائر إلى الأمام للقاء ربه، فهل بعض هؤلاء يربعون على أنفسهم ويتوقفون عن إطلاق هذين السهمين في وجوه المصلحين والدعاة إلى الخير ويكونوا إلى جانب الأمّة وقضاياها لا إلى جانب السلطان عدل أو فجر؟!



الفصل الثاني: بعض الحالات الثورية العربية وما أدى إليها

وداعا لك يا جنوب السودان

إنّ السودان بلد أحببته قبل أن أزوره بسنين. فقد كنت طالبًا في القاهرة منذ سنة 1953م، ولم تكن الملكيّة في مصر أُلغيت بعد، فقد كان ابن فاروق _أحمد فؤاد_ ما زال يحمل لقب ملك مصر والسودان كما كان أبوه وذلك بعد إقالة أبيه وترحيله. وتابعت –وأنا طالب عربيّ- قادم من بلد ينظر عربه إلى الوَحدة بين أي بلدين عربيين أو مسلمين على أنّها هدف يستحق أن يضحى من أجله بالغالي والنفيس. فقيمة الوحدة في قمة قيم المسلم _عربيًا كان أو غير عربي_ فوحدة الأمّة مشتقة من التوحيد، والتوحيد هو المقصد القرآني الأول للنبوات كلها وللكتب السماويّة جميعها، فإيجاد الأمّة الواحدة أمر له قدسيته في قلب أي مؤمن وضمير أي موحد. وقد استقر في ذهني ارتباط مصر والسودان منذ ذلك التاريخ، وكان يعجبني كثيرًا من يقول: "شمال الوادي وجنوب الوادي"، فمصر والسودان يجمعهما وادي النيل، مصر في شماله والسودان في جنوبه.

خطوات الانفصال

عندما كان الإنجليز يحتلون الوادي بشماله وجنوبه، كانوا يتخذون من مصر شرطة لهم في السودان، أو جندًا، أو موظفين، يستعينون بهم وهم يمارسون استعمارهم للسودان واستضعافهم لأهله، ويجعلون هؤلاء الجند المصريين والشرطة في الواجهة. بحيث ينظر السوداني البسيط لأخيه المصري على أنّه هو من يحتله أو يحتل بلاده، وهو من يمارس اضطهاده والسيطرة عليه، والتهوين من شأنه. وعلى الرغم من سياسة المحتل الإنجليزي الخبيثة، ظلّ المصريون والسودانيّون مصرين على الوحدة، وحدة وادي النيل.

وظلّ هذا الإصرار الوحدوي مستمرًّا عقب ثورة يوليو 1952م طيلة فترة رئاسة محمد نجيب -الذي كان يُحبه السودانيون حبًا شديدًا على الاستمرار في وحدة مصر والسودان-. ولكن حين أُقيل نجيب بالطريقة التي أُقيل بها، وتفرد الرئيس ناصر بالسلطة كانت "وَحدة الوادي" أي وَحدة مصر والسودان الضحيّة الأولى. ويبدو أنّ العسكريين بطبيعتهم حين يحكمون ويدخلون في المجال السياسي يفضلون أن يُحكموا السيطرة التامّة على كيانٍ محدّد، بحيث لا يخرج عن قبضتهم شيء فيه أو منه؛ لأنّ العقليّة العسكريّة لدى "الانقلابيين العرب" لا تعرف إلا مبدأ القيادة والجنديّة، فمن

تبوّأ موقع القيادة فلا يرضى من الآخرين إلا أن يكونوا جنودًا فحسب. فلا مجال للشورى إلا إذا كانت تأييدًا ومباركة لما يقوله أو يراه القائد، فالجندي ليس له إلا أن ينفّذ، وإذا كان لديه ما يقوله، فليقله إن شاء بعد التنفيذ. فأُوكل أمر متابعة وحدة وادي النيل إلى "الصاغ صلاح سالم"، وظنّ الصاغ كما ظنّ البكباشي ... والفريق ... أنَّ السودان عبء، وأنَّ ثورة يولية إذا منه فإنّ ذلك قد يجعلها أقدر على إحكام سيطرتها على الإقليم المصري وحده، والتخلص من عبء الامتداد باتجاه عمقٍ استراتيجيّ خطير.

وانفصلت السودان عن مصر. ووقع القدر المقدور، واستقلت السودان ومرّ الأمر بيسرٍ على الشعبين المصري والسوداني، ومن ورائهما سائر العرب والمسلمين وكأنّ شيئـــًا لم يحدث، ولم ينتبه أحد إلى أنّ ذلك سيكون له ما بعده، وسوف يشكّل خطورة كبيرة على مستقبل مصر وعلى مستقبل السودان معًا.

ولما تحوّل عبد الناصر إلى وَحْدَويٍّ يدعو إلى الوَحْدة العربيّة، وينادي بالـ"وحدة والحريَّة والاشتراكيَّة" وسار في طريق الوحدة مع سورية، نسيَ أو تناسى تفريطه في وحدة طبيعيّة كانت لها كل مقومات الوحدة مع بلد متصل بمصر ملتصق بها، وليس هناك أي فواصل طبيعية بينه وبينها، يجمع بينه وبين مصر الماء والتراب والدين والثقافة والتاريخ، وسائر الروابط، وهي أضعاف الروابط التي تجمع بين مصر وسوريّة. وأنشأ وحدته مع سوريّة، ولم يُثر أحد في تلك المرحلة سؤالًا لماذا فرّط مَن فرّط في وحدة مصر والسودان ثم يحُث على وحدة أخرى مع قطرٍ مختلف قبل إعادة بناء الروابط بين شمال الوادي وجنوبه.

ثورة الإنقاذ واستمرار خيار الانفصال

وحين قامت "ثورة الإنقاذ" في السودان كان هناك أمل أن يكون من بين أهداف هذه الثورة إعادة بناء وحدة وادي النيل على أسس إسلاميّة سليمة، وخاصّة أنّ مرشد ثورة الإنقاذ أ.د:حسن الترابي السياسي الإسلاميّ المعروف والإخواني القديم، ذا الثقافة الواسعة الغربيّة والإسلاميّة، يدرك أنّ مصير مصر والسودان يتوقف على وحدة الوادي ترابًا ومياهًا وإنسانًا وأهدافًا وسياسةً. وكان المتوقع من ثورة أعلنت انتسابها إلى الاتجاه الإسلامي وتبنيها للإسلام أن تبادر إلى العمل على إعادة توحيد مصر والسودان، والعمل على إقناع ليبيا بالانضمام إلى تلك الوحدة، فوحدة كهذه

سوف تكون لا في مصلحة البلدان الثلاث وشعوبها فقط، بل في مصلحة العرب كلهم والمسلمين كافّة، وكذلك في مصلحة أفريقيا كلها.

ثورة الإنقاذ واستمرار خيار الانفصال

لكنّ ثورة الإنقاذ اتخذت لنفسها مسارًا آخر، وظنت أنّها -بدلًا من ذلك- تستطيع أن تبني نموذجًا لدولة إسلاميّة حديثة تقدمه للآخرين ليقتدوا بها. ومن المؤسف أن نراها بعد أن دخلت العقد الثالث من سنين حكمها تسلّم بتقسيم البلد إلى شمال وجنوب، وكان السودان كلّه جنوبًا لوادي النيل ومصر شماله.

وبدلًا من الوحدة رأينا تمزقًا، فهذا الجنوب يعلن الرئيس البشير ترحيبه بانفصاله ثم لا يجد من ينكر عليه، أو يقول له: إنّ التسليم بالانفصال مثل الدعوة إليه أو العمل على تحقيقه، وهو في نظر الإسلام خيانة لوحدة الأمّة وجريمة لا تغتفر بقطع النظر عن السياسات والأسباب. ولا أدري كيف سوغت الحركة الإسلاميّة في السودان لنفسها وبأي دليلٍ شرعي تقبلت هذه النتائج حتى أوصلتها إلى هذه النهاية. إنّ أي ثمن يدفعه السودانيون للمحافظة على وحدتهم هو أرخص بكثير من الثمن الذي سيدفعه لهذا الانفصال النكد.

فهذا الانفصال لن تقتصر أضراره على شمال السودان ولا على مصر ولا على العرب ولا على المسلمين فقط؛ بل سيتعدى ضرره إلى أفريقيا كلها بكل ما تمثل وإلى مستقبل الإسلام فيها. ولو أنّ حكومة الإنقاذ تنازلت عن السلطة أو خسرتها أو حدث لها أي شيء فإنّه أرخص بكثير من ذلك الانفصال النكد. لكنّ شعار آخر خليفة عباسي يبدو لا يزال مسيطرًا على العقل السياسي الإسلامي وغيره، فخليفة بني العباس اللاعب بالطيور والمنشغل فيها كان يقول كلما تقدم التتار خطوة باتجاه بغداد: "أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها علي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا يهجمون علي وأنا بها، وهي بيتي ودار مقامي"، ويبدو أنّ زعماء دولة الإنقاذ شعارهم اليوم: "الخرطوم تكفيني ولا يستكثرونها عليّ إن أنا تركت لهم الأطراف".

الحكام المستبدون وتطبيق الشريعة

وسلّمت حكومة الإنقاذ بانفصال الجنوب السوداني بتلك البساطة. و حاول الرئيس البشير أن يعوض الشعب المسكين في السودان وفي مصر وفي العالم العربي والإسلامي عن جنوب السودان بما سماه "تطبيق الشريعة". وكأنّ تطبيق الشريعة رشوة تقدم للتكفير عن التسليم بجريمة الانفصال، ولعل فيها أيضًا تخديرًا لعوام هذه الأمّة وبسطائها، وإذا به يُعلن أنّه إذا انفصل الجنوب "فمع السلامة". وذلك سيتيح لنا فرصة تطبيق الشريعة "وسنطبـگ الشريعة كاملة"، وحين طبق نميري الشريعة ولحق به صدام بعد ذلك كنت أعتبر أنّ إعلان الحاكم عن تطبيق الشريعة هو دليل على إفلاسه السياسي، فهو بعد أن يفلس سياسيًا ولا يبقى لديه ما يفعله، وتفشل سياساته، ويقود بلاده نحو الهلكة فإنّه يعلن عن تطبيق الشريعة، ويقصد هؤلاء بالشريعة الإسلاميّة حين يعلنون عن تطبيقها العقوبات أو النظام العقابي في الفقه الإسلاميّ مثل قطع يد السارق، ورجم الزاني وما إلى ذلك.

وأُقسم غير حانث أنّ كل هؤلاء الذين دعوا إلى تطبيق الشريعة من الحكّام في الباكستان والسودان والعراق ونيجيريا وغيرها ما فعلوها إلا ليُداروا فسادهم ويغطوا على انحرافاتهم، ويُحكموا قبضتهم على الناس باسم الشريعة وباسم الدين. فعلها نميري وفعلها صدام وفعلها آخرون، وها هو السيد البشير بعد أن حلف بالطلاق والعتاق وجميع الإيمان المغلظة أنّه لن يتنازل عن أي حكمٍ من أحكام الشريعة تنازل عنها لإرضاء الجنوبيين وقام بالتجميد، وها هو يعلن التمسك بها مرة أخرى. ويذكرنا بما قال أبو الطيب المتنبي عن جهلنا حين قال:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمّةً ضحكت من جهلها الأمم

كنا نتمنى على البشير والإنقاذيين ومن حولهم أن يدرسوا تاريخ بلادهم جيدًا وتاريخ المنطقة من عصر الفراعنة حتى يومنا هذا، فإنّ السودان دائمًا كانت عمقًا استراتيجيًا لمصر، ومصر عمق استراتيجي للسودان، ومن فرط بوحدة الوادي فإنّه يهون عليه تسليم البلاد:

ومن أخذ البلاد بغير حربٍ يهون عليه تسليم البلاد

ويبدو أنَّ كرسيّ الحكم في بلداننا عديمة الشورى والديموقراطية والبعيدة عن كل ما يتعلّق بتداول السلطة إذا ما جلس عليه جالس فإنّه يصبح عنده أغلى من أي شيء: من الدين، ومن الوطن، ومن الدنيا، ومن الآخرة. وليت البشير ومَن حوله أدركوا أنّ أهم شيءٍ في الشريعة "وَحدة الأُمَّة" وأنَّ أيَّ نيلٍ من هذه الوَحدة يعتبر نيلاً من العقيدة ومن التوحيد، وأنَّ الأرض بعد أن تصبح جزءًا من دار الإسلام لا ينبغي لأحدٍ أن يفرّط بشبرٍ منها دون رضا وتشاور مع المسلمين كافة، فالأمر لا يتعلق بإقليم منفرد بل بأمّة كاملة. ولن يغني عن الشعب الذي يفرّطون بوحدته ويحوّلونه إلى مجموعة من المزق، ويحوّلون أرضه إلى مقاطعات ممزقة منفصلة، رجم الزاني أو قطع يد السارق لا عند الله ولا عند الناس.

ونحن نرى ونشهد في كل لحظة جريمة التسليم وكيف تتم بسلاسة، وبتدخل أجنبي مباشر لم يستطع أن يستفز من طاقات الأمّة المهدَرة ولو مجموعة متظاهرين في الخرطوم أو في جوبا أو في غيرهما من حواضر العالم الإسلامي ليقول: لا للانفصال. وإذا كنت أقولها اليوم فوالله ما قلتها إلا لوجه الله، ورغبة فيما عنده، ولئلا يجعل الله منا أمّة من القردة والخنازير ساكتة عن الحق خرساء عمياء عنه.

مع حسن الترابي في بداية التسعينيات

وأود أن أقول: إنّ هذه النتيجة _أي نتيجة الانفصال_ لم تكن بعيدة عن ذهني منذ التسعينيات. وأذكر لقاء جمعني "بمرشد الثورة السودانيّة" السيد حسن الترابي في منزل نائبه السيد إبراهيم السنوسي الذي زرته معزيًا بولده الشهيد، الذي استشهد في جنوب السودان. وكان قادة ثورة الإنقاذ جميعًا في ذلك العزاء يتقدمهم البشير، قلت لأخي الترابي وقد عهدته صاحب فكر: يا أخ حسن إنّ القتال لن يعالج مشكلة الجنوب، وأنّ هؤلاء الشهداء الذين يُقتلون في الجنوب من أبناء الشمال، وتُضفون عليهم صفات شهداء الصحابة، ويروج خطباؤكم على المنابر لمنامات مفتعلة: "فهذا غِسّيل الملائكة" "وذاك رؤي في المنام فسئل عن الصحة والأحوال فقال كذا وكذا وكذا" كما فعل عبد الله عزّام -يرحمه الله- مع شهداء الأفغان في كتابه الشهير "آيات الرحمن في جهاد الأفغان" وكان فيما ادّعاه -يرحمه الله- أنّ الأذان كان يُسمَع من بعض القبور متجاهلاً أنَّ الشهيد قد خرج من دار التكليف إلى دار التشريف. وأضفت: يا أخي يا دكتور حسن إنّ هذه الأمور أخشى أن

تنقلب عليكم في المستقبل فإنّكم لن تستطيعوا استئصال ثورة الجنوب، كما فشل العراقيّون في القضاء على ثورات الأكراد في شمال العراق. وبقيت الثورة الكرديّة وسيلة لتأديب الحكومات العراقيّة المتعاقبة، فكلما غضب الغرب من حكومة عراقيّة جلدها بسوط الحركة الكرديّة حتى تستجيب لمطالبه، فتهدأ الحركة وتوقّع هدنة حتى خلاف آخر بين الغرب والحكومة العراقيّة. وهكذا قضية الجنوب بالنسبة لكم، فابذل كل جهدك لمعالجة الأمور سلميّـًا، وإلا فإنّ هذا التحريض على الجهاد سوف يجعل الناس بعد غد حينما توقفون القتال وتذهبون إلى طاولة المفاوضات يحقدون عليك وعلى الحركة الإسلاميّة، ويعتبرونكم قد غرّرتم بهم وقتلتم أبنائهم ثم جلستم تتفاوضون مع قاتليهم.

ولا أنسى يومًا حاول صديق لي أن يجمعني مع العميد الركن عبد العزيز العقيلي -رحمه الله-، وحينما وافقت وذهبت مع ذلك الصديق لزيارة العقيلي ومددت يدي لمصافحته ابتسم العقيلي ابتسامة خاصّة وقال: "أريد أن أتأكد أنّ آثار مصافحتك للبارزاني قد زالت من يدك؛ لأسلم عليك، فقد بلغني أنّك التقيت بإدريس البارزاني ورحبت به، ويداه وأيدي أبيه وأهله ملوثة بدماء إخوانك الضباط والعسكريين من الجيش العراقي، فقلت له: ربما تجدني أحمل نفس المشاعر لأنّ يديك أيضًا قد صافحت أيادي كثيرة ملوثة بدماء أبرياء الأكراد من نساء وأطفال ومدنيين لا علاقة لهم بالقتال، وجلسنا ولم نستطع التفاهم. ذكرت هذا الموقف للترابي، ولكنّ الترابي كان في وادي آخر، فهو مرشد الثورة وكان ينظر إلى الخرطوم وكأنّها المدينة المنورة في عهد رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم- وربما ذهب به خياله إلى نواحي أخرى، ليجد الدولة الإسلاميّة وعاصمتها الخرطوم قد امتدت لتشمل آسيا وأفريقيا وجنوب شرق آسيا وما شاء الله أن تشمل.

قلت في نفسي ما دمت قد فجرت الأمور مع الشيخ فلأذهب بها إلى مداها وليغضب الشيخ، فأنا لن أعود إلى السودان بعد ذلك حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون. فقلت له: بلغني يا أبا صدّيق -وهي كنيته التي أحب مناداته بها- أنّك تعتزم استيراد مليون صيني؛ ليزرعوا لك الجزيرة في السودان، فهل هذا الخبر صحيح؟ قال: نعم، قلت: وماذا عن جيرانك وإخوانك المصريين، أليس الأولى أن تأتي بمليون مصري؛ ليزرعوا ويمتلكوا أرضًا هي أرضهم أيضًا كما هي أرضكم، بدلًا من ذهابك إلى الصين، مع اختلاف الثقافة والدين والجذور واللغة وكل شيء، وهل درست الآثار الثقافيّة والدينيّة؟ قال: درسنا كل شيء وأريد شعبًا يستطيع أن يتحدى السودانيين، ويخرجهم من دوائر الكسل التي يعيشون فيها، وما وجدت غير الصينيين في ذهني

وسنبدأ بالخطوات العمليّة، وربما نأتي بعشرة آلاف أولًا للتجربة ثم نواصل. قلت له يا أبا صدّيق: من الواضح أنّ لديك عقدة من المصريين قد تعود إلى عهد الاحتلال الإنجليزي للوادي جنوبًا وشمالًا، فأنتم تنظرون للمصريين هذه النظرة وبعضهم ينظرون إليكم أيضًا نظرة قد لا تقل عن هذه، فأنت في نظرهم بعمامتك هذه "عم عثمان النوبي" الذي لا يصلح إلا أن يكون بواب عمارة أو سايس جراچ. وقد يكون من المفيد لكم ولهم أن يكون هناك مصحات نفسيّة كبيرة تتسع لشعوب البلدين، وذلك بأن يوضع كلٌ من الشعبين في مصح خاص؛ لعمل نوع من إعادة التأهيل والمراجعة النفسيّة. قلتها متضاحكًا ثم عرفت ألّا فائدة من مواصلة الكلام فسكت. لكن الدكتور الترابي لم يسكت بل دعا بعض حوارييه وقال لهم: إنّ الدكتور طه يعيش في أمريكا، وقد بعد العهد بينه وبين المنطقة فخذوه غدًا إلى الجبهة؛ ليرى الجهاد والمجاهدين بنفسه، وأعيدوه إلى الخرطوم بعد أسبوع، فإنّ ذلك كفيل بأن يغيّر نظرته وكثيرًا من آرائه، فقلت له: لقد رأيت في شمال العراق ما يكفي ولا أريد أن أرى في جنوب السودان مآسي مماثلة، وأسافر غدًا أو بعد غد عائدًا إلى أمريكا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.كانوا يسمون ليالي العزاء في الشهداء بليالي أعراس الشهداء، فلا يقولون: إنّنا ذاهبون لنعزي بفلان بل لنشهد عرس الشهيد فلان.

كلمة أخيرة

إنّ أي تفكك أو انفصال أو تمزيق لأي بلد موحد ينبغي أن يعتبر جريمة وخطًا أحمر لا ينبغي الاقتراب منه، إذ يكفينا التمزيق الذي حدث على يدي "سايكس بيكو". اللهمّ إني أبرأ إليك من جرائم التمزيق في العراق، والتفريق القومي والطائفي، وأبرأ إليك من جريمة الانفصال في السودان، ومحاولات الانفصال في اليمن وفي غيرها، وإنّني لأرجو كل موحد لله مؤمن برسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم- وكتاب الله القائل: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (آل عمران:103) أن ينضمّ إليّ في استنكار التمزيق العرقي والطائفي، والتفريق بين عباد الله.

إنّ الاستبداد لا يأتي بخير أيًا كان مصدره (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) (العلق:6-7) فما ضر عمر البشير والإنقاذيين لو أقاموا الشورى وأنصفوا الجنوب "جنوب السودان"

وشماله، وأقاموا العدل وضربوا للبشريّة المثل في عدل الإسلام وحرصه على الحريات وحساسيته للظلم، وذكّروا الناس بعمر –رضي الله عنه- الذي كان يقول: "لو أنّ جملًا على شط الفرات زلق فهلك ضياعًا، لخشيت أن يسأل عنه عمر لما لم يعبّد له الطريق".

ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا وهيئ لهذه الأمّة أمر رُشد يعز به أهل طاعتك ويذل به أهل معصيتك، وتعلو فيه كلمتك، ويُؤمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر إنّك على ذلك قدير.

بداية الطغاة ونهايتها: تحية لتونس الخضراء وأهلها

[إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ] (القصص:4-6).

يقال: «استبد بالأمر يستبد به استبدادًا» إذا تفرد به دون غيره ويقال: «استبد بأمر فلان» إذا غلبه على أمره فلم يقدر المغلوب على ضبط من استبد به أو إيقافه عند حده. و«التبديد» هو التفريق فكأنَّ المستبد يفرّق أولا بينه وبين الآخرين فيجعل من نفسه أعلى منهم ويفرَّقهم ليتمكّن من البقاء في موقع علوه واستعلائه وليظلوا في مواقع الخضوع له مفرَّقين مبدَّدين.

طبائع الاستبداد

وملاحظة من قص الله –تبارك وتعالى- علينا أخبارهم من المستبدين توضح لنا «طبائع الاستبداد» ولقد ضرب الله -تبارك وتعالى- لنا في القرآن أمثلة عديدة منها مَثَل فرعون الذي أوتي القوة والسلطان، فعَلا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم [إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ] (القصص:4) وضرب لنا مثل العلو والاستعلاء والطغيان بالمال والعلم بقارون الذي كان من قوم موسى فاستبد على بني إسرائيل وبغى عليهم بما أوتيه من مال وعلم جعلاه يتوهم أنه قد انفصل عن البشر وصار فريدًا لا يجمع بينه وبينهم جامع فقال: [قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ] (القصص:78) ونسي الله في حين قال فرعون [وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي] (القصص:38) كلمة شديدة الفجور تكاد السموات يتفطرن منها وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا، ومع ذلك تلقاها الملأ بالإقرار والتسليم ولم يصدر عن أيّ منهم أيّ اعتراض. ثم تظاهر بالجد وقال: [وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ

إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ] (غافر:36-37) ليوهم أولئك الأغبياء المستضعفين بأنّه إنسان موضوعيّ ومتألّه متواضع يبحث عن الحقيقة بوسائلها ولا يقول إلا عن علم وبحث.

فحين استبد فرعون بقومه استعلى عليهم وجعل أعزة القوم أذلتهم وجعلهم شيعًا وفرقًا لكنّهم جميعًا يدورون حوله وقد بلغ به استبداده واستعلاؤه أن رفض مبدأ وجود إله بكل قوة، وبكل ما أوتي من قوة، وبكل ما أوتي من طاقة فأعلن في قومه [مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي] (القصص:38) وحين تجرّأ منهم من تجرّأ وقال له: بأن هناك آلهة أو أرباب آخرين قال في منتهى الاستهتار: [أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى] (النازعات:24) وذلك يعني في زعمه ودعواه أنّ الأصل أنّه لا رب للناس غيره. ولو فرض أنّ لهم ربًا سواه فهو يدعي أنّه ربهم الأعلى فكل أولئك الذين لو فرض وجودهم فهم دونه.

وحين نراجع نموذجًا آخر من نماذج المستبدين نجد ذلك الذي حاج إبراهيم في ربه مغرورا مخدوعًا بما أوتيه من ملك قال تعالى: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] (البقرة:258) إنّ الاستبداد يجعل المستبد مليئًا بالغرور والإحساس بالفوقيَّة والاستعلاء والشعور بالقدرة والاستنكاف من احترام آراء الآخرين أو نصائحهم، فيستقل برأيه ويستبد بأمته، ويستعلي عليها، ويورثها الشقاء، ويلغي حقوقها، وينال من قيمها. والمستبد حين يعايش الاستبداد فترة من الزمن يتحوّل إلى إنسان مصادر لكل حقوق الآخرين لا يفكر بعاقبة، ولا يخشى تبعة، وقد شعر في قرارة نفسه بأنَّه فوق البشر يقول أحدهم:

وإنّي لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظم

ويقول آخر:

إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ تخر له الجبابر ساجدينا

ونشرب إن وردنا الماء رنقا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

هذا الإحساس بالنسبة للمستبد ولمن حوله يعد إحساسًا عاديًّا، يستعلي به ويستكبر عن النصيحة؛ حتى بلغ بأحد المستبدين أن أعلن في الناس قولة فاجرة: «من قال لي: اتق الله قطعت عنقه» ويقول

مستبد آخر في خطابه العام: «إنّي لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها وإنّي لصاحبها» ويقول مستبد آخر في نهاية خطبته لعيد الأضحى: «قوموا إلى أضاحيكم أمّا أنا فإنّي مضحٍّ بالجعد بن درهم» ويقول آخر من منافقي المستبدين للمستبد الحاكم بأمر الله الفاطمي:

ما شِئْتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

ويقول شاعر آخر لمستبد معاصر سقط قبل سنوات قلائل:

تبارك وجهك القدسيّ فينا كوجه الله ينضح بالجلال

هنا يصبح المستبد متألّهًا يمكن أن يدعي الألوهيّة ويمكن أن يدّعي علم الغيب، ويمكن أن يدّعي بأنّه من يرزق شعبه. وقد تسوّل له نفسه أنّ حياة شعبه لا قيمة لها بدونه. والمستبد لا يرضيه أن تخرج أيّة سلطة من السلطات عن قبضته فهو الحاكم الفرد وهو القائد الأعلى وهو المسئول عن المؤسسات –كافّة- ينشؤها ويلغيها. ولقد حكى لي وزير أحد المستبدين أنّ رئيسه المستبد سأله ذات يوم: في لفحة تدُّين أصابته أتجب علي الزكاة فقال له: «نعم يا سيادة الرئيس إذا بلغ مالك النصاب، فهز الرئيس رأسه وقال: ألا يكفي أو يغني عن الزكاة أنّي أطعم جميع الملايين من أبناء الشعب؟» فهذا الدكتاتور المستبد، والذي كان معدمًا قبل التسلّط والاستبداد بالسلطة لا يكاد يملك قوت يومه، صار ينظر إلى شعبه أنّهم مجموعة من الأفواه الآكلة التي يطعمها هو دون أي إحساس أو شعور بأنّه إنّما يسرق ثروات هؤلاء ويستبد بهم ويلقي إليهم الفتات.

والاستبداد استعباد؛ يقول سيدنا موسى لفرعون وهو يعدد ما اعتبره مكارم له عليه في قوله: [قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ] (الشعراء:18) أجابه موسى بقوله: [وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ] (الشعراء:22) أي: استعبدت قومي وتبنَّيتني.

والمستبد إنسان ضعيف يحمل مجموعة من الأمراض النفسية تكمن وراء طغيانه واستبداده وتكون تصرفاته الطاغية المستبدة ستارا لأمراضه ومكونات ضعفه التي يحاول تغطيتها بذلك الاستبداد وما فيه من تظاهر بالقدرة المطلقة والاستعلاء التام والانفصال عن طبقة المستضعفين الذين يحكمهم. ومن الصعب على هؤلاء حتى حين تفاجؤهم أعراض بشريّة كالمرض ونحوه أن يشعروا بأنّهم بشر ممن خلق الله يعتريهم ما يعتري البشر من ضعف فلا يسلمون بحقيقة بشريّتهم ولا يرون أنّ أمتهم يمكن أن تعيش بدونهم.

إن المستبد تخدعه قوته وسطوته وحاشيته وتغشّي على بصره وقلبه فلا يستطيع أن يرى أنَّه مجرد بشر ممن خلق الله أوله نطفة مذرة وآخرة جيفة قذرة تنتهي إلى حفرة تضم رفاته إلى أن يأذن الله ببعثه. لقد خدع الاستبداد الفراعنة وأوجد في نفوسهم رفضا للدفن في باطن الأرض فجعلوا قبورهم عليها وفوقها لا في باطنها فهل أغنى ذلك عنهم شيئا؟! كما ابتكروا التحنيط وبنوا الأهرام واخترعوا مراكب الشمس فما أغنى ذلك عنهم شيئا حين أخذ الله بعضهم وجنودهم ونبذهم في اليم [وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ] (القصص:41-42)، وتلك هي عاقبة الاستبداد فهل أغنى عن فرعون قوله: [مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي] (القصص:38) أو قوله: [فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى]
(النازعات:24) لم تغن هذه الدعاوى عنهم شيئا ولم يستطيعوا أن يغنوا عن جماهيرهم الغافلة المذعنة المنقادة الخانعة المستسلمة التي تحمل جزءًا كبيرًا من مسئولية انخداع الطغاة واستبدادهم.
فما يخدع الطغاة شيء مثل ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها ومديحها وهتافها وثناؤها.

أسطورة الفراغ

ولقد ابتكر سدنة الاستبداد المعاصرون خاصة مصطلحات تعزز نزعة الاستبداد وتدعمها من هذه المصطلحات «الفراغ السياسي» «خوف الفوضى» «اختفى زعيم اللحظة» «التاريخيّة» أو «زعيم الضرورة» وغير ذلك، ولقد عشت في العراق زمنا كان الناس يتصورون فيه أنه بمجرد موت نوري السعيد أو سقوطه فإن العراق سوف يعيش في فراغ يؤدي به إلى التحطم والتفكك.
ومات نوري السعيد وجاء مستبدون آخرون وملؤوا الفراغ بشكل استبدادي، وجاوزوا استبداد السعيد .وقيل عن عبد الكريم قاسم: لو حدث له شيء فسينتهي العراق لضخامة الفراغ الذي سيتركه. وقتل عبد الكريم وربط جسده في قضيب من قضبان السكة الحديد، وألقي بليل في نهر دجلة طعاما لسمكها ولم يحدث فراغ، وجاء مستبدون آخرون وملؤوا الفراغ بشكل أو بآخر!!
وهكذا دوليك.
وأسطورة الفراغ الذي يتركه المستبد كانت حاضرة في ذهن فرعون حين نادى في قومه [مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي] (القصص:38) وحواشي المستبدين أشد خطورة على ضحايا الاستبداد

من المستبدين أنفسهم فهم يتلونون تلون الحرباء ويخذّلون الناس عن مقاومة الاستبداد مرة بنسبة المستبد إلى العبقريّة والتفوق الذي يجعله فوق البشر، ومرة بالحط من أقدار الشعوب وإشعارها بأنّها ضعيفة ذليلة عاجزة لن تكون قادرة لو زال المستبد على تدبير أمورها أو تنظيم شئونها.

ولقد عاصرت بعض المستبدين ومنهم عبد الكريم قاسم الذي حكم العراق بمفرده على سبيل الحقيقة أربع سنوات ونصف وصفه الانتهازيُّون والنفعيُّون من حاشيته بكل أوصاف التعظيم التي عرفتها البشريَّة، ولم يتركوا مناسبة من المناسبات إلا وظفوها لإبراز عبقريَّته وتفوقه. فحين يحتفل المعلمون بيوم المعلم ينبري من أولئك المطبّلين من يهتف: «بعاش المعلم الأول عبد الكريم قاسم» غافلا أو متغافلا عن أنَّ فلاسفة اليونان قد منحوا لقب المعلم الأول قبل العديد من القرون لأرسطو. أمّا إذا احتفل العسكريّون فذلك أمر لا نزاع فيه أنّه العسكريّ الأول الذي لو تتلمذ عليه «مونت جومر أو رومل» لعجز عن مجاراته في علومه العسكريّة ولانحنى أمام عبقريّته!! ولقد سمعت مرة قادة قوميّين سياسيّين مدنيّين من قيادات العمل السياسيّ والأحزاب –آنذاك- في العراق وقد استوزرهما عبد الكريم قاسم يقولان له وقد وجه إليهما سؤالاً: حول مدى دستورية قرار كان يريد أن يتخذه فأجاباه معا يا سيادة الزعيم: إنّ كلامك دستور فامض إلى ما تريد ولا تلتفت إلى شيء أبدا. وقد صدّق المسكين هذه الحاشية الخبيثة الانتهازيّة فقال في خطبة من خطبه الشهيرة: «إنني قوة منطلقة في التاريخ يستمد الشعب العراقيّ القوة مني في حياتي وبعد مماتي يستمدها من خطبي وكلماتي وبيان الثورة الأول!!» وكيف لا يقول الحاكم المطلق هذا وحاشيته تطلق عليه من الألقاب ما لا يكفي لكتابته ثلاثة أسطر فهو الزعيم الأوحد والملهم والديمقراطيّ والمسلم الذي يقطر تديّنًا. بل ابتكر بعضهم له صفة يعرفها إخواننا المتصوفة وهي صفة «الكشف وقطع المسافات الطويلة بخطوة واحدة» وأشاعوها بين الناس؟! لم يكن الرجل يصلي –فيما نعلم- لكن الإعلام والحاشية المتملقة أقنعت السنّة منهم بأن الزعيم لا نراه يصلي لأنه لا يريد أن يراه أحد وهو يفعل، فيحسبه على السنة إذا وضع يديه على بعضهما، أو من الشيعة إذا أرسلهما فيذهب إلى الصلاة في الكعبة بخطوة واحدة ويعود ويتوضأ من زمزم!! أما إخواننا الشيعة فقد يسيطر الحماس على بعضهم فيقول: شاهدناه في حضرة الحسين في كربلاء يصلي العصر أو الظهر أو يجمع بينهما، وبعضهم يذهب به إلى النجف ليصلي المغرب وهكذا والرجل كان يرى الصلاة مجرد نظافة قلب ونقاء وجدان فقط لا غير!!

الجماهير الغافلة تصنع المستبد

فما الطاغية في الحقيقة إلا فرد لا يملك قوة ولا سلطانًا. إنّما هي الجماهير الغافلة الذلول التي أحنت له ظهورها فركب، ومدت بين يديه أعناقها فجر وسحب وأحنت له رؤوسها فاستعلى، وتنازلت عن حقوقها في العزة والكرامة والحرية والعدالة والمساواة فطغى. والجماهير حين تفعل ذلك مع أيّ مستبد على وجه الأرض إنّما تفعله بدوافع الأوهام التي يصنعها في عقولهم إعلام الطاغية وتدبيرات الحاشية، مرة بالخوف على الشعب وثانية بالخوف من المجهول، وثالثة بالخوف من الفراغ!! وذلك كله على منافاة التوحيد ومناقضة الإيمان وعدم الإحساس بوجود الخالق ووحدانيّته وتفرده بالألوهيّة والربوبيّة والتدبير والتقدير. فالأوهام التي يصنعها الإعلام والحواشي تصور الطاغية وهو فرد بأنّه أقوى من الملايين من أبناء شعبه وتحول بينها وبين أيّ وعي يمكن أن يحررها من الخوف لأنها لو زايلها الخوف لشعرت بإنسانيّتها وكرامتها وعزتها وحريّتها ولشعر كل فرد منها أنه كفء للطاغية من حيث القوة ومساو له من حيث البشريّة، وأنّه أي الطاغية المستبد لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا إلا ما شاء الله، وإن حاول إعلامه وحاشيته خداعها وإيهامها بأنّ المستبد يملك لها شيئا.

وما يقلق الطغاة شيء مثل ما تقلقهم وحدة أمتهم وتكاتف شعوبهم. ولذلك جعل الفراعنة أهل مصر شيعا وطبقات مستعلية ومستضعفة؛ إذ لا يمكن للاستبداد والطغيان أن يستقر في أمة كريمة أبدا أو يستمر في أمة موحدة ذات وعي ورشد، إذ يستحيل أن يطغى فرد في أمة راشدة تعرف ربها وتؤمن به وتوحده وتأبى أن تستعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرا ولا رشدا. وقد يستمر المستبد في استبداده وتستمر الأمم في خضوعها وخنوعها وذلتها وانسحاقها فلا تتقبل الوعي إلا في حياة أخرى حين لا ينفع الوعي ولا يجدي الندم فيقف المستبد إلى جانب الشيطان ليقول لقومه مثل ما قال الشيطان: [وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] (إبراهيم:22) ولا ينجو –آنذاك- إلا المقاومون الموحدون الذين آمنوا بالله ورضوا به إلهًا وربًا وخالقًا متفردًا في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله هؤلاء الذين يقال فيهم يوم القيامة: [فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ * وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ

الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ] (غافر:45-51). لقد أعماهم الطغاة وحواشيهم عن أن الله –تبارك وتعالى- سينصر رسله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، فاستهتروا بوعد الله وتقبلوا أوهام الإعلام وحواشي الطغاة والمستبدين فلم يثقوا بنصر الله فانهزموا أمام الطغاة واندحروا أمام المستبدين فخسروا دنياهم التي أوهموا بأنّهم سوف يحافظون عليها بانحيازهم للمستبدين واستزلامهم للطغاة وخسروا الآخرة فلا نفعهم الاستبداد في الحياة الدنيا ولا أغنى عنهم شيئا في الدار الآخرة التي هي الحيوان لو كانوا يعلمون.

ولا علاج للاستبداد إلا وعي الأمة «بالتوحيد» وعيًا كاملاً شاملاً ودقيقا، فذلك الوعي هو الضمانة الحقيقية لرفض الاستبداد ومقاومته. ولذلك جعل الله –تبارك وتعالى- التوحيد أهم ما اشتملت عليه رسالات الأنبياء وأهم ما قامت عليه دعواتهم [وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ] (النحل:36) والاستبداد قد يقع بقوة الحكم والسلطان وقد يقع بقوة المال والعلم إذا خلا من مراقبة الله تعالى.

ثورة تونس الخضراء

لقد أثبتت ثورة تونس ضعف الطغاة وذلتهم وكذب نفختهم وانتفاشهم الخادع، فطاغية تونس وقف في آخر خطاب ألقاه يتوسل الجماهير التي ضللها وأذلها وركب على أعناقها ثلاثة وعشرين عاما أن يغفروا له جهله وغباءه وانعدام ذكائه. فقد اعترف بأنّه غبيٌّ جاهل لا يعرف الذكاء سبيلا إلى عقله، فلم يفهم إلا وهو يرى شباب البلد يفضلون الموت حرقا بأيديهم على أن يستمر حكمه وحكم جنوده وحاشيته وأهل بيته. هذا الموقف المخزي في خطبته الثانية تنصّل من حاشيته واتهمها بأنّها كانت تضلله ولا تريه حقيقة الأمر، ويفترض بالطغاة أنّهم هم الذين يضلّلون شعوبهم ولا يُرونهم إلا ما يَرون. ولكن الرجل كان يريد أن يأخذ فرصة أخرى ولو إلى عام (2014) لكن استمرار الزخم الثوريّ في الشارع التونسيّ لم يعطه هذه الفرصة، فاضطرت حاشيته أن تزين له الانسحاب، واضطر أن يتقبل الهزيمة وينسحب بشروط تافهة هي الإبقاء على حياته التي يفترض

أنه لم يعد لها طعم لها بعد ذلك العز، فبعد أن كان السيد المطاع يصبح مجرد لاجئ طريد يبحث عن ملجأ آمن!! في خطبته الأخيرة كان يناشد الجماهير ويقول لهم «الآن فهمتكم وفهمت ما تريدون» وهو اعتراف صريح بأنه حكم (23) عاما جماهير لم يكن يعرف عنها شيئا فلم يعرف ماذا تريد ولم يشعر بآلامها ولا بما هي في حاجة إليه. وذلك شأن الطغاة، يشعرون بالاستغناء عن جماهيرهم والاستعلاء على شعوبهم فيطغون وهم طائرون بجناحي «الاستغناء والاستعلاء».

إن جوهر ثورة الشارع التونسي وانتفاضته أنّها حملت للطاغية رسالة تقول له: إذا حسبت أنَّك قد استغنيت عنّا فقد أخطأت، فأنت في حاجة إلى كل فرد منّا. ها أنت تزور الشاب الذي أقدم على إحراق نفسه بعد أن صادرت الولاية العربة التي اضطر إلى العمل عليها لكسب لقمة عيش، فحينما حيل بينه وبين لقمة العيش حتى في هذا العمل المجهد ورفض الطغاة الصغار أن يعرفوا لهذا وأمثاله حقوقهم أحرق نفسه فشعرت أنَّك بحاجة إلى أن تزوره بنفسك وتقف أمامه ذليلا. لقد كان في سرير موته ولفافات حروقه أعز منك وأنت تقف وقد تكتفت ووضعت يدا على أخرى أمام ذلك السرير الذي ينام عليه جسد محترق. لماذا ينتظر الطغاة لكي يتنازلوا عن طغيانهم أن تحرق شعوبهم نفسها بعد أن أحرقوها في أفران الذل والحرمان وتسليط الأشرار والاستبداد بأمورها والاستعلاء عليها؟! لكنّني لا أرى الطغاة يتعظون، فكم من طاغية اليوم ينظر إلى «ابن علي» على أنّه غيره وأنّ ما وقع له لا يمكن أن يقع للطاغية الآخر. فالطاغية الآخر يمكن أن يتلافى ذلك أو يحتويه أو يفعل أو يقدم أو يؤخر، كم كنت أتمنى أن يقف «ابن علي» كما وقف في المرات الثلاث قبل مغادرة تونس ليقول لشعبه: لقد اقتنعت بأنكم الأغنياء عنّي وأنّني الفقير إلى رضاكم، وقد اقتنعت بأنّي لم أكن أهلا ولو ليوم واحد لأن أحكمكم لكنّني كنت غبيًّا واستغللت الظروف وركبت على أعناقكم وتحكمت فيكم فسامحوني، وليته فعل ذلك ثم أتبع ذلك بقوله: وأما الآن فإنّي قد قررت الانسحاب من حياتكم وإيكال أموركم إليكم تنظمونها كما تشاؤون سامحوني وأستودعكم الله. لكنه لم يفعل وخرج منها خائفا يترقب، خائفا مِن مَن؟ من أولئك الذين أخافهم سنين واستذلهم أعوامًا، فهل من مدكر؟! لا أظن، فنحن نشيّع الأموات يوميًّا ونضعهم في قبورهم ونوقن بأنّ يومًا لا بد أن يأتي سنكون نحن من يُشيَّع ونحن من يُوضع في القبر. ولكن ترى الناس يعودون إلى حياتهم وكأنّهم لم يشيّعوا ميتًا أو يدفنوا عزيزًا، وكذلك الطغاة لا أظنّهم يأخذون درسًا أو يتعلمون من بعضهم؛ لتبلّد المشاعر وتبلُّد الأحاسيس وانعدام الفهم والذكاء فضلا عن انعدام الخوف من الله تعالى.

إنّ عمر بن الخطاب كان يقول «لو أنَّ جملا على شط الفرات زلق فهلك ضياعا لخشيت أن يُسأل عنه عمر لِمَ لم يمهد له الطريق» ويموت من الجوع عشرات يوميًّا من أبناء الأمّة المسلمة في شرق الأرض وغربها، ولا يهز ذلك من الطغاة شعرة وتنتهك الأعراض وتمتلئ الشوارع بالمشردين والفقراء والذين يحيون حياة دونها حياة الحيوانات لا أقول الحيوانات الأليفة لأنّها مدللة أكثر من الإنسان وقد قال شاعر

يا مدلّعين الكلاب والآدمي منسي نفسي أدخل في جنس الكلاب والعن أبو جنسي

هؤلاء الذين جعلوا شعوبهم تتمنى أن تكون كلابًا مدلّلة أو غير مدللة على أن تحيا الحياة الإنسانيّة التي لم تعد حياة إنسانيّة في ظل الاستبداد والطغيان.

إنّ الاستبداد لا يعيش مع «التوحيد» في قلب واحد، والمستبد أيًّا كان لا يمكن أن ينسب إلى إيمان أو إسلام وإن صام وصلى وزعم أنّه مسلم، إنّ المستبد إنسان يعلن أنّه شريك لله –جلّ شأنه- فلا ينبغي للجماهير أن تقبل الاستبداد أو ترضى به أو تنخدع بوعوده فضلا أن تكون من عبيده أو جنوده.

وقف شرطيّ للحسن البصري وهو يلقي درسه فقال له: يا شيخ وكان الحجاج يحكم العراق وعبد الملك بن مروان خليفة على المسلمين، فقال: يا شيخ أتراني من الذين ركنوا إلى الذين ظلموا بكوني شرطيًّا من شرطة الحجاج؟ قال: يا بني أنت منهم ولكن من يخيط لك ثيابك أو يطبخ لك طعامك أو يرعى لك دابتك يكون من الذين ركنوا إلى الذين ظلموا. فتأمل!!

يرحم الله شهداء تونس ويحفظ جماهيرها ويحميها من أي طغيان جديد أو استبداد يدّمر شخصيتها ويذهب بريحها. وفق الله إخواننا في تونس للتي هي أحسن وللتي هي أقوم لعلّهم كما قدموا نموذجا في مقاومة الجماهير العزلاء للطغيان المسلح حتى النهاية أن يقدموا نموذجا لدولة ونظام تعلوا فيه كلمة الله ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ويسود فيه العدل وتنتصر فيه الحريّة. إنّه سميع مجيب.

ذنوب الأمم والشعوب

لقد أثارت ثورة تونس موجات من التحركات، فكانت مثل حجر ألقي في مياه راكدة صارت أمواجها تنداح في دوائر عديدة سواء بالنسبة للحاكمين و للشعوب. ونحن نعرف أنّ الذين يتربصون بنا الدوائر سواء في الدولة المزروعة _إسرائيل_ أو بين مؤيِّديها ومسانديها، يريدون إحداث ما أطلقوا عليه «الفوضى الخلَّاقة» لأنَّهم ينتظرون من إثارة ذلك النوع من الفوضى أن يعرفوا سائر ما تنطوي عليه شعوبنا من طاقات وإمكانات ظاهرة وباطنة، وما تشتمل عليه مجتمعاتنا. وذلك ليكونوا قادرين باستمرار على إحكام قبضتهم حول رقابنا. فما كاد العرب يستردون أنفاسهم اللاهثة المبهورة من موضوع «تقسيم السودان» باستفتاء أعرج اقتصر على الجنوبيّين دون الشماليّين حتى تطورت أحداث تونس، ثم داهمتنا الوثائق الفلسطينيَّة لمحادثات رجال السُلطة مع إسرائيل، وقبلها احتلال العراق والعمل على تفكيكه إلى أقاليم عدة بعد أن استمرت الفوضى فيه -الخلَّاقة وغير الخلَّاقة- كل هذه السنين، وقد نُحَمّل الدكتاتوريّين المسؤليَّة كلّها أو بعضها ولكنَّ الشعوب عليها مسؤوليَّات لا تخفى، ولا بد لها أن تعي تلك المسؤليات (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء:79).

ونحن فيما نقدمه في هذا المجال نرجو أن نكون كمن يُوقِدُ شمعة في ظلام الفتنة، سواء نجمت عن «الفوضى الخلّاقة» أو عن أيّ شئ آخر أو عن أسباب كثيرة اجتمعت لكي تضع العرب –خاصة- والمسلمين –عامة- في هذه الفتنة التي تذر الحليم حيران. فقد يكون من حقنا أن نُحَمّل الدكتاتوريّين مسؤوليَّات كثيرة، وأن ننسب إليهم كثيرًا من الفتن الدائرة في بلداننا؛ ولكن لا بد أن تعرف الشعوب –أيضا- ما جنته أيديها وما شاركت هي فيه لتَتُوب عنه. وفي أمثال الشعوب رصيد كبير من الخبرات عبَّرت به عن هذه الحالة، وفي المثل قالوا: «يا فرعون مين فرعنك؟ قال: لم أجد من يردني». إنّ عدم رد الشعوب ظلم الظالمين وانحرافات المنحرفين والوقوف مع المعْتَدَى عليه فى وجه المعْتَدِين ذنبٌ قال القرآن فيه (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال:25).

إنّ كون الشعوب والأمم ترتكب ذنوبًا يمكن أن تنسب إليها بوصفها أممًا وشعوبًا أمر مسلّم -عندنا- جاء القرآن الكريم به في آيات كثيرة، وهو واقع ومشاهد لا يمكن إنكاره أو المكابرة به. وقد قص

-سبحانه وتعالى- علينا في كتابه قصص أمم كثيرة، وشعوب لا تحصى عتت عن أمر ربها وعصت رسله فعاقبها الله عقابًا عسيرًا (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (العنكبوت:40) وقال -جل شأنه: (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ) (الحاقة:5: 8)، وقال -جل شأنه- فيما يمكن أن يكون قانونًا عامًا: (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (السجدة:21). كما أنّ قصة القرية التي كانت حاضرة البحر من قرى بني إسرائيل تقدم لنا نموذجًا هامًا في هذا المجال: (واَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) (الأعراف:163: 170).

كما أنَّ الذنوب أو الأمور المنكرة سواء أكانت باتجاه حقوق الله أو حقوق العباد قد لا يكون مرتكبوها هم الأكثرون. وقد تبدو في بادئ الأمر قليلة ضئيلة؛ لكنّ السكوت عنها وعدم الإنكار على فاعليها يجعل الساكتين من الأمّة بمثابة المقرّين لتلك الاعتداءات والجرائم سواء أكانت في الداخل أم في الخارج. إنّ اجتراء فرد من أفراد أمّة مّا على ارتكاب اعتداءات وذنوب تجاه شعوبهم أو تجاه شعوب أخرى؛ ثمّ سكوت الآخرين على تلك الجرائم وتخليهم عن نصرة المظلوم والإنكار على الظالمين المعتدين مرتكبي تلك الجرائم. وإذا أنكر شجاع منكرًا سارعوا إلى إسكاته ومعاقبته فتبدأ عمليَّة تغيير في مفاهيم الناس ورؤيتهم حتى يصبح المعروف في تلك الأمم منكرًا

والمنكر معروفًا. وقد يقع الاعتداء على بلدان أخرى أو شعوب أخرى، ولا يجد المعتدون من يوقفهم ويمنعهم من العدوان. وقد يطغى حكّام مستبدون على شعوبهم فيستضعفونها ويسيرون فيها سيرة فرعون في بني إسرائيل.

ولما كانت الانحرافات والذنوب تبدأ بأفراد فإذا لم يأخذ أبناء المجتمع أو الشعب أو الأمّة على أيدي أولئك الأفراد ويمنعوهم من الاستمرار فيها ويأخذوا على أيديهم فإنّهم يستمرؤونها وتبدأ بالانتشار، ويقلدهم الضعفاء فتنقلب الموازين ويصبح المعروف منكرًا والمنكر معروفًا. وهنا لابد من أن تقوم في المجتمع أو الأمّة [أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ](هود:116)، ويتصدون للمفسدين ويمنعونهم من الاستمرار في الفساد والإفساد، وإلا استحق الشعب –كلّه- أو الأمّة كلها العقاب: فالفاسقون يستحقون العقاب لفسقهم ولذنوبهم وما عملت أيديهم، والساكتون عنهم سواء أكانوا راضين بما فعلوا مقرين لهم بما صنعوا، أو كانوا منكرين، لكن إنكارهم لم يبلغ مستوى الوقوف في وجوه الظالمين والطغاة والعصاة والمنحرفين، بحيث يردونهم عن الظلم ويمنعونهم من البغي ويحولون بينهم وبين تغيير مفاهيم الأمّة وقلب الموازين وتدمير القيم، فإنّهم مؤاخذون بذلك السكوت أو بذلك الضعف الذي سمح لأهل المنكر أن يستمروا في ذلك إلى أن قلبوا كل شيء وغيّروه. وفي الحديث: لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم، وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) (المائدة : 78) وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم- متكئًا فجلس فقال : لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أَطرًا [وفي رواية] ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك، أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (المائدة:78–81) ثم قال: «كلا والله لتأمُرنَّ بالمعروف ولتنهُونّ عن المنكر ولتأخذُنّ على يد الظالم ولِتَأطِرُنّه على الحق أطرا، ولتقصُرنَّه على الحق قصرا زاد في رواية أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنَّنكم كما لعنهم( )».

وكما قص علينا القرآن الكريم نبأ تلك القرية، قص علينا نبأ فرد انحرف ويمكن لانحرافه أن يشكل ظاهرة إذا لم يجد من يوقفه (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ) (الأعراف:175: 177) فهذا فرد أنعم الله عليه وآتاه آياته فلم يدرك قيمة ما أنعم الله به عليه فانسلخ من تلك الآيات، فتعقبه الشيطان وتبعه وصار معه كظلّه لا يفارقه حتى صار من الغاوين ولم يعد لديه قدرة للرجوع عما سقط فيه. وبيّن لنا في قصته –جل شأنه- أنّ سبب الانحراف هو ذلك الإخلاد إلى الأرض الذي أنسى هذا الإنسان الدار الآخرة ولقاء الله فيها. وفي سورة الأنفال يقول الله –جل شأنه: (وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال:25).

السكوت عن المنكر منكر

إنّ الفتنة أيًا كان نوعها حينما تشيع وتنتشر في مجتمع ولا توأد في مهدها قبل أن تتحول إلى ظاهرة تؤثّر في ضعاف الإيمان وضعاف النفوس وتستفحل وتطرد المعروف والخير والقيم من ساحة ذلك المجتمع لتحل محلها، فلا يقتصر ضررها على مرتكبيها الذين ظلموا أنفسهم وظلموا أمّتهم، والشعب الذي ينتمون إليه، بل يعم شرها وضررها الظالمين وأولئك الذين سمحوا للظالمين أن يظلموا وأن يستمروا في الظلم حتى كأنّ الظلم يصير أصلًا ويصير العدل هو الغريب أو المستغرب. فذنوب الشعوب أو الأمم ليست ذنوبًا تتشاور الأمّة كلها وتتواطأ على ارتكابها لكنّها تظهر على أيدي فرد أو أفراد أو مجموعة أو نخبة ويضعف الباقون أو يترددون في مقاومتها، والإنكار على أصحابها والحيلولة دون انتشارها فتستفحل وتعلو حتى تصبح ممارسة عاديّة لتلك الشعوب أو الأمم.

حين يحدث ذلك وينعدم المنكرون للمنكر رغم أنّهم لم يشاركوا فيه، ولم يرتكبوا ما ارتكبه الآخرون، فيعمهم –آنذاك- الوصف بأنّهم مذنبون وإن اختلفت المستويات ومستحقون للعقاب ولا ينجو من العقاب في هذه الحالة إلا أولئك الذين كانوا ينهون عن السوء، فإذا توقفت الأمّة –كلّها- فلم يوجد فيها من ينهى عن السوء، بل انزوى هؤلاء وانكمشوا وتشبّثوا بعزلتهم وخافوا أن يقولوا

للظالم: أنت ظالم وللمنحرف أنت منحرف (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم:41) -آنذاك- نجد أنّ الله -سبحانه وتعالى- الذي خلق السموات والأرض والقوانين الحاكمة لهذا الكون، وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض ويحفظ -جل شأنه- المسافات بين المخلوقات ويحفظ المقادير والنسب فإنّه قد يخلي -جل شأنه- بين تلك السنن والقوانين التي قامت على الحق وتعرفه وبين أولئك الذين مردوا على الظلم والكفر والجور والتمرد على الإله الخالق -جل شأنه- يخلي بين تلك القوانين وبينهم، فيحدث لهم اضطراب في حياتهم بما كسبت أيديهم. ذلك الاضطراب قائم على تصادم بين الباطل الذي سلكته تلك الأمم والشعوب وبين الحق الذي خلق الله به السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، فتضطرب حياتهم وتختل شئونهم وتضطرب النسب والمسافات بين خلق وخلق، فتحدث كثير من الاضطرابات التي نستطيع عند التحقيق أن نقول: إنّها من كسب أولئك المنحرفين. نعم هم لم يقصدوا إفساد حياتهم، لكنّهم توهموا أنّهم بانغماسهم في تلك الذنوب والمعاصي يمتعون أنفسهم ويحققون لها رغباتها وينغمسون في شهواتهم ويرضون أنفسهم، وهم لا يرون في ذلك ما يصادم نظم الكون.

المعصية إخلال بأمانة الاستخلاف

إنّ المعصية إخلال بالاتفاق المبرم بين الإنسان وبين خالقه -جل شأنه- على أن يطيع الله -جل شأنه- ويتقبل ما يجري فيسخر الله له الكون ويعينه على كشف قوانينه والسنن الحاكمة له فيتعايشان باعتبارهما معًا قافلة من قوافل التسبيح لله -جل شأنه- فتسبيح يقوم به الإنسان المستخلف، وتسبيح يقوم به الكون بقيامه على تلك السنن والقوانين التي أودعها الله فيه، وحصول التصادم -آنذاك- يكون بين «قواعد الاستخلاف وسنن التسخير» لعدم بناء العلاقة السليمة بينهما، فذلك يؤدي إلى ذلك الخلل الواضح.

فحين تظهر الفاحشة ويفشو المنكر ويسود الاستبداد وتنهار الشورى وتستحل الفروج ويصبح الربا مغنمًا والمغنم دولًا، والزكاة مغرمًا والأمانة مغنمًا، ويشرد الآلاف أو الملايين فلا يجدون وليًا ولا نصيرًا ويستبد بالسلطان من يستبد من الأراذل، ويستبد السفهاء بالأموال، ويستبد المنافقون والمنحرفون والعصاة والمفسدون والذين يريدون علوًا في الأرض وفسادًا بمصائر

الشعوب –آنذاك-: تختل الموازين وتضطرب المقاييس ولا يمكن لمن يملك شيئًا من الاحترام لنفسه أن يستمرئ تلك الحالة، هنا يبدأ الخلل والاضطراب في تصادم «قوانين الاستخلاف مع قوانين التسخير»؛ ولذلك فإنّ بعض الصالحين كان يقول: «إنّي لأعرف معصيتي بدابّتي، فإذا لم أرتكب معصية ولو كانت من قبيل التفريط بوردي في ذلك اليوم فإنّ دابَّتي تكون سلسة القياد لا تتعبني، وحين تَحرِنُ دابَّتي أعرف أنّني قد فرطت بواجب أو قارفت ذنبًا»، فالطبيعة إنّما سخرت لنا لأنّنا أبرمنا مع الله عهدًا أن نحمل الأمانة وأن نفي بالعهد (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) (الأعراف:172: 173) وقال –جل شأنه: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب:72)

«والأمانة» هنا هي أمانة الاستخلاف مع حريّة الاختيار، فإذا كانت السموات والأرض والجبال قد أبين أن يحملن أمانة الاستخلاف وحريّة الاختيار وآثرن التسخير على ذلك فليس من الممكن أن تكون قوانين الكون المبثوثة في السموات والأرض والجبال والبحار والوديان وما إليها طائعة لإنسان قد خان العهد وخان الأمانة فتصادمت في حياته «قوانين الاستخلاف مع قوانين التسخير»، فلا تصبح عنده قدرة على أن يقيم الحياة الطيبة؛ لأنّ الحياة الطيبة بكل ما فيها من معاني طيبة مرتبطة بشبكة من السنن والقوانين المبثوثة في الأنفس والآفاق التي مؤداها أن يكون الإنسان طائعًا لله -تبارك وتعالى- متبعًا لأوامره مجتنبًا لنواهيه، فهبوطه إلى الأرض كان بعد أن تلقى كلمات تاب بها إلى الله -جل شأنه- وصحح علاقته بالله بعد أن أزله الشيطان وزوجه؛ ولذلك فإنَّ سلوكه وسيرته المستقيمة في هذا الوجود ينبغي أن تكون مرتبطة بذلك العهد مع الله وبالحِكَم التي اقتضت وجوده ونزوله على الأرض وهبوطه إليها ليؤدي مهام الاستخلاف بإعمارها وإقامة الحق والعدل فيها. وهنا تتحق لهذا الإنسان الحياة الطيّبة التي ذكرها تعالى في قوله: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (النحل:97) فالحياة الطيبة في الحياة الدنيا ترتبط بالعمل الصالح إضافة إلى ما على الإنسان أن يقوم به من جهد في استثمار ما أودع الله في هذا الكون واستعماره وإعماره، ومن أعرض عن ذكر الله فإنّه لا يتوقع منه أن يحسن الخلافة أو القيام بمهام الاستخلاف بالشكل الذي يرضي الله ورسوله ويدل له قوله –جل شأنه: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)

(طه:124: 127) فهنا يجمع الله بين الإسراف وبين الكفر، ومعروف أنّ الإسراف إنّما يكون في ما نسميه اليوم بتبديد الموارد والتبذير فيها وتدمير الطبيعة والقضاء على عناصرها والدخول في صراع معها بدلًا من الانتماء إليها، وقيادتها في قافلة التسبيح (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (الإسراء:44).

فتنة الاعتداء على الكنائس

إنَّ الإنسان كما يحتاج إلى مَنْ يُحبه، ويضفي عليه سامي عواطفه، وجميل مشاعره، هو في حاجةٍ إلى مَن يبغضه ويصبّ عليه جام غضبه وشديد بغضه، وينسبه إلى كل الرذائل، وينسب كل الرذائل إليه. ولذلك، فإنَّ الله -تبارك وتعالى- أمرنا أن نتّخذ الشيطان عدوًّا نصبّ عليه غضبنا، وسائر المشاعر السلبيّة لدينا؛ لأنَّه أصل كل منقصة، ومصدر كل رذيلة. فهو مَنْ يأمرنا بالسوء ويحرّضنا عليه ويدعونا للوقوع فيه. ومَنْ لم يتّخذ الشيطان عدوًّا فلابد له من عدوٍّ آخر، وهذا العدو الآخر قد يكون ممّن لا يستحق عداوته، ولا ينبغي له أن يُفرغ مشاعره السلبيّة عليه، ولكن تلك طبيعة الإنسان.

ومن أوسع أودية الباطل والخصومات بين الناس «الغلو». والغلو أن يبالغ الإنسان في شيء ويغلو به، فإذا بلغ الإنسان في شيءٍ مستوى المغالاة فإنَّه يرمي كل مَنْ أنكر عليه أو حاول ردّه إلى الاعتدال، أو دعاه إلى الرجوع إلى الحق «اتخذه عدوًّا»، وإذا فشا هذا النوع من الغلو وانتشر في أُمَّةٍ فإنَّه يسوقها نحو الهلاك. إنَّ المغالي لا يطيق سماع كلمة الاعتدال أو الحق أو الوسط، إنَّه يُسمع نفسه ما تريد فيمَنْ يحب، ويُسمع نفسه ما تريد فيمَنْ يبغض، ويرفض الإنصات إلى أيّ أحدٍ آخر، والمعتدلون قد يجدون في جرأة أهل الغلو وسلاطة ألسنتهم وإقدامهم على تجريح مخالفيهم ما يدعوه إلى الانكماش والانطواء، ويُثبّطه عن الإنكار؛ وآنذاك يخلو الجو للشيطان ليلعب في عقل ذلك المغالي وقلبه ونفسه، ويسوقه نحو الهلاك ونحو تدمير مقوّمات الاعتدال والوسط في مجتمعه وفي أُمَّته.

وحدة الكيان الاجتماعي في فترة الغزو

إنّ المسلمين والمسيحيّين في العراق وفي الشام وفي مصر والسودان والبلدان المغاربيَّة وغيرها عاشوا مع المسلمين جنبًا إلى جنب. ولقد اختبر المسلمون في منطقتنا وزلزلوا زلزالاً شديدًا أثناء حروب الفرنجة التي استمرت مئتي عام، ومع أنَّ الفرنجة قد سمّوا تلك الحروب بالحروب الصليبيَّة؛ طمعًا في كسب نصارى المنطقة، وتحويلهم إلى طابورٍ خامس -كما يُقال- لكنّهم لم يفلحوا ووجدوا من نصارى المنطقة رفضًا. بل زادهم ذلك التصاقًا بالمسلمين جيرانهم وإخوانهم، وقاتل

كثيرون مع المسلمين أولئك الغزاة الذين جاؤوا ليحتلوا البلاد ويسلبوا العباد ويسيطروا على القدس وما جاورها من أرضٍ بارك الله حولها. والمسلمون عرفوا لجيرانهم ذلك الحق، واعتزوا به، ولم ينظروا للمنتمين إلى هذه الديار إلا نظرة إخاء ومودة، فبادلوهم صداقة بصداقة، وولاء بولاء، ووفاء بوفاء. واستمرت بذلك الوحدة قائمة رغم تلك الأعاصير وذلك التحدي الكبير. وحين حدث الاستعمار، وانتُهكت ديار المسلمين، حاول المستعمرون أن يجدوا ثغراتٍ -مثل ثغرة اختلاف الدين- لينفذوا منها. لم يجدوا إلا عددًا قليلاً وفي بلدانٍ معيّنة، ليس منها مصر ولا بلاد الشام.

وعلى الرغم من الوحدة الاجتماعية التي أثبتها المسلمون والمسيحيون في فترة الغزو الخارجي، سواء في الحروب الصليبية أو الاستعمار الحديث. فقد كانت هناك أدبيّات تظهر بين الحين والآخر في ظروفٍ تاريخيّة معيّنة يغلب أن تكون ظروف حروب وتوتر واختلاف لا تخلو من ثقافة كراهية. أدّت إلى زرع الحظر والخوف. بحيث يبدأ الأخ في الحذر من أخيه والشك فيه، وتبدأ الروابط التي كانت وثيقة في الانهيار والتآكل؛ لتفسح مكانها لأنواعٍ من البغضاء وانعدام الثقة ومشاعر الشك، لتحقق للشيطان وأعوانه أهدافهم في تفكيك الروابط وإغراء بعض الناس في بعضهم الآخر. ففي مرحلةٍ من المراحل كتب الشيخ ابن تيميّة -يرحمه الله- كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم»، وكتب بعض الناس كتاب «الصواب في قبح استكتاب أهل الكتاب»، وكتب ثالث «النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار». وقد عُنيتُ في فترةٍ زمنيّة معيّنة بتتبع هذا النوع من الكتابات، فوجدتها كتاباتٍ وأدبيّاتٍ تصدر عن كتّاب من مختلف الطوائف داخل الكيان الاجتماعي الواحد؛ لتحذير طائفة من الطوائف الأخرى، أو بذر بذور الشك وإيجاد أزمة ثقة بين مكوّنات كيانٍ واحد؛ ولذلك فقد اعتبرت تلك الكتب والدراسات -سواء صدرت عن علماء مسلمين أو كتّاب من النصارى أو غيرهم- أدبيّات مرحلة معيّنة أملتها ظروفٌ جعلت كل طائفة تحاول أن تحيط نفسها بحاجز نفسي يفصل بينها وبين طوائف المواطنين الأخرى. و حين تُقرأ هذه الأدبيّات خارج سياقها الزمنيّ والتاريخيّ فإنّها تؤدي إلى إيجاد ثقافة غلوٍّ ورفض الفئات الغالية بما يسوّغ لها غلوّها فيما هي عليه، وربما يسوّغ لها أن تضطهد الطوائف الأخرى وتجور عليها إذا كانت في موضع القدرة، وذلك كفيلٌ بتفكيك الكيانات، وتدمير الدول، وإعانة الشيطان على الإنسان بدفعه إلى الفتنة والدخول في مجالات الاحتراب.

كلكم لآدم وآدم من تراب

إنَّه ما من بلدٍ من بلداننا العربيّة والإسلاميّة إلا وفيه أقليّاتٌ دينيّة أو مذهبيّة أو عِرقيّة أو سواها. يجمع الجميع في هذه الحالة "كلكم لآدم، وآدم من تراب"، و"لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى"، فتصبح الأمّة مطالبة بإيجاد ثقافةٍ تثقّف أجيالها بها من رياض الأطفال إلى أعلى المستويات، تقوم على مبدأ "كلكم لآدم وآدم من تراب"، وعلى مبدأ "يا أيها الناس..."، ومبدأ "ادخلوا في السلم كافة"، ومبدأ "دعوا العصبيات فإنّها منتنة". ثقافة تستطيع -بما تشتمل عليه من مكوّنات- أن تُخرج الناس من ظلمات الغلوّ والتعصُّب إلى نور الاعتدال والتآخي. ثقافة تنظر للإنسان على أنّه كفؤٌ لأيّ إنسان آخر في الإنسانيّة والآدميّة، وأنّه لا يقلل من قيمة الإنسان إلا انحرافاته الأخلاقيّة والسلوكيّة، وطرائق تعامله مع الآخرين ونظرته إليهم، واستعلاؤه عليهم واستبداده بشأنهم. فإذا لم يكن على هذه الصورة فاختلافاتنا الأخرى معه -في اللغة أو العرق أو المذهب أو الدين- اختلافات تنوّع لا تضاد، تقتضي مزيدًا من الفهم من كلٍ لسواه، ومزيدًا من الوعي، ومزيدًا من التقوى والبر.

كيان غريب يهدد كياننا الاجتماعي

إنّ منطقتنا العربيّة بالذات تواجه تحديًا في غاية الخطورة، وهو تحدٍ يحتاج إلى طاقات الأُمَّة كلها ووعي الأُمَّة جميعها بما يُدبّر ويُحاك ويُهيأ لها، فهناك كيانٌ غريب تم زرعه في هذه المنطقة كرهًا، فحُمِل كرهًا ووُلِد كرهًا وعاش كرهًا. هذا الكيان قد وُلِد ولادةً قيصرية شائهة، وُلِد وهو يعتقد أنَّ أمنه وسلامته، بل وحياته ووجوده، لا يمكن تحققها، أو حمايتها بعد تحققها، إلا بتفريق مَنْ حوله وتمزيقهم، وإثارة الفتن بينهم، وإيجاد الفوضى بأنواعها، خاصةً تلك التي يُسمّيها بـ«الخلّاقة». فتلك كلها بالنسبة له أمورٌ لابد منها لكي يستطيع أن يحيا حياةً تستجيب لطموحاته وتلبّي له احتياجاته، فإن لم يعِ الجيران المحيطون بهذا الكيان لهذه الحقيقة فسوف يُصدّر إليهم -بأخبث الوسائل وأخطر الأساليب- المشكلة تلو الأخرى، مستغلاً أجواء التوتر، مسخّرًا الغلو والأحقاد والغفلة عن الشياطين لينفث سمومه تحت شعارات مختلفة وبأسماء مختلفة.

إنّ كياناتنا الاجتماعيّة هذه أحوج ما تكون إلى تحصين جبهاتها الداخليّة، وحمايتها من أي اختراق خارجي مهما يكن، والمخترِق هذه المرة شيطانٌ إنسيّ، يتعاون مع شيطان آخر ليفسد كل شيء،

فهم يسعون في الأرض فسادًا، لا يرقبون في أحدٍ إلًّا ولا ذمّة، لم يتركوا لنا وطنًا واحدًا آمنًا مستقرًّا، يسعون لتدمير الجميع، ولا يمكن مواجهة هذا الخطر إلا بإعادة بناء كياناتنا الاجتماعيّة وتعزيز وحدتِها، وتحصين جبهاتها كلها، والحيلولة دون أيّة عمليّة اختراق يريد هؤلاء القيام بها واستثمارها.

المصدر صاحب المصلحة

إنَّ ما حدث للكنائس العراقيّة، وما حدث في الإسكندريّة، وما قد يحدث في أي بلدٍ آخر صادرٌ عن مصدرٍ واحد هو صاحب المصلحة في كل ما حدث وما قد يحدث؛ ولذلك ينبغي أن توجّه جميع المشاعر السلبيّة نحو ذلك المصدر الحقيقيّ.

إنَّ الهياج لن ينفع في معالجة هذه الأحوال، فالهياج يحوّل الأمر إلى نوعٍ من مصارعة الثيران، فالثور قويٌّ ولا شك، وهو أقوى من المصارع دون ريب. ولكنّ المصارع -بحكم إتقانه لمصارعة الثيران وخبرته وتجاربه- يجعل الثور بعد أن يُهيّجه ويتجه نحو الخرق التي يفردها أمامه، وهي خرقٌ لا قيمة لها، ولا يستطيع الثور أن ينتقم من المصارع بنطح تلك الخرق التي ينشرها.

والمصارع -في النهاية- سوف يجعل قوى الثور تخور، ويوصّله إلى مستوى الانهيار، ثم يجهز عليه ويعلن انتصاره، مع أنّ الثور -من حيث القوة الجسديّة- أقوى بكثير من ذلك المصارع، فلو استطعنا -في ظروف المحن كتلك- أن نوجّه الهياج والغضب باتجاه مَن يستحقه، وباتجاه مَن دبّر الفتنة وأثارها -لا باتجاه الخِرَق التي يفردها في وجه الثور لينطحها- لاستطعنا أن نوقف هذه المحاولات، ونحرم هؤلاء الأعداء والخصوم من أن يسجّلوا علينا أي انتصار لا يستحقونه. إنَّ المستفيد من تدمير الروابط بين المسلمين والنصارى في بلادنا العربية هو الكيان الطارئ، المزروع كرهًا، والموجود كرهًا، فلا ينبغي أن نخسر عدّة مرات؛ فنخسر وحدتنا ونخسر في عمليّة الاهتداء إلى مثيري الفتنة ومدبري المشكلات لكياناتنا العربيّة المسلمة.

توقيت شيطاني

إنّ التوقيت الذي اختاره الشياطين المدبرون للاعتداء على الكنيسة في الإسكندرية توقيت في غاية الخطورة، وفيه رسالة كامنة لا بدّ أن نحسن قراءتها. فالتوقيت يجري قبل استفتاء جنوب السودان

على الانفصال بأيام قلائل والطبول تدق لتحقيق انفصال لن يكون في مصلحة أحد لا في السودان ولا في خارجه؛ إلا ذلك الكيان المزروع كرهًا، وكأنّه يقول لأتباع الكنيسة المصريّة القبطيّة الذين اتخذت قيادتهم من ذلك الكيان موقفًا مشرفًا يريد أن يقول لهم: انظروا إلى ما يحدث في السودان وإنّكم مهما فعلتم، قد تجدون أنفسكم مقتنعين بأنّ هؤلاء المسلمين لا يمكن التعايش معهم، وأن الانفصال عنهم والبعد عنهم غنيمة وحلّ لهذا النوع من المشكلات، فاستوعبوا الدرس وخذوا الأمر من بدايته لتتجنّبوا مزيدًا من الخسائر. فهي لحظة تاريخيّة خطيرة أراد هؤلاء الشياطين أن يوجّهوا فيها هذه الرسالة.

إنّ جميع أبناء مصر ومؤسساتها الدينيّة والمدنيّة مطالبة برفع درجة الوعي في هذه اللحظات التاريخيّة وتحصين الجبهة الداخليّة وتدعيم الوحدة الوطنيّة بكل وسائل التدعيم والتحصين للحيلولة دون هؤلاء الشياطين واختراق هذه الجبهة.

تعازينا إلى ذوي الضحايا في بغداد والموصل والإسكندرية وغيرها. سائلين العليّ القدير أن يُجنّب مصر العزيزة وسائر بلاد المسلمين وسائر البلاد العربيّة الفتنَ والمحنَ وعوامل التمزّق، إنّه سميعٌ مجيب.

كيان غريب يهدد كياننا الاجتماعي

إنّ منطقتنا العربيّة بالذات تواجه تحديًا في غاية الخطورة، وهو تحدٍ يحتاج إلى طاقات الأُمَّة كلها ووعي الأُمَّة جميعها بما يُدبّر ويُحاك ويُهيأ لها، فهناك كيانٌ غريب تم زرعه في هذه المنطقة كرهًا، فحُمِل كرهًا ووُلِد كرهًا وعاش كرهًا. هذا الكيان قد وُلِد ولادةً قيصرية شائهة، وُلِد وهو يعتقد أنَّ أمنه وسلامته، بل وحياته ووجوده، لا يمكن تحققها، أو حمايتها بعد تحققها، إلا بتفريق مَنْ حوله وتمزيقهم، وإثارة الفتن بينهم، وإيجاد الفوضى بأنواعها، خاصةً تلك التي يُسمّيها بـ«الخلّاقة». فتلك كلها بالنسبة له أمورٌ لابد منها لكي يستطيع أن يحيا حياةً تستجيب لطموحاته وتلبّي له احتياجاته، فإن لم يعِ الجيران المحيطون بهذا الكيان لهذه الحقيقة فسوف يُصدّر إليهم -بأخبث الوسائل وأخطر الأساليب- المشكلة تلو الأخرى، مستغلاً أجواء التوتر، مسخّرًا الغلو والأحقاد والغفلة عن الشياطين لينفث سمومه تحت شعارات مختلفة وبأسماء مختلفة.

إنّ كياناتنا الاجتماعيّة هذه أحوج ما تكون إلى تحصين جبهاتها الداخليّة، وحمايتها من أي اختراق خارجي مهما يكن، والمخترِق هذه المرة شيطانٌ إنسيّ، يتعاون مع شيطان آخر ليفسد كل شيء، فهم يسعون في الأرض فسادًا، لا يرقبون في أحدٍ إلًّا ولا ذمّة، لم يتـركوا لنا وطنًا واحدًا آمنًا مستقرًّا، يسعون لتدمير الجميع، ولا يمكن مواجهة هذا الخطر إلا بإعادة بناء كياناتنا الاجتماعيّة وتعزيز وحدتِها، وتحصين جبهاتها كلها، والحيلولة دون أيّة عمليّة اختراق يريد هؤلاء القيام بها واستثمارها.

الكنيسة والمسجد

ليس من شأن المؤمن أن يهدم أو يضر بأيّ مكان اتخذه أهله للعبادة بحسب اعتقادهم وبحسب دينهم، ومَن يخالفهم في الدين والاعتقاد، ليس له أن يهدر حرمة المكان باعتباره مكانًا أعدّه أصحابه ليعلنوا أنّهم مؤمنون بوجود ربّ وإله ودين.

والمسلمون بالذات بحكم كونهم الأمّة الوسط والسائدة والخيّرة حُملوا مسئوليّة حماية مساجدهم ومعابد الآخرين كما لو كانت مساجد، وحين أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال بعد أن كانوا ممنوعين منه في مكة بقوله تعالى: (كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاة) (النساء:77)، جعل الله –تعالى- علّة الإذن بالقتال أن يدافع المسلمون عن أنفسهم وعن مساجدهم وكنائس النصارى وبيع اليهود وسائر أماكن العبادة لسائر الأمم وكافة الأديان؛ فقال جل شأنه: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّه عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز) (الحج:39-40). فالمسلم إذن مسؤول عن حماية دور العبادة كلّها لسائر الأمم ولكافة الأديان؛ لأنّه صاحب رسالة عالميّة يفترض أن تستوعب سائر الأمم وكافة الأديان وتحمي الأديان كلها بما في ذلك الأديان الصريحة في الكفر والشرك مثل الزرادشتيّة والمجوسيّة.

لقد حمى المسلمون عبر تاريخهم رموز الأديان، ولقد بلغ من حرص المسلمين على ذلك أنّ التاريخ قد سجّل بمختلف الأصول وقائع قاتل المسلمون ودافعوا فيها عن بيوت النار للمعظمين لها، وبلدان المسلمين شاهدة على ذلك. ففي شمال العراق مَا يزال الذين يعظّمون الشيطان ويسمونه «طاوس ملك» ولهم أماكن عبادتهم التي عاشت في ظل حماية المسلمين قرونًا عديدة وما تزال، وقام المسلمون بحماية معابد أولئك ورموزهم ولم يترددوا بتسوية ذلك في مساجدهم ودور عبادتهم ولم يسجّل التاريخ طيلة فترات العيش المشترك بين المسلمين وغيرهم تهاونًا من المسلمين بمخالفيهم في الدين أو استهانة بمقدساتهم ودور عبادتهم، إلا في أشد فترات التاريخ تراجعًا وظلامًا وجهلا؛ بل كان المسلمون يحرصون الحرص كلّه على أن توجد في بلدانهم سائر الرموز، ويرى بعضهم أن أي مدينة من المدن الإسلاميّة لا يكتمل فخارها إلا بذلك التنوّع الدينيّ والمذهبيّ وما إلى ذلك. لكن

حين يسود الجهل وينحسر العلم وتسود العقليّات السكونيّة الماضويّة المتعصبة التي تحاول التعويض بالتشبث بالقشور عن القيام بالمهام وبالأصول فينصرف النّاس إلى أمور ساذجة ويضخمونها ويجعلون منها قضيّة تسوّغ لهم وجودهم ونفوذهم وربما بعض رسومهم ومناصبهم. هؤلاء الماضويّون يحاولون العيش في تاريخ صنعوه وفقًا لهواهم، وتراث أرسوه وفقًا لمزاجهم، بحيث يستجيبون لنزغات الشيطان ونزعاتهم، فيصنعون من المعارك الوهميّة الدونكيشوتيّة معارك ضخمة مع طواحين الهواء والذباب الطائر وما إليه. فذلك قد يشيع نزعات مريضة مكبوتة أو ينعش خيالات سقيمة، فتتطلع إلى أن تكون لها أدوار تجعلها تعيش الماضي، فتجد من يعين هؤلاء، من يوزّع المنشورات في مصر وغيرها حول الأخت المسلمة فلانة التي تركت المسيحيّة، ودخلت الإسلام واسمها كذا وسنها كذا، وأخذتها الكنيسة وقتلتها أو فعلت بها مَا فعلت. فيأتي موزّع المناشير هذا وقد ملأ ذهنه بصور الخليفة المعتصم الَّذِي استغاثت به امرأة مسلمة من عموريّة أو حمص يعيشون على تخومها، فنهض الخليفة نهضة الأسد انتصارًا لتلك المرأة المظلومة وقاد الجيش الَّذِي نهض لفتح عموريّة، ثم يأتي خيال الأخ الَّذِي يوزّع المناشير الماضويّ في اتجاهه السكونيّ في نزعته فيلبس لامة حرب المعتصم ويذهب ليجند مَن يستطيع، وينادي بالويل والثبور وعظائم الأمور لإنقاذ تلك الأخت التي لا يعرف أحد مَن هِيَ. ولا يهمه آنذاك وحدة مصر والمصريّين، ولا مستقبل هذه البلاد ولا مَا سيحدث!

إنّ الله -تبارك وتعالى- قد منح للناس حريّة التدين وحرية العبادة، وجعل كلاًّ منهما حقًا ثابتًا للإنسان ليس لأحد أن يستلبه أو يصادره منه وأنه لا إكراه في الدين، وأنّ المسلمين في مصر لن يزيدهم كثيرًا إسلام سيدة أو سيد من أخواننا وأخواتنا الأقباط، ولن ينقص النصارى كثيرًا مغادرة واحد أو آخر إلى دين آخر أو إلى كنيسة أخرى، وأنّ الأمر أولا وأخيرًا داخلا في إطار الحريّة الشخصيّة، ولا إكراه في الدين (أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُون) (هود:28)، وقال لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلّم: (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِين) (يونس:99) فقضيّة الإيمان والكفر والتدين والتعبد هِيَ من صميم الحقوق الشخصيّة. وبدلاً أن يدخل المسلمون والأقباط عند انتقال أي مواطن من دينه إلى دينٍ آخر في صراعات ومشاكل تهدّد الوحدة الوطنيّة، فإنّ من الممكن يكون هناك توافق بين الكنيسة والأزهر على حرية اختيار الدين، وأن يكون للمسلم أو المسلمة الحق في أن يغيّر دينه إذا وجد في نفسه مَا يحول بينه وبين الاستمرار في دينه، وذهب إلى أهل العلم وناقشهم وأخذ وأعطى معهم ولم يقتنع، فليذهب إلى الدين الَّذِي اختاره.

لقد تحوّل الآلاف من أبناء المسلمين إلى الماركسيّة اللينينيّة، وهي ترى أنّ الدين أفيون الشعوب، أي دين، ولم تقم قيامة المسلمين ولا النصارى ولم يعلنوا الحرب على روسيا ولا على الأحزاب الشيوعيّة. كما تحوّل آلاف من أبناء المسلمين إلى العقيدة البعثيّة، وحكم البعثيّون عاصمتي الأمويّين والعباسيّين عقودًا طويلة، وقاد ميشيل عفلق آلاف الشباب المسلمين للدخول في العقيدة البعثيّة وأحدث تغيّرات جذريّة في معتقداتهم ولم يثر الماضويّون ولا غيرهم؛ بل لم يحتجّوا، وأيد بعضهم البقاء تحت سلطانات تتبنى تلك المعتقدات واعتبروا الخروج عليها ممنوعًا وخروجًا على أئمة حق، وليس بينهم وبين الحق نسب ولا صهر، ولم تحدث احتجاجات من المسلمين أو غيرهم، والحزب يؤمن بالماركسيّة اللينينية ويقول شاعر حزب البعث:

آمنت بالبعث ربًّا لا شريك له وبالعروبة دينًا مَا له ثان

ولم يحمل هؤلاء الماضويّون سيوفهم الخشبيّة لمحاربة هؤلاء، ولم ينادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور كما يفعلون في قضايا الأقباط والمسلمين.

أظنّ أنّ المصريّين اليوم وبعد ثورة 25 يناير 2011 في حاجة إلى الوعي بمقاصد وغايات «صلح الحديبية» الَّذِي أبرمه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- وفهم بنوده ودلالاته ومغازيه وأن يسترجعوا حكمه ودروسه، وأن يوقفوا هؤلاء الباحثين عن أمجاد ومعارك ومغازي وأن يعزلوهم عن مراكز التأثير في الرأي العام.

إنّنا نعلم أنّ الكنيسة مَا تزال تحتفظ ببعض بنود قانونيّة تتبناها سابقًا روما في الدولة الرومانيّة، كما تتبناها أثينا في مرحلة ما، بما في ذلك مراحل مَا قبل المسيحيّة، وفي هذه البنود أو المواد منع الردّة وتجريم المرتد وإيجاب قتله، وقد كان الوضع في معظم مناطق العالم يتبنى أفكار قتل المرتد، ورحم الله تعالى الناس بالإسلام الَّذِي جاء ليعلن مبدأ إسلاميًّا قرآنيًّا (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (البقرة:256)، فجعل القرآن الكريم قضيّة الردّة والعقوبة عليها _إن تجرد من أيّ فعل آخر كالخيانة العظمى أو التخريب أو إثارة الفتن أو الاعتداء على مقدسات الآخرين_ أمرًا بين الإنسان وربه، فلا عقوبة في الدنيا على مَن رأى في نفسه حاجة إلى الانتقال من دين كان عليه إلى دين آخر، وحسابه أولا وأخيرًا على الله –سبحانه وتعالى- لكن الردّة حين لا تقتصر على تغيير الإيمان بالقلب وتتجاوز ذلك إلى الاعتداء على حقوق الجماعة ووحدتها وخيانة تلك الجماعة وتدمير وحدتها، فللجماعة آنذاك أن تدافع عن نفسها ووحدتها، و لا بد لها من استعمال بعض

المواقف القانونيّة والعقوبات تجاه ذلك الَّذِي غيّر دينه وخان الجماعة وأحدث تخريبًا في وحدتها ومقدّراتها واعتدى على حقوق الآخرين، فللجماعة أن تحمي نفسها بما تراه مناسبًا.

نحن لا نريد أن نتدخل أو نقدم مقترحات لكنيسة ولا لمسجد في هذه الأمور، لكنّنا نطالب الفريقين أن يتقيدوا بما أنزل الله تعالى؛ وقد قال جلّ شأنه: (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون) (المائدة:47)، وليحكم المسلمون بما أنزل الله تعالى: (فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم) (المائدة:48)، وإذا استطاع المسلمون والنصارى أن يرجعوا إلى حقائق القرآن المجيد وحقائق التوارة والإنجيل، لا إلى مَا أضيف من شروح وتفاسير، فسيمكنهم الالتفاف على كلمة سواء في هذا الموضوع، فمَن خرج عن النصرانيّة أو خرجت لأيّ سبب كان، فليأخذ حريته كاملة في ذلك، ولتحمِ الكنيسة له هذه الحريّة ولا تهدر دمه ولا تعتبر أنّ الدين كلّه قد صار موضع تهديد لمجرد تحوّل هذه البنت أو ذلك الشاب عن دينه. كما أنّ الإسلام ليس خطرًا على المسيحيّة ، فالقرآن الكريم مصدّقٌ لما بين يديه من الإنجيل، ومهيمن عليه، وهو يؤمن بالمسيح نبيًّا ورسولا وكلمة من الله وروحًا منه، ويؤمن بطهارة السيدة العذراء، وأنّ الله تعالى جعلها وابنها آية من الآيات، فانتقال المسيحيّ إلى الإسلام لن يؤدّي إلى أكثر من إدخال بعض التعديلات المهمة على بعض رؤيته الدينيّة، وانتقال المسلم إذا تغيّر موقفه لن يهدم الأمّة المسلمة، ولن يدمّر الإسلام كما ذكرنا، والخاسر هُوَ في الدنيا والآخرة، وليس لنا أن نجبره أو نكرهه على البقاء على مَا كان عليه.

أحداث ماسبيرو والأقنومة الرابعة

بدايةً أود أن أعزي كل مصريّ ومصريَّة بالأحداث الفاجعة التي وقعت مساء الأحد تسعة أكتوبر. أعزيهم لفقدان من فقدوا ولأجواء الحزن والأسف والحيرة والخوف والارتباك التي أثارتها هذه الأحداث ونتائجها. وقد كنت منذ أن سقط العراق أرى أنّ أمن إسرائيل الذي ربَّعت أمريكا فيه الأقانيم الثلاث فصارت أربعًا: "أب، ابن، روح القدس، أمن إسرائيل"، فمنذ ذلك التاريخ والمنطقة العربيَّة ـكلّهاـ تمر بظروف في غاية الحرج لا تزيدها التحليلات السياسيّة الصادرة عن مراكز البحوث الغربيَّة والمراكز التي تدور في فلكها في العالم العربيّ والإسلاميّ إلا غموضًا وخبالًا وحيرة وارتباكًا.

كنت أعلم من دراساتي للتاريخ الإسرائيليّ وللتاريخ العربيّ، وتتبعي لمسيرة الأمتين العربيَّة المسلمة واليهوديَّة الصهيونيَّة أنَّ أي حدث حصل أو يحصل في المنطقة منذ أن تأسست المؤسسة الصهيونيَّة في أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم ينبغي أن تؤخذ فيه إسرائيل وأمنها ومصالحها في نظر الاعتبار؛ لأنَّ للعلاقة بين الأمتين والتاريخين تأثيرٌ لا شك فيه في كل حدث في المنطقة؛ فينبغي على الباحث ألاّ يهمل شيئـــًا من مقتضيات هذه العلاقة عند الدراسة والتحليل. ونعود بالذاكرة إلى حرب الخليج الثانية_أو ما عُرف بعاصفة الصحراء_ حين عقد مؤتمر في واشنطن للتخطيط للحرب وحشد ثلاثين دولة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لحرب "صدام". وأمريكا تعلم من هو "صدام" وما حقيقة جيشه الذي نفخته وضخَّمته إعلاميًّـــًا حتى جعلته يصدِّق أنَّ جيشه يمثل رابع قوة كبرى في العالم، مع علمنا جميعًا بأنَّ الحقائق على الأرض تقول غير ذلك؛ لكنّ أمريكا العظمى ومعها إسرائيل تحاول أن تنفخ كيس الملاكمة قبل أن تنزل إلى حلبة التدُّرب فيه، وصدام وقواته بالنسبة لهم لم يكونوا أكثر من كيس الملاكمة الذي يرغبون اللّعب به والتدرُّب بلكمه وضربه على ما ينوون فعله أو يعدون أنفسهم لفعله حقيقة بعد ذلك. وحين دخلت قوات التحالف الكويت وقامت الحرب، سحقت الدبابات الأمريكيَّة تحت سنابكها خمسين ألف جندي عراقيّ كانوا في خنادق ترابيَّة تافهة ساذجة لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تحمي من الرياح، فضلًا عن أن تحمي من تلك الترسانة الأمريكيَّة المجهزة بأحدث الأسلحة. وبعد أن ضرب السبع الأمريكيّ ضربته وكاد يقضي على الجيش العرمرم الذي جيَّشه صدَّام، وجعل منه الإعلام الغربيّ والإسرائيليّ رابع قوة في

العالم، أطلق الجيش الأمريكي جنود الدول التسع والعشرين المتحالفة معها في أعقاب فلول الجيش المنهزم، الذي لم يجد بعض جنوده المساكين رايات بيضاء يعلن بها استسلامه سوى بعض الملابس الداخليَّة البيضاء التي حملوها كما هي، وأخذوا يلوحون بها للمنتصرين وأعوانهم للإعلان عن استسلامهم. ثم وقعت حادثة تقبيل جندي عراقيّ تافه لحذاء جنديّ أمريكيّ كان يربت على رأسه الذليل المنكب على حذائه قائلًا (you are ok) (it is ok). إنَّ مجيء صدام نفسه واستبداده بالسلطة لم يكن سوى مرحلة من مراحل الطريق الطويل لإيصال العراقيّين إلى مستنقع الذل الذي أُغرقوا فيه، ومن ورائهم العرب والمسلمون؛ ولذلك فإنّ مسلسل الإذلال لم يتوقف بل استمر، وأعطي "صدام" -صاحب المسئوليَّة الأولى والأخيرة عما حدث- فرصة البقاء في السلطة بعد ذلك ما يقرب من ثلاثة عشر عامًا؛ لينتهي المخطط الأول بتركيع العراق وتمزيقه وتدمير كل مقومات الدولة والوطن والشعب فيه وإعادته كما قال "بوش الأب": إلى القرن الثامن عشر، مجرد قبائل ممزقة تسكن في أرياف أو في قرى أو مدن خالية من كل الوسائل الحديثة، لا ترشحها لأي لقب يزيد عن كلمة قرية بدون ماء ولا كهرباء ولا مجاري للصرف الصحي، بيئة موبوءة بشتى الأمراض بحيث أصبحت الإصابة بالسرطان وما إليه من أمراض خطيرة من الأمور الشائعة التي تفترس الملايين من أبناء العراق صغارًا وكبارًا؛ ولذلك فحين دخل الجيش الأمريكيّ بغداد واختبأ "صدام" في الحفرة الشهيرة إلى أن ألقي القبض عليه كان أول وأهم المسؤولين الأمريكان الذين دخلوا العراق المفتوح المدمَّر السيد "بول ولفوتز" نائب السيد "رامسفيلد" وزير الدفاع. وكان أول ما فعله "بول ولفوتز" بعد دخول بغداد القيام بصلاة الشكر اليهوديَّة وهو يرتدي اليامَكَة، ويعتمر الكوفيَّة الإسرائيليَّة المعروفة، وقبل أن يستريح في قصر "صدام" الذي أُعد لإقامته، طلب أن يؤخذ إلى بابل. وقد ذكر شهود العيان أنَّه حين وصل أرض بابل ووقف عليها أجهش ببكاء الفرح، ولعله حين وقف قرأ: ما ورد في المزمور رقم (37):

"على أنهار بابل هناك جلسنا

بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون

على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا

هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة

ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين:

رنمو لنا من ترنيمات صهيون

كيف ترنم ترنيمة الرب في أرض غريبة

إن نسيتك يا أورشليم لتنسني يميني

ليلتصق لساني بحلقي إن لم أذكرك

إن لم افضل أورشليم على أعظم أفراحي

يا بنت بابل: طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة"

كما جاء في التلمود، إن الإله يهوه ندم على أربعة أمور خلقها وهي:"الأول: السبي البابلي، فجاء على لسانه: "تبا لي لأنَّي صرّحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل، ونهب أولادي( ). الثاني: الكلدانيون. الثالث: العرب، ذرية إسماعيل. الرابع: نزعة الشر. وفي الإصحاح التاسع والعشرون من سفر حزقيال: "نبوءة بخراب أرض مصر" في رقم ثمانية: قال السيد الرب: ها أنا ذا أجلب عليك سيفا وأستأصل منك الإنسان والحيوان وتكون أرض مصر مقفرة وخربة فيعلمون أنّي أنا الرب ... وأجعل أرض مصر خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان إلى تخم كوش لا تمر فيها رجل إنسان ولا تمر فيها رجل بهيمة ... وأشتت المصريين بين الأمم وأبددهم في الأراضي... وأقللهم لكيلا يتسلطوا على الأمم". وفي 18 من الإصحاح نفسه يقول: "قال السيد الرب: "ها أنذا أبذل أرض مصر لنبوخذ نصَّر ملك بابل فيأخذ ثروتها ويغنم غنيمتها، وينهب نهبها فتكون أجرة لجيشه". وفي الإصحاح الثلاثين رقم 6: "ويسقط عاضدو مصر وتنحط كبرياء عزتها من مجدل إلى أسوان يسقطون فيها بالسيف، فتقفر في وسط الأراضي المقفرة وتكون مدنها في وسط المدن الخربة فيعلمون أنّي أنا الرب عند إبرام نارا في مصر ويكسر جميع أعوانها". ولم يلتفت أي معلِّق أو محلّل سياسيّ أو استراتيجيّ أو ... أو ... إلى ذلك ولم يعطنا صورة عما حدث وكيف حدث.

إنَّ بني إسرائيل الذين استولت على مقدراتهم اليوم الحركة الصهيونيَّة المتطرفة وأخذت تقودهم نحو تحقيق أهدافها كما رسمتها لا تستطيع أن تطمئن على مستقبل إسرائيل وأمنها وهناك العراق ومصر. لقد فرغت القوى الصهيونيَّة والصهيونيَّة المسيحيَّة من العراق وانتهت منه على يد واحد من أبرز أعضائها وهو "بول ولفوتز" الذي استطاع أن يورط الحكومة الأمريكيَّة –كلها- مستغلًا سذاجة بوش وإدارته في تدمير العراق وإنهاء وجوده، وإعادة ضخ النفط العراقي إلى إسرائيل مجانًا، أو بأسعار تنافس أسعار الغاز المصريّ في رخصها. وحين انتهوا من العراق التفتوا إلى

مصر، ومصر لا تقل عن بابل في نظر الحركة الصهيونيَّة والمتطرفين اليهود. فمصر بلد الفراعنة الذين اضطهدوهم وبنوا أهراماتهم على جثث بعضهم، وأخرجوهم من مصر فخرجوا بقيادة نبي الله موسى وأخيه هارون خائفين من مترقبين. ولكنَّ الله –تبارك وتعالى- أراد أن يتم أمره ويبلغ بهم ما قدره فنجاهم بمعجزة وأخرجهم من أرض مصر سالمين، وأغرق فرعون وجنوده في اليم، وجعله وهو يعاني الموت وسكراته يقول: (آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (يونس:90)، ورد الباري –جل شأنه عليه: (آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) (يونس:91-92)، بالرغم من ذلك فإنَّ الجيل المسؤول عن اضطهاد بني إسرائيل قد تم إغراقه في تلك المرحلة المبكرة وانتقم الله لهم منه، لكنَّ اللعنة الصهيونيَّة لا يكفيها أبدًا أي انتقام إذا لم يتم بأيديها الدمويَّة الملوثة.

مصر كنانة الله في أرضه، شعبها من أطيب الشعوب وأكثرها بساطة وطيبةً واستعدادًا لبذل الجهد والقيام بأشق الأعمال، والصبر عليها. وكل هذه صفات تؤهل هذا الشعب ، وللنهوض بعد الكبوة، وللبناء بعد الهدم، فكيف تستطيع الحركة الصهيونيَّة أن تنام رغدا وتطمئن على أمن الدولة دولة إسرائيل وهي ترى أنَّ الدولة التي حلمت بها عبر قرون عديدة تعيش إلى جوارها، مصر بشعبها هذا، الذي يحمل كل تلك الصفات الإيجابيَّة .لا أظن أن جفنا صهيونيـًـا يمكن أن يغمض، ومصر تعيش بجوار إسرائيل قويَّة موحدة، شعبها متجانس متديّن كله، مسلموه ومسيحيّوه، لا تفرق بينهم طوائف. ومسيحيّوه ينتمون إلى كنيسة شرقيّة لا يستطيع الغرب أن يؤثّر عليها كثيرا، أو يستدرجها إلى سياسات يضمن بها أمن الدولة الصهيونيَّة التي بلغت في رجعيّتها وجمودها وتحجرها شأوًا لم تبلغة دولة في عالم اليوم أبدا، وهي المناداة بأن تكون الدولة يهوديّة فقط لا يساكن اليهود فيها أي إنسان من أي دين آخر. وبعد هذا الإعلان تجد مصر بجوارها تسعى لتوحيد الفلسطينين ويأبى البابا شنودة بابا الكنيسة الأرثوذكسية القبطيَّة أن يسمح لأحد من الأقباط بزيارة بيت المقدس وهو تحت الاحتلال الصهيونيّ اليهوديّ. إذن فلتتمزق مصر. وإذا أعيد العراق إلى القرن الثامن عشر فلتعد مصر إلى ما قبل ذلك إن أمكن، ويجب تفكيك شعبها وإدخال كل أنواع الفِرق والطوائف والأحزاب السياسيَّة بحجج مختلفة لإضعاف وحدة هذا الشعب؛ ولذلك بدؤوا بالكنيسة الأرثوذكسية فشجعوا كنائس أخرى لتعمر مشاهدها، ومشاهد دعوة الأقباط النصارى للانضمام إليها، وكل أبناء مصر يعرفون الكنائس الجديدة التي حاولت أن توجد داخل النصارى من أقباط مصر تمزّقـًا وتفتّتـًا. كذلك جرت المحاولات وما تزال تجري لإيجاد فرق وطوائف

إسلاميّة جديدة في صفوف المسلمين المصريّين الموحدة إضافة إلى إدخال تيّارات فكريّة لم يألفها المصريّون، وفيها من التوجهات ما لا يتناسب وطبائع هذا الشعب. وبعد استكمال عمليّات الفحص وجس النبض وتحقيق بعض النجاح في داخل الكتلتين التقليديّتين لشعب مصر: المسلمين والنصارى عن طريق إيجاد كنائس جديدة تنافس الكنيسة القبطيّة على تدين وولاء وحب أقباط مصر من جهة، وعن طريق إضعاف الأزهر، وجميع المرجعيّات الدينية المسلمة، وفتح الأبواب لتيارات جديدة لم تكن معروفة من قبل من جهة ثانية. والآن، جاء وقت اختبار إمكان التصعيد وزرع الفتنة وتفريق هذه الكتلة البشريَّة المتماسكة؛ لضمان ح حماية الأيقونة الرابعة "أمن إسرائيل". وقد جاءت الظروف التي سمحت بأن تبقى حدود مصر مفتوحة لتهريب الأسلحة إلى داخلها، فالحدود الليبيَّة مفتوحة، والأنفاق التي كانت تستعمل من قبل بعض الناس بين غزة وسيناء جاء وقت استعمالها بطريقة أخرى وإيصال الأسلحة بأرخص الأثمان إلى أيدي المصريين. وفي ظل أجواء الخوف والحيرة والترقب والتدهور الاقتصادي والجوع والمرض والمستقبل المجهول، تصبح حساسية الناس مفرطة واستعدادهم للغضب والثورة شديد، وهذا الوضع يعطي أفضل الأجواء للقيام بعمليات الاختبار لتحديد ساعة صفر لكل مرحلة من المراحل القادمة؛ لأنَّ الهدف الأخير هو جعل مصر كالعراق مع اختلاف طبيعة الشعبين وظروفهما، وخصائص التكوين، وأخذ ذلك كله بنظر الاعتبار لدى القائمين على التخطيط للمؤامرة. والمحصلة النهائية هي المحافظة على الأيقونة الرابعة (أمن إسرائيل).

إنّ استهداف الجيش المصري منذ سنة (1948) بالأسلحة الفاسدة ثم العدوان الثلاثي (56) ثم حرب اليمن، ثم حرب الأيام الستة في يونية (67) وحرب أكتوبر (73) ليس بعيدًا عن (الأيقونة الرابعة)، وعلى الرغم من هذا الاستهداف المتكررفإنّ هذا الجيش قد أثبت أنَّه خير الأجناد في المنطقة. فعلى الرغم من تقليص صناعاته وإيقاف التصنيع الحربيّ وتقليص أعداده وتقييد أماكن تحركه ووجوده، فإنّ ذلك لم يفت في عضده، وبقي رغم كل تلك الحروب قويا قادرا على حماية شعب مصر. وشعر الجميع أنَّ لجيش مصر خطة سلمية لتحقيق التنمية وإعادة الحياة والخبرة والنشاط للعامل المصري، وجعله منافسا في الخليج وفي المنطقة لكل أنواع العمالة، وأنَّ هناك أربع عشرة مليون فرصة عمل تنتظر العامل الفنّي المصريّ –إذا طوّر خبراته- في عمقه الاستراتيجي ومنطقته العربيَّة والخليجيَّة، وأنَّ ذلك سوف يقلب كافة الموازنات.

إنّ أحداث الأمس في ماسبيرو فيها معاني رمزية كثيرة جدا. المعنى الأول ولعله الأهم هو ضرب رمزيَّة الجيش المصريّ في شهر أكتوبر الذي احتفل فيه الجيش المصريّ بانتصاره على إسرائيل فيه في السادس منه. ، المعنى الثاني: الانتقام لما اعتبرته إسرائيل تقصيرا من الجيش المصريّ في حماية أنابيب الغاز التي تضخ في الشرايين الإسرائيلية. المعنى الثالث: فيما حدث انتقام لأحداث السفارة الإسرائيليّة التي لم يخف على قادة الصهيونيَّة أنَّ الجنديّ المصريّ الذي كان يحرس سفارة إسرائيل وموظفيها لم يكن في عواطفه ومشاعره وازدرائه للاتجاهات الصهيونيَّة البغيضة، يختلف عن ذلك المتظاهر الذي يحيط بالسفارة ويهددها. فجاء الرد عاجلا بأكثر مما نتصور وبأسرع ما يمكن. وسرعة الرد وعنفه من الأمور التي تؤشر بوضوح إلى الذين هم وراء التصادمات التي حدثت. المعنى الرابع: فشل السيد وزير الدفاع الأمريكي بأن يعود بالجاسوس المزدوج الجنسية الأمريكي الإسرائيلي إلى ذويه دون قيد أو شرط، فوجد القادة المصريين يصرون على ضرورة إعادة الأسرى المصريين، وتحويل الأمر إلى صفقة بين طرفين متساويين، لا إلى آمر ومأمور.

فما العمل الآن لعدم تكرار مثل هذه الأحداث المؤسفة؟

1- كشف جميع الملابسات بدون أيّة مواربة، وفضح جميع من وراءها بأسمائهم وصفاتهم وفئاتهم؛ لأنَّ أجواء الخوف والترقب والكراهية والفتنة لا يمكن أن تزول دون معرفة الجناة الحقيقيّين ليتجه غضب الشعب إليهم، سواء أكان ذلك الشعب من المسلمين، أو من النصارى وهو أمر ضروريٌّ جدًا جدًا جدًا.

2- العمل على معرفة جميع المنابع التي تستغلها الجهات العدوة لمصر وتجفيفها بأسرع ما يمكن والكشف عنها. ولعل من أهم هذه المنابع بعض الثقافات أو المواقف الثقافيَّة التي أوجدتها دراسات منحرفة تنسب إلى حقول الدراسات الدينيَّة التي شحن بعضها بثقافة مفادها بأنَّني وأبناء ديني على حق وأنَّ غيرنا على باطل، أو في أقل الأحوال بأنَّنا نمتلك الحقيقة المطلقة، وغيرنا يمتلك وهما وخرسا وظنّـــًا وفي مستويات أخرى قد يقال: بأنَّنا نمتلك الصواب وغيرنا على الخطأ. فهذه الأمور حينما توضع في سياقاتها وتدرس بشكل ملائم مقرونة بنزعة التسامح وذلك على سبيل المثال يمكنني أن أضع لوحة أجعل لها وجهين: الوجه الأول أضع عليه شيئا ما من معتقداتي وأقول: إنَّني أعتقد بكذا وأضع في الجانب الثاني معتقدات الطرف الآخر في المسألة ذاتها، وأبين شيئا عن أسباب اختلاف النظرة يقنع بأنَّ هذا الاختلاف هو أمر طبيعيٌّ لا يستغرب ولا تثريب

على أهله أو أصحابه، واعتباري له خطأ واعتباره أنَّني مخطي في موقفي لا يعني أنَّنا لا ينبغي أن نتعاون، وأن نتكاتف ونتسامح وأن نتعايش في وطن مشترك، ونمارس حياة مشتركة دون صراع، والأمثلة التاريخية التي تعزز مثل هذه التوجهات كثيرة جدًا.

3- الحيلولة بين أجهزة الدولة والنظام والحكم وممارسة أيّ نوع من الظلم أو التفريق بين المواطنين فليس هناك شيء يهيئ أمّة مّا أو شعبا مّا للتفكك والصراع والاحتراب الداخليّ مثل فقدان العدالة وشعور الإنسان بأنَّ أخاه الآخر يضطهده ويمنعه من الوصول إلى حقه فتحقيق العدالة يعالج كثيرًا من الأمراض باعتبار العدالة أعلى القيم القرآنيَّة والإسلاميَّة وبشكل مطلق لا علاقة له بدين الإنسان أو مذهبه أو طائفته أو قبيلته. فالعدل يعد علاجا شافيا لكثير من الاستعدادات المنحرفة التي يمكن أن تؤدي إلى افتراق وتنازع واختلاف.

4- إعادة النظر في جميع برامج التعليم من الابتدائيّ حتى الجامعيّ وجميع برامج الإعلام والتثقيف، وبنائها على فقه مسؤوليّة الكلمة والفكرة وعدم السماح بالانحراف، والتفرقة، وبناء ثقافة التسامح.

5- تسخير الجامعات ودور العلم والصحافة والإعلام لعقد ندوات مشتركة عديدة في كل يوم لإيجاد الوعي الكفيل بتحصين أبناء الشعب ضد مثيري الفتن وإعدادهم ليكونوا على وعي بأهداف خصومهم وطرائقهم ومناهجهم في إثارة الفتن وإيجاد أجواء النزاع والاحتراب.

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يحمي مصر وشعبها كله وأن يصونها ويصونه ويحفظ البلاد والعباد من كل سوء.

الاستحمار ونظرية المؤامرة

الاستحمار أن يسعى أحد لجعل إنسان حمارًا . والإنسان المستحمر إذا رأى الكتاب أو حمله يكون كمثل الحمار يحمل أسفارا، وإذا رأى كومة من الحكمة تضم مئات الحِكم ورأى بجوارها قبضة برسيم انصرف مباشرة إلى البرسيم، ولو أجريت معه حوارًا وسألته: "لمَ تخليت عن الحكمة واخترت البرسيم ؟" لسخر من ذلك السؤال؛ إذ لا يستطيع الحمار أن يرى شيئـًا يعدل قبضة برسيم يأكلها على جوع. والاستحمار قابليَّة واستعداد، وللمصريين كلمة طريفة يقول أحدهم إذا ما حاول أحد استغفاله: "إنت بتستكردني!" -ومعذرة للإخوة الأكراد- فكأنَّ المصري حين يقول ذلك يرى أنَّ أخاه الكردي تفوته أمور كثيرة لا تتقبلها فهلوة المصري.

والشعوب اليوم _وفي كثير من فترات التاريخ_ تمر بحالات استحمار، بعضها حالات يقوم بها حكّامها، وحالات أخرى يقوم بها خصومها وأعداؤها. والأجهزة الإعلاميَّة الحديثة يغلب عليها -خاصّة في الإعلام الموجه من قبل الخصوم- أن تكون من أهم أدوات الاستحمار، فهي تشحن الناس إن شاءت، وتفرغهم إن أرادت، وتشعرهم بالتخمة حتى التجشؤ إذا قررت ذلك، وتشعرهم بالجوع حتى السقوط إذا اقتنعت بأنَّ لها في ذلك مصلحة؛ ولذلك جعل الله السمع والبصر والفؤاد مسؤوليَّة كبرى فقال الله –جل شأنه: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (الإسراء:36). فالإنسان مطالب أن يميز بين من يريدون استحماره واستعماره،ومن يريدون توجيهه وتعليمه والرقي به؛ ولذلك كان الاجتهاد فريضة على كل مسلم ومسلمة. فإذا لم تكن قادرًا على الاجتهاد في المسائل التي تعرض لك في الحياة فلا أقل من أن تبذل جهدًا في اختيار ما تسمع، ومن تسمع منهم، ومن لا تسمع لهم، وذلك أضعف الإيمان. وهذا الابتلاء الذي ابتلى الله به أبناء عصرنا، حيث يستطيع الإنسان وهو جالس على أريكته في مواجهة التلفاز أن يتنقل بين مئات المحطات التي تعج بكل شيء،وكلها تستهدف أسماعنا وأبصارنا وأفئدتنا، وبعضها يريد استحمارنا، وبعضها يريد استعمارنا، وبعضها يريد ابتزازنا، وبعضها وبعضها. ولا شك أنَّ بعضًا منها وهو الأقل يريد تعليمنا أو الرقي بوعينا وقوى إدراكنا، بقي علينا أن نجتهد فيما نسمع وفيما ندع؛ لكي نستمع القول فنتبع أحسنه.

هذا عن معنى الاستحمار، أمّا نظريَّة المؤامرة، فتتألف من كلمتين: كلمة نظريَّة، والمراد بها كما جاء في المعجم الفلسفي معنيان: الأول: بوجه عام، ما يوضح الأشياء والظواهر توضيحًا لا يعول على الواقع.الثاني: فرض علمي يربط عدة قوانين بعضها ببعض، ويردها إلى مبدأ واحد يمكن أن نستنبط منه حتما أحكاما وقواعد مثل نظرية الذرة. وأصل الائتمار والتآمر تشاور بين أطراف لكي يبرموا أمرًا وينفذوه، وقد شاع التآمر والمؤامرة في الشر أو السوء الذي يريد طرفٌ إنزاله بطرف آخر (إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) (القصص:20) أي يتشاورون بطريقة للتخلص منك وقتلك، وقوله -جل شأنه: (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) (الكهف:71) أي منكرًا. و قد تآمرت قريش على رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم- لقتله بطريقة لاتجعل من قبيلة واحدة بمفردها تتحمل مسؤولية قتله –صلوات الله وسلامه عليه_ وفي عصرنا هذا شاع استعمال كلمة مؤامرة في التشاور للتخلص من شخصيّات عامّة أو للانقلاب وللثورة على نظم أو ما شاكل ذلك. وكثيرًا ما يتحدث الإعلاميّون عن كلمة مؤامرة، كأن يقال: "تعرض فلان لمؤامرة اغتيال، أو تعرض نظام البلد الفلاني لمؤامرة انقلاب" أو ما شاكل ذلك. وإذا أضيفت النظريَّة إلى المؤامرة في تعابيرنا الشائعة أريد بها تلك الآراء والتحليلات وتفسيرات الأحداث التي تقوم على افتراض وجود مؤامرة.

ونستطيع القول: إنه حتى ثمانينات القرن الماضي ومعظم الأحداث تستبد في تفسيرها "نظريَّة المؤامرة"، منذ أن قال المهاتما غاندي كلمته الشهيرة: "لو اقتتلت سمكتان في البحر فاعلموا أن بريطانيا ودسائسها وراء ذلك". وقد دخلت المؤامرة المعترك السياسي واحتلت مواقع هامة فيه، ومنذ ثمانينات القرن الماضي وطرح فكرة الشرق الأوسط الكبير لإدراج إسرائيل بشكل طبيعي ضمن دول هذا الشرق الأوسط الذي أريد تجريده من هُويَّته العربيَّة الإسلاميَّة وتعريفه بهذه الصفة الجغرافيَّة الساذجة، والناس ينقسمون إلى فريقين: فريق يرى أنَّ نظريَّة المؤامرة مجرد نوع من الوسواس لا حقيقة لها ولا وجود. وفريق يرى أنَّ المؤامرة كانت وما تزال فاعلة ومؤثرة في إيجاد كثير من الأحداث والوقائع التي تمر بها أمم العالمين الثاني والثالث بحسب التصنيفات الاقتصاديَّة الغربيَّة.

والمؤامرة لا تحدث من فراغ ولا تعمل في فراغ بل هي تحرك يعتمد على وجود ثغرات في موقع ما، بحيث يجد المتآمرون أو المؤتمرون ثغرات وفرصًا لتمرير مؤامراتهم؛ فيستغلونها. وفي المؤامرات الدقيقة التي تستخدمها أو تسخرها دول كبرى متقدمة ضد كيانات صغرى، فإنّها لا تنفذ

إلا بعد أن تهيأ لها فرص النجاح اعتمادًا على ثغرات في الداخل. فحينما يقال: إنَّ ضياع فلسطين ووقوعها بأيدي الصهاينة كان مؤامرة من بريطانيا وبعض أعوانها في المنطقة والحركة الصهيونيَّة العالميَّة وأطراف أخرى، فذلك لا يعني أنَّ الفلسطينيين والعرب والمسلمين كانوا في أحسن حال، والمؤامرة وحدها هي التي أدت إلى ضياع فلسطين. هذا التصور خطأ، فالمؤامرة تستغل كل عوامل الضعف، وسائر المشاكل السياسيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة والتعليميَّة والاقتصاديَّة مع الزمان والمكان؛ لتختار لحظة تاريخيَّة معينة لإطلاق المؤامرة لتحقيق أهدافها؛ ولذلك فلا مجال لإنكار دور المؤامرة في أهم الأحداث التي شهدتها بلادنا عبر القرنيين الماضيين، كما لا مجال لتحميل المؤامرة مسؤوليَّة كل شيء؛ لأنَّها مدخل تفسيري تتضافر معه عدة مداخل عندما نريد تفسير حدثٍ ما تفسيرًا ملائما. وقد يحلو لبعض المتابعين أن يقلل من دور المؤامرة أو ينفيه تمامًا، ويقول: إنها مجرد خيال أو وهم يجسمه بعض الناس لإحداث هزيمة معنويَّة، ولتضخيم قدرات الخارج والأعداء، والتقليل من قدرات وطاقات الأمَّة؛ فيندفع بالتالي إلى نفي المؤامرة نفيًا مطلقًا. وهذا خطأ فادح لا ينبغي السقوط فيه، يقابل ذلك خطأ من يبرئ الساحة الداخليَّة من سائر العيوب، ويلقي بالمسؤوليَّة كاملة على الخارج، ثم لا يقوم بدور إيجابي في إحباط تلك المحاولات، وإيقاف تلك المؤامرات عند حدها. بل يستخذي ويستكين، ويقول لله -جل شأنه: "يارب قاتل عني أعدائي وأحبط بنفسك مؤامراتهم فإنَّني أقل من أن أقوم بشيء من ذلك" وهذا خطأ فادح كذلك. ولكنَّ المحلل والمعلق الملتزم بقضايا الأمَّة مسؤول عن الإحاطة بجميع العوامل المؤثرة في الحدث وتوعية الأمَّة بها، والارتقاء بقدراتها ووعيها وطاقاتها؛ لمساعدتها على سد الثغرات الداخليَّة، ومنع المؤامرات من استغلال الداخل وتوظيف ثغراته وعيوبه، وكشف تلك المؤامرات لأبناء الأمَّة؛ ليأخذوا خذرهم وأسلحتهم، لئلا يميل المتآمرون عليهم ميلة واحدة في حالة غفلة منهم.

إنَّ إسرائيل وأمريكا وجميع أعداء الأمَّة أعجز من أن ينالوا منها نيلًا لو أنَّها أخلصت لله دينها، وطهرت جبهتها الداخليَّة والتزمت وتمسكت بهدي الكتاب الكريم، وانتصرت لمقاصده العليا الحاكمة من توحيد وتزكية وعمران، وائتلفت قلوبها عليه؛ ولذلك فإنَّ رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم- قد قال وهو ينبه إلى فقه قوله –تعالى: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (الأنعام:65)، قال: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها

فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول الله وما الوهن قال حب الدنيا وكراهية الموت". وكان رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم- إذا قرأ قوله –تعالى-: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ) (الأنعام:65) ارتجف وأخذ يقول بتضرع شديد: "أعوذ بوجهك يارب أعوذ بوجهك يا رب"، وذات مرة توجه إلى ربه بالدعاء لأمته قال: "سألت ربي لأمتي أربعا فأعطاني ثلاثا ومنعني واحدة، سألته أن لا يكفر أمتي جملة فأعطانيها، وسألته أن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها، وسألته أن لا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها" . وفي رواية زيد قوله –صلى الله عليه وآله وسلم- عن رب العزة: "إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد وإني قد أعطيت لأمتك كذا وكذا كما مر ثم قال ولن أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بين أبقارها حتى يكون بعضهم يهلك بعض" وإذا صح ذلك عن سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم- وقد صححه كثيرون فذلك يعني أن الثغرات الداخلية لهذه الأمة هي أخطر بكثير من المؤامرات الخارجية؛ ولذلك فإن هذه الأمة يجب أن تكون موحدة على الدوام، مؤتلفة قلوبها على كتاب الله وهدي رسوله –صلى الله عليه وآله وسلم- لأنه هو الذي ألف بين قلوبها، ولو أنفقت ما في الأرض جميعا فإنها لن تصل إلى حالة التأليف بين القلوب. إذن فهذه الأمَّة أحوج ما تكون إلى مراجعة جبهتها الداخليَّة على ألاّ تغفل عن الخارجية لحظة واحدة، وأن تقيم نوعًا من حالة التوازن في النظر إلى الداخل والخارج، وهذا هو الدرس الذي يمكن أن نأخذه من صلاة الخوف: (وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا) (النساء:102-103).

وحين كنت وما أزال أنبه إلى أخطار الخارج على الداخل، وخطورة إسرائيل والموقع الذي تحتله في العقل والضمير الغربي، وآثار الذاكرة التاريخيَّة الغربيَّة في نظرتها للعرب وللمسلمين، فإنَّني

أريد بذلك أن تعي أمتي حقائق هذا الخارج، وما يمكنه أن يفعله، وتربصه الدوائر بهذه الأمَّة. لا لأنَّ ذلك الخارج على كل شيء قدير -معاذ الله- ولا لأنَّهم أذكى من بقيَّة البشر؛ بل أريد أن ألفت الأنظار إلى وجود هذه الروح العدائيَّة والنزعات التي لا تريد بهذه الأمَّة إلا الشر؛ ليأخذ أبناء أمتي حذرهم وأسلحتهم، فلا ينامون ولا يغفلون. وهل أضاع الأمة، وشتت شملها، وأضعف قوتها، وجعلها نهبًا لأعدائها إلا تلك الغفلة التي سمحت لمشكلاتها الداخليَّة بالتراكم والتفشي والانتشار، وأعطت للخارج الضوء الأخضر للتدخل.

فلولا اضطهاد صدام ونظامه لإخواننا الشيعة والأكراد، ومحاولات الإبادة التي قام بها بعض أعوانه مثل علي حسن المجيد وغيره في استعمال المواد الكيماويَّة؛ لإبادة بعض الأكراد في حلبگة وغيرها، واستعمال عصا البطش التي لا ترحم ضد إخواننا الشيعة فيما عرف بالثورة الشعبانيَّة.

هل كان للأمريكان أن يدخلوا العراق بطلب ومباركة وتعاون من كثير من الأخوة الأكراد والشيعة؟ وهل كان العراق يمكن أن يتمزق إلى هذا الحد؟ هناك مؤامرة ولا شك، ولكنَّ هناك أخطاء داخليَّة قد مهدت للمتآمرين الطريق لتنفيذ مؤامرتهم والوصول إلى ما أرادوا، فالذي نريده وعيًا لدى أمتنا مثل وعي ذلك الشاعر العربي الذي قال:

فما إن طبَّنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرين

فلابد من التوازن والنظرة المتوازنة التي تحسب لكل عامل أو مؤثر أو متغير أو معطى حسابه وتعطيه حجمه الحقيقي دون مبالغة؛ لئلا تضطرب الأمور. ولا شك أنَّ الأحداث التي وقعت في مصر مؤخرًا لها عواملها الخارجيَّة وعواملها الداخليَّة، تمتزج فيها المؤامرة الخارجيَّة بالعوامل الداخليَّة؛ لتحدث تلك النتيجة المأساويَّة. فياليت قومي يعلمون.

تأملات في مصارع الحكام

اغتيال الملك غازي وعائلته

لقد شهدتُ في طفولتي جنازة الملك غازي الأول بن فيصل الأول بن الشريف حسين، الذي خلف أباه على عرش العراق -آنذاك- ملكًا متوّجًا منتخَبًا. كان الشعب العراقي قد شغف به حبًّا، فذلك الشاب غازي كان متعاطفًا مع القضايا القوميّة والوطنيّة بشكل ملحوظ، ولا يُخفي عداءه للإنجليز. وقد استطاع غازي أن يؤسّس دار إذاعة عام 1938م في قصره المُسمّى (قصر الزهور)، ينادي من خلالها العربَ بصوته ليتّحدوا ويواجهوا بريطانيا ومؤامراتها معًا، ويعملوا على تحرير بلدانهم. وقد نالت دعوته للوحدة العربية استجابةفي ذلك الوقت في أوساط الشباب الكويتي العربي وغيره من أبناء الخليج. ولم تلبث بريطانيا أن فطنت لأثر توجه غازي، وخشيت أن يقود تيّارًا قوميًّا وطنيًّا قد يخرجها من المنطقة كلها؛ فدبّرت له حادثة اغتيال بمعاونة أحد خدمه أو حرّاسه الذين كانوا يرافقونه في جولاته بسيارته المكشوفة في بغداد. كان غازي يقود سيارته بسرعة -في إحدى جولاته- وحين قاربت سيارته عمود كهرباء ضُرب الرجل على رأسه من خلف، لترتطم السيارة بعمود الكهرباء، ويموت من ساعته. ثمّ أصدرت الحكومة بيانًا آنذاك بأن الملك الشاب كان يقود سيّارته بسرعة وفقد السيطرة عليها فاصطدم بالعمود وأصيب رأسه ومات على إثر ذلك. لكنّ شهود عيان وبعض الأطباء سرّبوا خبرًا مفاده أن إصابة الملك كانت من الخلف لا من الأمام كما يُفترض لو كان الحادث حادث اصطدام عادي. فُجع الشعب العراقي في ملكه المحبوب؛ فخرج عن بكرة أبيه يندب ويلطم ويولول وينشد قصائد الرثاء. و تمنّى آلاف العراقيّين لو أنَّهم قُتلوا وافتدوا الملك بحياتهم. ولازلت أذكر ما كانت تقوله بعض الندّابات ، وتردده الجماهير خلفها: "أويلي عالوزارة شلون غدّارة....لو ابنه گبير وياخذ بثاره". ولقد رأيت مئات من أبناء الفلوجة وشبابها وشِيبها يضربون صدورهم باللبِن وهم يردّدون ذلك البيت، وفيه اتهام للحكومة بالغدر والتآمر على الملك والمشاركة في اغتياله

ثم رأيت بعد عشرين عامًا من ذلك_ وأنا في عزّ الشباب_ كيف أباد العراقيّون_ الذين بكوا دمًا على غازي_ أسرته كلها. فقُتل الملك فيصل، الملك الشاب، ودفن سرًّا دون جنازة. ثم قُتل الولي لعهده عبد الإله بفعل الملازم عبد الستار العبوسي مع أمه وبقيّة أفراد العائلة. أمّا خال الملك والوصي

على عرشه، فقد قُتل وسحلته الجماهير التي تصدّرها اليساريّون آنذاك إلى أن وصلت بجثّته الممزقة قرب أحد الجسور، فعلّقت الجثة على شرفة فندق من الفنادق القريبة، وبدأت عمليَّة تمثيل يصعب وصفها، ولم يشفع للعائلة المنكوبة لا تاريخها ولا نسبها الشريف الذي كانت تفخر به.

مقتل نوري السعيد

وبعد يومين قُتل نوري السعيد حين كان متخفيًا في منطقة البتاوين. و حين أُخبر عبد الكريم قاسم بخبر قتل نوري السعيد ، أمر العقيد وصفي طاهر -الذي كان مرافقًا لنوري السعيد وحارسه الأمين لعقود- أن يذهب ويأتيه بجثّة نوري؛ ليتأكد بنفسه أنَّ القتيل هو نوري وتزول مخاوفه ويطمئن قلبه؛ فأتى وصفي بالجثة بعد أن مثَّل إطلاق النار عليها بعد أن فارق نوري الحياة بحوالي عشرين دقيقة، ثمّ ألقاها بين يدي سيّده الجديد، وكوفئ وصفي بأن عيّنه عبد الكريم قاسم كبير مرافقيه بعد أن كان كبير مرافقي نوري. وبعد أن اطمأن عبد الكريم قاسم من كون القتيل هو نوري، أمر بدفنه ووُوري الثرى في مقبرة الشيخ معروف. ويُذكر أنّ عبد الكريم هذا كان يفخر بأنَّه أقرب ضبّاط الجيش العراقي إلى قلب نوري السعيد، وأنَّه يدخل عليه دون استئذان في أي وقت يشاء، والذي كان يشك في إمكان نجاح الانقلاب مادام نوري حيًّا.

لكنّ الجماهير العراقيَّة لم يُرضها مصرع نوري السعيد بهذا الشكل؛ فذهبت بقيادة بعض اليساريّين والشيوعيّين إلى المقبرة في عز صيف بغداد الحار، واستخرجت الجثة التي نهشها التفسّخ، و تغيّرت رائحتها، فوضعوا في رجلي نوري الحبال وسحلوه من المقبرة، وطافوا بأشلائه الممزّقة أحياء بغداد. وقد حكى لي أحد قادة الحزب الوطني الديمقراطي أنَّ السَحَلَةَ قد جاءوا بجثة نوري ومرّوا بها أمام بيت كامل الـچادرچـي، وكان من قادة المعارضة آنذاك، يقول الرجل: فقلت لكامل الـچادرچـي زعيم الحزب الوطني الديمقراطي: "أيرضيك هذا يا أستاذ؟"، فقال: "نعم، إنَّها غضبة الجماهير، وللجماهير التعبير عمّا تراه، ولو أنَّ الجماهير أخطأت وسحلتني شخصيًّا لسامحتها، وعذرتها"، يقول الرجل: فسكت وخرجت من بيته وأنا عازم على اعتزال العمل السياسي بعد ذلك
.

وفي 1959/1/5م كان عدد نفوس العراقيّين لا يتجاوز 8 ملايين، خرج منهم مليون وربع المليون يهتفون: "عاش زعيمي عبد الكريمي، الحزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي"، وبين فترة

وأخرى يُقاطع الندّابةُ الثوريون هذا الهتاف بـ: "عاش الزعيم الأوحد والأوحد عبد الكريم قاسم" أو: "عاش الديمقراطي عبد الكريم قاسم".

وفي 10 شباط فبراير 1963م، انقلب عبد السلام عارف على عبد الكريم قاسم ومعه قادة حزب البعث، وتمكّنوا منه وأعدموه في دار الإذاعة العراقيّة، ولقد رأى العراقيّون، بل والعالم كافّة، ذلك الذي ألّهه عامّة العراقيّين لمدة أربع سنوات على الأقل، يمسك به جندي من شعر رأسه ليضع حذاءه العسكريَّ على رأسه. ولا أدري ما يمكن أن يقوله التربويّون وعلماء النّفس عن الآثار التربويَّة والنّفسيَّة التي يرثها أطفال وأبناء شعب كهذا يؤلّه حاكمًا اليوم ويطأ رأسه أو يسحله غدًا، ويقتله بأسوأ ما يكون القتل وبأكثر ما تكون المهانة.

وقد حاول بعض النّاس سرقة جثّة عبد الكريم قاسم، ربما ليُقيموا عليها ضريحًا يطوفون به، فالقوم كما يقول شوقي:

رَفَعَتْكَ كَالصَّنَمِ المؤلّهِ أُمَّةٌ لَمْ تَسْلُ بَعْد عِبَادَةَ الأَصْنَامِ

وطُويت تلك الصفحة، ولم تجد الحكومة البعثيَّة وسيلة لإخفاء جثّة عبد الكريم إلا إلقاء جثّته ليلاً في نهر دجلة بعد ربطها بقضيب من قضبان السكة الحديد، وشهدنا بعد ذلك مقتل عبد السلام عارف في حادث طائرة، ونهاية البكر وصدام حسين، وشهدنا في مصر جنازة جمال عبد الناصر، التي أحاطت بها الملايين الباكية حتى المثوى الأخير، ثم جنازة السادات، وسمعنا عن جنازة نميري في السودان وغيرهم.

مصرع القذافي

واليوم شهد الناس مقتل القذافي بعد اثنين وأربعين عامًا متسلّطًا على شعبه، ولم يتجاوز نصف عام من الحرب الأهليَّة التي صمّم أن يختم بها حكمه وحياته. ووجدنا الاختلافات حول دفن جثته.

أتُدفن في ليبيا أم تُلقى خارج المياه الإقليميَّة الليبيَّة، أو يُشترى له قبر في دولة أفريقيَّة، أو خلاف ذلك. ومن أطرف التعليلات ما سمعناه من معارضيه الذين كانوا يخشون أن يجعل المحبون له من قبره مزارًا يُكرّسون بتعظيمه معارضتهم للنظام الجديد، أو بعض المعارضين الذين يخشون اتخاذ قبره _كما اتخذ قبر أبي رغال سابقًا_ موضعًا للرجم والإهانة. وذكّرني ذلك كله بقول أحد الحنابلة، وهو يحاول التقليل من أهميَّة المعتزلة: "بيننا وبينهم الجنائز"، فقد عرف الحنابلة بأنَّ

جنائزهم يغلب أن يشيعها الكثيرون، لأنهم فيما يرى بعض قادة أهل السنَّة والجماعة، في حين يرى آخرون أنَّهم كانوا يمثلون دور المعارضة للحكام والتعاطف مع جماهير الأمَّة. وأيًّا ماكان الأمر فللجنائز دلالاتها.

أرأيت قارئي العزيز طرافة موضوع (جنائز الحكّام)، وما في جنائز كل منهم من عبر ودروس؟! وقد يتساءل بعض الناس أليس مصير واحد من هؤلاء كفيل بردع الآخرين عن سلوك سبيل الاستبداد والفساد والدكتاتوريَّة، وإهمال الشعوب والاستعلاء عليها، ويجعلهم يكفّون عن ذلك ويرتدعون. لكنَّ الإنسان محل النسيان، وقد قيل قديمًا:

وَمَا سُمّيَ الإِنْسَانُ إِلا لِنسيهِ وَلا القَلْبُ إِلا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ

وشهدنا في الآونة الأخيرة حاكميْن من حُكّام العرب لم يتردّد أيّ منهما في أن يصرّح بأمنيته بأنَّ تشيَّع جنازة شعبه على أن تُشيَّع جنازته. قالها صدام يوم قيل له: "إنَّه مهما طال عمر الزعيم فإنَّه صائر إلى الموت لا محالة، فلِم لا يفتدي شعبه بنفسه؟"، قيل إنَّه أجاب: "إنّ أي شخص يتخيَّل أنَّني قد أترك حكم العراق قبل أن أجعله حمادًا -يعني أرضًا يبابًا لا حياة فيها- فإنَّه واهم، فلو قُدِّر لهم تسلّم العراق بعدي فلن يتسلّموه إلا خرابًا"، وقد فعل. وبمثل ذلك قال القذافي، الذي وصف الثوّار وقادة شعبه بأنَّهم حشرات تستحق الإبادة، وأنَّ استبداده بهم نعمة لم يستطيعوا تقديرها؛ ولذلك لم يتردد بأن يقاتل حتى آخر قطرة من دماء الليبيين. ولكنَّه قد انتهى في حفرة تحت الأرض تشبه إلى حد ما الحفرة التي أُلقي القبض فيها على صدّام، فهل يأخذ الآخرون من ذلك درسًا أو عبرة؟! لا أظن، فمثل هذه الدروس والعبر تحتاج إلى نسبة عالية من رقّة الإحساس، ولطف الوجدان، والإنسانيَّة العالية، والإدراك لمعنى الحياة، ودور الإنسان فيها، وكل ذلك ممّا لا يسهل على هؤلاء أن يفقهوه.

كيف يبدأ الاستبداد

إنَّ القذّافي حين تسلّم السّلطة، كنت تراه يحمل استعدادًا للتّواضع، ويحاول تقليد الراحل جمال عبد الناصر في كثير من خطواته. يذكّرني بسائر من عرفت من الحكّام الذين يبدؤون حياتهم -خاصّة العسكريّون منهم- وأحدهم أشد ما يكون رقّة طبع وتعاطفًا مع شعبه. فلا تمضي أسابيع أو شهور حتى يحيط بكل من هؤلاء انتهازيون شياطين، احترفوا أن يكونوا حاشية، وأن يعيشوا على هامش

حياة هؤلاء، ليجعلوا منهم -بعد حين- طغاة مستكبرين يتعالون على شعوبهم ويحتقرونهم ويدوسون عليهم وعلى مصالحهم. ثم لا يلبث أن يجعلهم مديح الانتهازيين أصنامًا، ترى نفسها ملهمة فاهمة فاقهة لكل شيء، قادرة على كل شيء. ومن هنا يبدأ الاستبداد. إنَّ الله -تبارك وتعالى- جعل الدرك الأسفل من النار مقرًّا للمنافقين وموئلاً لهم. وهؤلاء الانتهازيون الذين يحيطون بالحكام ويجعلون من أنفسهم حواشي لهم _ يزيّنون لهم السوء ويقبّحون في أعينهم الحسن _ منافقون جدد، بل هم أتعس أنواع المنافقين.

لقد أدركتُ حكمة الله -جلّ شأنه- في حصر الثّناء والمدح والحمد بذاته العليَّة: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(الفاتحة:2)، هذه الآية التي يكرّرها المسلمون في صلاتهم المفروضة سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة، ومَنْ يُوفّق منهم لأداء نوافل قد يكرّرها ضعف ذلك العدد، ومع ذلك فإنَّ ثمّة وزراء ومرافقين ومنتفعين وحاشية ونفس أمارة بالسوء مستعدة للطغيان، تجتمع كل تلك الأقنية الفاسدة المضروبة لتجعل من هذا الإنسان -بعد أسابيع أو شهور- طاغية من طغاة العصر، إذ قال فرعون: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) (النازعات:24)، أو: (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي) (القصص:38) بلسان المقال، فإنَّ الطغاة عندنا يردّدونها بلسان الحال مئات المرات وآلافها، وتحليل أي خطاب من خطابات الطغاة وكيفيّته ونبرات صوته وهو يصك مسامع شعبه تُشير إلى ذلك، بل وتؤكده.

كيف نتقي الاستبداد

إنّ الأمَّة إذا أرادت -بعد كل هذه التجارب وما قد يأتي من بقاياها- التخلّص من حالة الاستبداد إلى الأبد، فإنَّها أحوج ما تكون إلى مراجعة عقيدتها وإيمانها بالله، وتصحيح الإيمان وإعادة بنائه، والتمكين له في قلوب المؤمنين، وملء فراغات القلوب به، وبأنّه: (وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ) (الأنعام:17)، وأنَّه -جلّ شأنه- وحده الذي يعطي ويمنع ويُحي ويُميت ويرزق ويقطع: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ*إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ*قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ*قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ*أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ*قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ*قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ*أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ*فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) (الشعراء:69-77). فلكي لا يتكرّر القذافي أو صدام حسين أوأبو رقيبة أو ابن علي أو سواهم، لا بد من تغيير الشعوب وتغيير الإنسان المنتمي لهذه

الشعوب؛ ليكون العبد الذي يوجه وجهه لله وحده، ويحصر ثناءه وعبادته وتعظيمه وحمده فيه تبارك وتعالى، بدون ذلك فقد يتكرّر الطغاة بأسماء جديدة وأشكال جديدة، ولن تحول دون ذلك النّظم السياسيَّة. ولن تستطيع الديمقراطيَّة أن تقدّم من الضمانات للشعوب ما يحول بينها وبين هيمنة هؤلاء. إنَّ تغيير الإنسان هو الطريق الوحيد الذي يمكن لشعوبنا أن تتحرّر به. أمَّا مقتل طاغية وهزيمة مستبد وانهيار نظام دكتاتور فهي من قبيل عمليات جراحيَّة، لا تستطيع أن تستأصل المرض من جذوره؛ لأنَّ استئصاله يحتاج إلى إرساء دعائم التوحيد الخالص في قلوب مؤمنة نقيَّة طاهرة، وإلى إرساء النّظام التربوي التعليمي المتين المنطلق من التصوّر القرآني للإنسان والكون والحياة. فيا شعوبنا أجيبي داعي الله ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون.

إنَّ الخطوة التي تلي ترسيخ التوحيد لإعادة بناء الأمَّة، هي بناء نظام تربويّ تعليميّ متين يؤدي إلى تزكية الإنسان وتطهيره وتزكية الحياة ونظمها وتطهيرها، وبناء قواعد العمران وإرساء دعائمها. إنَّه ما لم تستطع الأمَّة إعادة بناء ذاتها؛ ليكون كل فرد فيها مثل ما قال الله في كتابه: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ*وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (النحل:75-76).

آثار الاستبداد

إنَّ ما تمرّ به بلادنا العربية من أحداث، ليست مُستغربة؛ بل هي أحداث طبيعية. فبعد أن نشأت أجيال عديدة فى ظلِّ الكبت وتقييد الحرِّيَّات أو إلغائها، واستبداد أفراد بمصير شعب كامل استبدادًا شموليًّا ألغى الإرادة ودمَّر الفاعليَّة وصادر الحريَّة وألغاها من واقع الناس وفكرهم وحياتهم.
وبالتالى فإذا سقط الاستبداد -بقطع النظر عن البديل الذي يأتي بعده- فلا بد أن تعقبه فوضى وتفكّك، وأن تجري عليه سُنَّة: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا) (الفرقان:23) فكلّ ما صنعته الديكتاتوريّات السابقة، والحاشية التي تُسمّى حزبًا يُصبح هباءً منثورًا.
لكن التخريب الذى يفعله الاستبداد فى النفوس والعقول والقلوب تبقى آثاره المدمّرة فترات طويلة؛ ولذلك لا بد للعلماء وقادة الرأي ورجال الفكر والدعوة من بذل جهود منظّمة مدروسة متواصلة لا تهدأ لإزالة الاستبداد من نفوس الناس ومن عقولهم وقلوبهم؛ حتى يطمئنوا إلى أنَّ الشَّعب قد برئ، وتمّت عمليّة تنقيته من سائر آثار الاستبداد وتدمير الإرادة والطاقة لدى أبناء الأمَّة.
ولقد حفل القرآن المجيد بقصص كثيرة من قصص المستبدِّين وآثار استبدادهم فى أممهم وشعوبهم، والتي من أقلّها فقدان الفاعليَّة وتدمير الإرادة وتحطيم الدافعيَّة، وتحويل الشعب إلى طبيعة قطيع ليتبعهم، وعقليَّة عوام ليسهل التلاعب بها، وليسلس للمستبدين قيادتها، وجعل نفسيّة الشعب نفسيّة عبيد ليسهل على الحكّام إذلاله ولتسهل قابليَّته للاستحمار والاستذلال لتكون جزءًا من حياته؛ وبذلك يحافظون على استبدادهم. وقد يكون بنو إسرائيل مثلًا لا يمكن تجاهله ولا تناسيه، فهم نموذج للتأثير المدمر للاستبداد في الأمم، فهذا الشعب -الذي عاش قرونًا فى ظل استبداد فراعنة يذبحون أبناءه ويستحيون نساءه- رغم ما منَّ الله عليه بإغراق المستبدّ وجنده، وإنقاذ بني إسرائيل منه، ونقلهم إلى الأرض المقدَّسة، وإعلان الله نفسه ربًّا وإلهًا وحاكمًا لهم في أرض مقدَّسة، رغم كل ما سبق فقد ظلّت آثار الاستبداد فيهم، وبقيت مستمرَّة، لتُصادر حاضرهم وتدمِّر مستقبلهم: (قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) (الأعراف:138)، وإذ صنع السامريّ لهم عجلًا: (فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ) (طه:88)، وسارعوا إلى عبادة العجل، مع علمهم أنَّه مجرَّد عجل ذهبيّ مصنوع لا يملك لهم شيئًا على الإطلاق، ولكنّ تلك طبيعة الاستبداد؛ يدمِّر كلَّ مقوّمات الإنسانيَّة.

نحن اليوم أمام ثورات، لا ثورة واحدة، علينا أن نقوم بها لإزالة آثار الاستبداد وإعادة المقوّمات الإنسانيَّة لشعبنا، والتَّخلّص من عقليّة العوام، وطبيعة القطيع، ونفسيَّة العبيد، فى ثورات متَّصلة لا تتوقف حتى يحدث التطهّر التَّام من آثار الاستبداد فى العقول والنّفوس والوجدان. حيث إنَّ الاستبداد قد تغلغل في كلِّ شيء، وصنع لنفسه ثقافة تراكمت آثارها في النّفوس، وجعلتها تحنّ إلى الاستبداد، وأوجدت ميولًا ودوافع واتجاهات لتكريس أخلاق وسلوكيَّات الاستحمار والاستعباد - حين كان قائمًا- ولإعادته بعد سقوطه، فالتحدي الذي يواجه أمَّتنا اليوم هو كيف نطهِّر نفوسنا وعقولنا وقيمنا وأخلاقنا وأساليب حياتنا من طبائع الاستبداد المدمِّر. ألم ترَ إلى بني إسرائيل الذين كانوا يُنزَّل عليهم المنَّ والسلوى، قال تعالى: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (البقرة:57)، لكنّهم حنُّوا إلى حياة العبوديَّة في سبيل أكلة بصل وثوم ممَّا كانوا يتناولون في أرضها، قال تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ) (البقرة:61).

على النّاس أن يثوروا على الاستبداد ويقوموا لله مثنى وثلاث؛ ليُقسموا أنَّ لا عودة للاستبداد بأيِّ شكل وتحت أيِّ شعار، وأنَّ ثورتنا مستمرة حتى نُخرج العقول من السذاجة والسَّطحيَّة، ونحول بينها وبين مَنْ يعبثون بها، فلا نجعلها عقليَّة عوام، ونُخرج شعبنا من طبيعة القطيع ونفسيَّة العبيد، وذلك بترسّم خطى القرآن، قال تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (النحل:75)، و: (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا) (الطلاق:2)، فإذا تحلَّينا بالتقوى، وأصبحت التَّقوى لنا مَلَكة، حينها يفتح الله لنا أبوابًا من الخير؛ ومن بين هذه الأبواب أبواب الرِّزق، من حيث نحتسب ومن حيث لا نحتسب. قال تعالى: (إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (الأعراف:128)، ومَنْ يدرى، فإنّ مَنْ أخرج الغاز والذهب من أرضنا، سيخرج معادن أخرى ويُبارك لهذا الشعب ويُنزل عليه بركاته، وذلك ليس من قبيل الأحلام، لكنَّه الحقيقة، فالله هو مالك الملك يؤتي الملك مَنْ يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

أمّا إزالة آثار الاستبداد فهي ضروريَّة؛ سواء كانت آثارًا صغرى أم كبرى، والحكمة ضالّة المؤمن. وقد تساءل «لينين» قائد الثورة البلشيفيّة قبل وفاته أنَّه لا يشعر بأنَّ الثورة قد حققت أهدافها؟ فأجابه أحد المفكِّرين الرُّوس بقوله: أود أن أسألك عن مُوزّعي البريد وكنّاسي الشَّوارع فى عهد القيصر، أما يزالون حيث هم؟ فأجاب «لينين»: هذه فئات لا تأثير لها، وقد قمنا بتطهير الجيش وقوَّات الأمن، فما تأثير هؤلاء؟ فأجابه: إنّ عمال النَّظافة يستطيعون أن يُفجِّروا ثورة ضد الثورة إذا جعلوا الناس يقارنون بين نظافة المدينة فى عهد القيصر ووساختها بعد الثورة، فذلك يدفع العامة لتفضّل عهد القيصر على عهد الثورة. وكذلك عمّال البريد، إذا قصّروا ولم تعد الرسائل تصل فى مواعيدها فسيقول الناس: إنَّ عهد القيصر خير من عهد الثورة وهكذا... إذن لا بد من إزالة آثار الاستبداد بأسرع ما يمكن، فهم عبء على الشعب، ووسائل مصادرة وعرقله وتدمير للثورة وأهدافها، ولن يرضى هؤلاء أن يروا الشعب قد تخلّص من تلك الأمراض وسار ليشقّ طريقه نحو التحرّر وإعادة بناء الذات على تقوى من الله وهداية من كتابه وتأسٍّ واقتداء من رسوله الكريم صلَّى الله عليه وآله وسلّم.

كيف نحقق التوازن بين ثقافة الحق وثقافة الواجب

موقع إسلام أون لاين 16 أكتوبر 2011

هل ثقافتنا ثقافة حقوق أم ثقافة واجبات؟ هل التّفاضل سنّة في الوجود؟ هل هناك تفاوت بين البشر، أم أنَّهم متساوون تمامًا؟ وهل لهذا التفاوت أثر في تحديد أدوارهم في هذه الحياة؟ لقد خلق الله الإنسان وأَوْكل إليه خلافة الأرض وأتمنه على حريّته، وكلّفه، وأمره ونهاه وابتلاه بذلك، وجعل مهمّته في الحياة أن يُوحّد الله -جلّ شأنه- ويعبده وحده لا شريك له، وأن يُزكّي نفسه وبيئته ويُطهّرهما، ويُزكّي تصوّره واعتقاده ونظم حياته وسائر ما يحيط به. ومن تكايف التزكية، العمران بإحياء مَوَات الأرض، وإعمارها، وعدم إهمال شيءٍ منها، خاصّة وأنَّ الخالق العظيم قد خلق فيها كل ما يؤدي إلى إعمارها إذا شاء الإنسان أن يفعل ذلك، فإذا تجاوز مهمّته، أو فعلها بغير الطريق المرسوم، أو أخلّ بها بأيّ نوع من الإخلال، كان الفساد والخراب -بكل أشكاله- نصيب الأرض، فيُفقد الأمن فيها وتضطرب عمليّات الإنتاج والتوزيع اضطرابًا يجعل البشر عاجزين عن الحصول على أقواتهم منها أو تأمين استقرارهم فيها.

وللإنسان -إضافة إلى حقيقته الإنسانيّة الكليّة المشتركة- صفات طبيعيّة وخِلْقيّة لا تأثير له فيها ولا اختيار؛ فأن يُخلق الإنسان طويلاً أو قصيرًا، أبيض أو أسمر، جميلاً أو أقل جمالاً، تلك كلها صفات طبيعيّة خِلْقيّة تتعلّق بتقدير العزيز العليم، الذي خلق الكون وقدّر فيه كل شيء تقديرًا، فكأنّ بين يديه -جلّ شأنه- خارطة -إن صحّ التعبير- يحتلّ الإنسان فيها موقعًا، وكذلك الطبيعة والأرض بما فيها ومَنْ عليها، وهذه الخارطة هو وحده -جلّ شأنه- المتحكّم فيها: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان:2). إنَّ إمكانيّة إيجاد قناة في مصر، تربط بين البحار_ تدعى فيما بعد قناة السويس_ أو وجود آبار بترول في جزيرة العرب وما حولها، ووجود مناجم ذهب وفضة وغيرها موزعة على مختلف بقاع الأرض، وكذلك الأنهار والمحيطات، كلّ هذه الأمور وأمثالها داخلة في خارطة التسخير الإلهي والتقدير الربّانيّ، والجانب الجبريّ من الإنسان الذي سميناه بالخلقيّ والطبيعيّ داخل في هذا، فتجد شعبًا أكثر ميلًا من شعوب أخرى للهو واللعب والرياضة وما شاكل، وتجد شعبًا آخر أكثر ميلًا للزراعة أو الصناعة أو ما ماثل ذلك؛ لأنَّ تقدير العزيز العليم لهذه الأرض هو التكامل والتفاعل والتوازن باعتبار وحدة البشريّة ووحدة المبدأ والغاية التي تجعل من الميزان

والتوازن هدفًا وغاية ووسيلة وقيمة أساسيَّة في علاقات البشريَّة التي أكد الرُّسل كافَّة أنَّها تنتمي إلى أب واحد وأم واحدة وربّ واحد، وتأخذ أدوارها في هذه الحياة بتقدير ذلك الرب الواحد -تبارك وتعالى- وتخطيطه وتيسيره وإرادته.

وقد قدّر العزيز العليم أن يكون الإنسان بطبيعته طموحًا، يتطلّع دائمًا إلى أن يكون الأفضل وإلى أن يتفوّق على سواه، وقد برز ذلك واضحًا في المثل الهام الذي ضربه الله -تبارك وتعالى- لنا في ابني آدم وتقريبهما القربان، وكيف طغتْ الرّغبة في الوصول إلى موقع الأفضليّة فجعلتْ من أحد الأخوين حاسدًا شرّيرًا، وحوّلته إلى قاتل غاشم جاهل فيما بعد، ولهذه النزعة الخطيرة المغروسة في طبائع هذا الإنسان أن تدخل في نظام التكامل فتكون خيرًا ويكون عائدها تنافس في الخيرات وسعيًا وراء معالجة الأزمات وحلّ المشكلات وكسب الطيّبات واستقرار الحياة، فالصفات الُخلُقية ميزان يعدل نظام الحياة وسير الإنسان فيها ويكسب الإنسان -إذا شاء- ما يخرجه من آثار كثير من القضايا الخِلقيّة التي لا كسب للإنسان فيها، فالقضايا الخُلُقيّة بمثابة الميزان الذي يعدل الكفة، ويضع كل شيء في نصابه، ويستطيع الإنسان أن يُكسب نفسه أفضل الصفات الخُلُقيّة، ويضع نفسه على الطريق السويّ، ويهتدي في سبل الحياة، ويُعوّض أي نقص خِلْقي قد يكون اعتراه _ وذلك إذا أراد وهيأ نفسه لذلك، وتيسّرت له عوامل أخرى. فإذا طرحنا سؤالاً خطيرًا وقلنا: هل الأصل في البشريّة التساوي بين جميع أفرادها دون استثناء، أم الأصل فيها التفاضل، وعلى أيّ شيء يقوم التفاضل، أيقوم على الصفات الخِلْقية أم الخُلُقية، الأصليّة أم المكتسبة؟ نستطيع القول إنّ التساوي يمكن أن يكون ثابتًا في المبادئ العامّة، فلا شك أنّ البشر متساوون في الحقيقة الإنسانيّة، فلا فرق بين جنس وآخر، ولون وآخر، ولغة وأخرى: "كلّكم لآدم، وآدم من تراب"، فنحن متساوون في المبدأ والمعاد والجزاء عند الله -سبحانه وتعالى- لا شك في ذلك: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ) (آل عمران:195)، ومتساوون في الكرامة الإنسانيّة، ثم بعد ذلك تصدّق الصفات الخُلُقيّة ذلك أو تنفيه، فإذا استقام الإنسان تمّت له الكرامة وإذا أشرك بالله ما لم يُنزّل به سلطانًا، واستكبر عليه وعلى آياته وكفر برسله فإنّه -آنذاك- يستحقّ أن يُطلق عليه نجس: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) (التوبة:28)، وهذا كلّه لا يعود إلى حقيقة الإنسان، بل إلى صفاته المكتسبة الخُلُقيّة. أمّا ما نتفاضل فيه فهو أمر موجود في الإنسان والحيوان والنبات والشجر وكل ما خلق الله سبحانه وتعالى، ففي طعوم الفواكه يقول جلّ شأنه: (وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد:4)، وفي الرّسل، وهم جميعًا

رسل الله يحملون للنّاس رسالاته، لكن الله -جلّ شأنه- قد قال: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) (البقرة:253)، فهذا التفضيل للرسل بُني على الأدوار التي أُسند لكل رسول آداؤها والقيام بها.

وحين ندرس أوضاع المسلمين اليوم نجد أنّ ثقافتهم هجينًا وخليطًا مركّبًا من ثقافات عديدة أهمّها ثقافة هذا العصر الغربيّة في جوهرها ومنشئها وتجلّياتها وانعكاساتها، وقد نشأت هذه الثقافة الهجين فينا بعد أن انحسرت عنّا تأثيرات ثقافة القرآن ، وداخلتنا ثقافات أخرى امتدت في الفراغات الموجودةلدينا، فأصبحت ثقافتنا ثقافة حقوق في المقام الأول؛ وذلك ناشئ عن التأثر بالحضارة الغربية التي حفل تاريخها باضطهادات الإنسان للإنسان، ، بحيث اتجهت كل حركات الإصلاح والتحرّر في الغرب لأن تضع في مقدمة أهدافها كيفيّة استرداد تلك الحقوق المستلَبة وحِميتها وتعزيزها، فسادت تلك الأفكار، وبرزت شعارات حقوق العمَّال، وحقوق أرباب العمل،وحقوق المرأة، وحقوق الأطفال، وحقوق الخصوصيَّة، وحقوق الدولة. فوُجد الإنسان الذي ينظر انطلاقًا من بُعْدٍ واحد، وهو إنسان تربى -في الأصل- على أن يكون ذا بعد واحد، واحتل جانب الحق ذلك البعد وسيطر عليه، وقد كان لذلك ما يسوّغه في بعض المراحل التاريخيَّة، ولكن ذلك الاتجاه قد بقي هو الغالب، حيث صار هناك للإصلاح مطلب آخر ألا وهو كيف نوجد التوازن الذي فُقد بين ثقافة الحقّ وثقافة الواجب. فثقافة الواجب قد تأثّرت إلى حدّ كبير بطغيان ثقافة الحق، خاصَّة بعد أن حصلت بعض الفئات المهمّشة على حقوقها، ومن هنا نجد -حين نلاحظ التطورات التي تجري في الحركات النسوية في الغرب على سبيل المثال- نوعًا من الطغيان المهدِّد لبقاء الأسرة لدى النسويَّات اللَّواتي امتلأتْ عقولهن وقلوبهن بثقافة الحقّ، فلم تعد تسمح لهن إلا برؤية ثقافة الحقوق وتجاهل ثقافة الواجب، مما أدّى إلى حدوث كثير من الظواهر التي جعلت نسبة تفكّك الأسرة في الغرب ترتفع في أمريكا بين البيض إلى ما جاوز الــ60%، وبين الأفروأمريكا ما جاوز الــ70%، والأرقام ما تزال في تزايد.

إنّنا نجد اضطرابًا في بلداننا التي نجحت فيها الثورات الشعبيَّة، فمن اعتصام لآخر، ومن اضراب لثالث، ومن مظاهرة لأخرى، وكل فئة من فئات الناس تسعى وراء حقوقها، ونحن لا نناقش فكرة أنَّ لكل هذه الفئات حقوقًا، ولا شك أنّها لم تستطع الوصول إليها في ظلّ الأنظمة السابقة، فشعرت

في ظل إعلاميَّات الثورة -التي لم يكن لها موازين دقيقة- أنَّ لها أن تطالب بكل تلك الحقوق وتستطيع أن تصل إليها دفعة واحدة، وألاّ تؤخّر مطالبها في الوصول إلى حقوقها مهما كانت الأسباب، بحيث نسمع إضرابًا للمعلّمين يُعطّل الدراسة والتعلم، وللسّائقين يُعطّل حركة الحياة، وللأطباء يمكن أن يؤدي إلى وفيات وتدمير مستشفيات وزيادة أعداد المرضى في البلاد، إلى غير ذلك من فئات النّاس، بحيث أصبح بعض الناس يتمنّون _خاطئين_ أنَّ ما حدث ليته لم يحدث، وتلك كارثة، فهذا النوع من الثورات والتحرّكات الشعبيّة يحتاج إلى سند دائم متّصل من عواطف الأمَّة ومشاعرها وتأييدها ودعمها، إنّها إذا فقدته فإنَّها قد تعود إلى نقطة الصفر وكأنَّها لم تحقق شيئًا، وذلك خطر كبير على الحاضر والمستقبل.

إنَّ أهم شيء يُفعل الآن هو أن تدخل كل أجهزة التعليم والإعلام والدّعوة والإرشاد والتّثقيف والتّوجيه والتّدريب حالة إنذار، تجعلها جميعًا تعمل يدًا واحدة وبصوت واحد لإعادة بناء حالة التّوازن بين الحقّ والواجب وإخراج الناس من متاهات ثقافة الحقّ المُطلق؛ ليعرف كل هؤلاء أنَّ لهم حقوقًا معترفًا بها، لكنَّ الوصول إلى هذه الحقوق له منهج وله طريق ووسائل وأدوات ومصادر وموارد تؤثّر في عمليَّات الوصول إلى هذه الحقوق التي إذا لم يُدْرك أصحابها ذلك في وقت مبكر؛ فسوف يضيّعون حقوقهم ويضيّعون واجباتهم ويضيّعون حقوق الآخرين، فتضيع الشعوب وتُدَمَّر الأوطان، وتكون تلك الثورات والتحرّكات وبالاً على أهلها وأوطانها وشعوبها.

إنَّ الله -تبارك وتعالى- قد أوجد ترابطًا وتلازمًا شديدين بين أداء الواجب والحصول على الحق، فربط نعيم الآخرة وعذابها بالعمل الإنسانيّ، وما أكثر الآيات التي تُختم -بعد ذكر نعيم أو عذاب- بأنّه جزاءً بما كانوا يعملون، كما أنَّه -جلَّ شأنه- قد أرسى في كتابه العزيز قاعدة ذهبيَّة، لو تشبثت البشريَّة بها لتخلّصت من كثير مما تعاني منه، هي: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة:7-8)، وإذا كان المفسّرون -وتأثر بهم عامة الناس- يرون أنَّ ذلك كله مرتبط بالآخرة، فإنّنا لا نرى أيّ داع لربط ذلك العموم بخصوص الآخرة، فالهلاك الذي يصيب أممًا في الأرض لا شك أنَّه شأن يحدث في الحياة الدُّنيا، ويقول جلّ شأنه: (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا) (الكهف:59)، ويقول: (وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ*فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ*فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) (الأنعام:42-44)، وقال جلّ شأنه: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ

يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) (الأعراف:58)، وقال تبارك وتعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ*ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ*وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ*أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ*أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ*أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ*أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ*تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ*وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) (الأعراف:94-102)، فهذا الجانب -الذي يُنبّهنا القرآن إليه- كثيرًا ما يغفل عنه الناس في مراحل الصراع بين الحقّ والواجب، ولو أنَّهم التفتوا إليه بالقدر الكافي لما انتشر الفساد حتى عمّ البرّ والبحر والجو، ومنه الفساد في قضايا القيام بالواجبات وأداء الحقوق.

إنَّ شعوبنا الثائرة في حاجة إلى وعي بهذه الأمور؛ ذلك لأنَّ ثقافة الحقّ في مرحلة من المراحل -حين طغتْ الماركسيَّة- استهانت واستهترت بثقافة الواجب نحو الله ونحو الأمَّة ونحو المجتمع ونحو البشريَّة كلها، فكل هذه الواجبات قوبلت بكثير من الهزء والسخريَّة، خاصَّة في المرحلة التي عرفت بمرحلة الحرب الباردة، حتى إنَّ بعض قادة الأمم المنتمين إلى المحيط الإسلامي لم يتردّدوا في الاستهزاء بالجزاء الأُخروي على خصال البرّ؛ ومنها الصبر والتّحمّل وأداء الإنسان ما عليه وطلب ما له بالمعروف دون تخريب أو إضرار.

إنَّ الثقافة الإسلاميَّة الحقيقيَّة القائمة على التوازن بين الحقّ والواجب غائبة أو مغيّبة للأسف الشديد، وهي في حاجة إلى استعادة واسترجاع لئلا تبقى آثار الثقافات الأخرى -سواء أكانت ماركسيّة أو ليبراليّة- هي التي تتحكم في تحرّكات المسلمين فتزيده خبالاً على خبال واضطرابًا على اضطراب وفسادًا على فساد. فإلى ثقافة القرآن من جديد، ثقافة الميزان والتوازن والتّكامل بين الحقّ والواجب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

نسأل الله -جلّ شأنه- أن يهدينا جميعًا سواء السبيل.



الفصل الثالث: مراحل ما بعد الثورة

ماذا بعد الربيع العربي؟

هل ثقافتنا ثقافة حقوق أم ثقافة واجبات؟ هل التّفاضل سنّة في الوجود؟ هل هناك تفاوت بين البشر، أم أنَّهم متساوون تمامًا؟ وهل لهذا التفاوت أثر في تحديد أدوارهم في هذه الحياة؟ لقد خلق الله الإنسان وأَوْكل إليه خلافة الأرض وأتمنه على حريّته، وكلّفه، وأمره ونهاه وابتلاه بذلك، وجعل مهمّته في الحياة أن يُوحّد الله -جلّ شأنه- ويعبده وحده لا شريك له، وأن يُزكّي نفسه وبيئته ويُطهّرهما، ويُزكّي تصوّره واعتقاده ونظم حياته وسائر ما يحيط به. ومن تكايف التزكية، العمران بإحياء مَوَات الأرض، وإعمارها، وعدم إهمال شيءٍ منها، خاصّة وأنَّ الخالق العظيم قد خلق فيها كل ما يؤدي إلى إعمارها إذا شاء الإنسان أن يفعل ذلك، فإذا تجاوز مهمّته، أو فعلها بغير الطريق المرسوم، أو أخلّ بها بأيّ نوع من الإخلال، كان الفساد والخراب -بكل أشكاله- نصيب الأرض، فيُفقد الأمن فيها وتضطرب عمليّات الإنتاج والتوزيع اضطرابًا يجعل البشر عاجزين عن الحصول على أقواتهم منها أو تأمين استقرارهم فيها.

وللإنسان -إضافة إلى حقيقته الإنسانيّة الكليّة المشتركة- صفات طبيعيّة وخِلْقيّة لا تأثير له فيها ولا اختيار؛ فأن يُخلق الإنسان طويلاً أو قصيرًا، أبيض أو أسمر، جميلاً أو أقل جمالاً، تلك كلها صفات طبيعيّة خِلْقيّة تتعلّق بتقدير العزيز العليم، الذي خلق الكون وقدّر فيه كل شيء تقديرًا، فكأنّ بين يديه -جلّ شأنه- خارطة -إن صحّ التعبير- يحتلّ الإنسان فيها موقعًا، وكذلك الطبيعة والأرض بما فيها ومَنْ عليها، وهذه الخارطة هو وحده -جلّ شأنه- المتحكّم فيها: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان:2). إنَّ إمكانيّة إيجاد قناة في مصر، تربط بين البحار_ تدعى فيما بعد قناة السويس_ أو وجود آبار بترول في جزيرة العرب وما حولها، ووجود مناجم ذهب وفضة وغيرها موزعة على مختلف بقاع الأرض، وكذلك الأنهار والمحيطات، كلّ هذه الأمور وأمثالها داخلة في خارطة التسخير الإلهي والتقدير الربّانيّ، والجانب الجبريّ من الإنسان الذي سميناه بالخلقيّ والطبيعيّ داخل في هذا، فتجد شعبًا أكثر ميلًا من شعوب أخرى للهو واللعب والرياضة وما شاكل، وتجد شعبًا آخر أكثر ميلًا للزراعة أو الصناعة أو ما ماثل ذلك؛ لأنَّ تقدير العزيز العليم لهذه الأرض هو التكامل والتفاعل والتوازن باعتبار وحدة البشريّة ووحدة المبدأ والغاية التي تجعل من الميزان والتوازن هدفًا وغاية ووسيلة وقيمة أساسيَّة في علاقات البشريَّة التي أكد الرُّسل كافَّة أنّها تنتمي إلى

أب واحد وأم واحدة وربّ واحد، وتأخذ أدوارها في هذه الحياة بتقدير ذلك الرب الواحد -تبارك وتعالى- وتخطيطه وتيسيره وإرادته.

وقد قدّر العزيز العليم أن يكون الإنسان بطبيعته طموحًا، يتطلّع دائمًا إلى أن يكون الأفضل وإلى أن يتفوّق على سواه، وقد برز ذلك واضحًا في المثل الهام الذي ضربه الله -تبارك وتعالى- لنا في ابني آدم وتقريبهما القربان، وكيف طغتْ الرّغبة في الوصول إلى موقع الأفضليّة فجعلتْ من أحد الأخوين حاسدًا شرّيرًا، وحوّلته إلى قاتل غاشم جاهل فيما بعد، ولهذه النزعة الخطيرة المغروسة في طبائع هذا الإنسان أن تدخل في نظام التكامل فتكون خيرًا ويكون عائدها تنافس في الخيرات وسعيًا وراء معالجة الأزمات وحلّ المشكلات وكسب الطيّبات واستقرار الحياة، فالصفات الُخلُقية ميزان يعدل نظام الحياة وسير الإنسان فيها ويكسب الإنسان -إذا شاء- ما يخرجه من آثار كثير من القضايا الخِلقيّة التي لا كسب للإنسان فيها، فالقضايا الخُلُقيّة بمثابة الميزان الذي يعدل الكفة، ويضع كل شيء في نصابه، ويستطيع الإنسان أن يُكسب نفسه أفضل الصفات الخُلُقيّة، ويضع نفسه على الطريق السويّ، ويهتدي في سبل الحياة، ويُعوّض أي نقص خِلْقي قد يكون اعتراه _ وذلك إذا أراد وهيأ نفسه لذلك، وتيسّرت له عوامل أخرى. فإذا طرحنا سؤالاً خطيرًا وقلنا: هل الأصل في البشريّة التساوي بين جميع أفرادها دون استثناء، أم الأصل فيها التفاضل، وعلى أيّ شيء يقوم التفاضل، أيقوم على الصفات الخِلْقية أم الخُلُقية، الأصليّة أم المكتسبة؟ نستطيع القول إنّ التساوي يمكن أن يكون ثابتًا في المبادئ العامّة، فلا شك أنّ البشر متساوون في الحقيقة الإنسانيّة، فلا فرق بين جنس وآخر، ولون وآخر، ولغة وأخرى: "كلّكم لآدم، وآدم من تراب"، فنحن متساوون في المبدأ والمعاد والجزاء عند الله -سبحانه وتعالى- لا شك في ذلك: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ) (آل عمران:195)، ومتساوون في الكرامة الإنسانيّة، ثم بعد ذلك تصدّق الصفات الخُلُقيّة ذلك أو تنفيه، فإذا استقام الإنسان تمّت له الكرامة وإذا أشرك بالله ما لم يُنزّل به سلطانًا، واستكبر عليه وعلى آياته وكفر برسله فإنّه -آنذاك- يستحقّ أن يُطلق عليه نجس: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) (التوبة:28)، وهذا كلّه لا يعود إلى حقيقة الإنسان، بل إلى صفاته المكتسبة الخُلُقيّة. أمّا ما نتفاضل فيه فهو أمر موجود في الإنسان والحيوان والنبات والشجر وكل ما خلق الله سبحانه وتعالى، ففي طعوم الفواكه يقول جلّ شأنه: (وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد:4)، وفي الرّسل، وهم جميعًا رسل الله يحملون للنّاس رسالاته، لكن الله -جلّ شأنه- قد قال: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى

بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) (البقرة:253)، فهذا التفضيل للرسل بُني على الأدوار التي أُسند لكل رسول آداؤها والقيام بها.

وحين ندرس أوضاع المسلمين اليوم نجد أنّ ثقافتهم هجينًا وخليطًا مركّبًا من ثقافات عديدة أهمّها ثقافة هذا العصر الغربيّة في جوهرها ومنشئها وتجلّياتها وانعكاساتها، وقد نشأت هذه الثقافة الهجين فينا بعد أن انحسرت عنّا تأثيرات ثقافة القرآن ، وداخلتنا ثقافات أخرى امتدت في الفراغات الموجودةلدينا، فأصبحت ثقافتنا ثقافة حقوق في المقام الأول؛ وذلك ناشئ عن التأثر بالحضارة الغربية التي حفل تاريخها باضطهادات الإنسان للإنسان، ، بحيث اتجهت كل حركات الإصلاح والتحرّر في الغرب لأن تضع في مقدمة أهدافها كيفيّة استرداد تلك الحقوق المستلَبة وحِميتها وتعزيزها، فسادت تلك الأفكار، وبرزت شعارات حقوق العمّال، وحقوق أرباب العمل،وحقوق المرأة، وحقوق الأطفال، وحقوق الخصوصيَّة، وحقوق الدولة. فوُجد الإنسان الذي ينظر انطلاقًا من بُعْدٍ واحد، وهو إنسان تربى -في الأصل- على أن يكون ذا بعد واحد، واحتل جانب الحق ذلك البعد وسيطر عليه، وقد كان لذلك ما يسوّغه في بعض المراحل التاريخيَّة، ولكن ذلك الاتجاه قد بقي هو الغالب، حيث صار هناك للإصلاح مطلب آخر ألا وهو كيف نوجد التوازن الذي فُقد بين ثقافة الحقّ وثقافة الواجب. فثقافة الواجب قد تأثّرت إلى حدّ كبير بطغيان ثقافة الحق، خاصَّة بعد أن حصلت بعض الفئات المهمّشة على حقوقها، ومن هنا نجد -حين نلاحظ التطورات التي تجري في الحركات النسوية في الغرب على سبيل المثال- نوعًا من الطغيان المهدِّد لبقاء الأسرة لدى النسويَّات اللَّواتي امتلأتْ عقولهن وقلوبهن بثقافة الحقّ، فلم تعد تسمح لهن إلا برؤية ثقافة الحقوق وتجاهل ثقافة الواجب، مما أدّى إلى حدوث كثير من الظواهر التي جعلت نسبة تفكّك الأسرة في الغرب ترتفع في أمريكا بين البيض إلى ما جاوز الـــ60%، وبين الأفروأمريكا ما جاوز الـــ70%، والأرقام ما تزال في تزايد.

إنّنا نجد اضطرابًا في بلداننا التي نجحت فيها الثورات الشعبيَّة، فمن اعتصام لآخر، ومن اضراب لثالث، ومن مظاهرة لأخرى، وكل فئة من فئات الناس تسعى وراء حقوقها، ونحن لا نناقش فكرة أنَّ لكل هذه الفئات حقوقًا، ولا شك أنّها لم تستطع الوصول إليها في ظلّ الأنظمة السابقة، فشعرت في ظل إعلاميَّات الثورة -التي لم يكن لها موازين دقيقة- أنَّ لها أن تطالب بكل تلك الحقوق

وتستطيع أن تصل إليها دفعة واحدة، وألاّ تؤخّر مطالبها في الوصول إلى حقوقها مهما كانت الأسباب، بحيث نسمع إضرابًا للمعلّمين يُعطّل الدراسة والتعلم، وللسّائقين يُعطّل حركة الحياة، وللأطباء يمكن أن يؤدي إلى وفيات وتدمير مستشفيات وزيادة أعداد المرضى في البلاد، إلى غير ذلك من فئات النّاس، بحيث أصبح بعض الناس يتمنَّون _خاطئين_ أنَّ ما حدث ليته لم يحدث، وتلك كارثة، فهذا النوع من الثورات والتحرّكات الشعبيّة يحتاج إلى سند دائم متّصل من عواطف الأمَّة ومشاعرها وتأييدها ودعمها، إنّها إذا فقدته فإنَّها قد تعود إلى نقطة الصفر وكأنَّها لم تحقق شيئًا، وذلك خطر كبير على الحاضر والمستقبل.

إنَّ أهم شيء يُفعل الآن هو أن تدخل كل أجهزة التعليم والإعلام والدّعوة والإرشاد والتّثقيف والتّوجيه والتّدريب حالة إنذار، تجعلها جميعًا تعمل يدًا واحدة وبصوت واحد لإعادة بناء حالة التّوازن بين الحقّ والواجب وإخراج الناس من متاهات ثقافة الحقّ الـمُطلق؛ ليعرف كل هؤلاء أنَّ لهم حقوقًا معترفًا بها، لكنَّ الوصول إلى هذه الحقوق له منهج وله طريق ووسائل وأدوات ومصادر وموارد تؤثّر في عمليّات الوصول إلى هذه الحقوق التي إذا لم يُدْرك أصحابها ذلك في وقت مبكر؛ فسوف يضيّعون حقوقهم ويضيّعون واجباتهم ويضيّعون حقوق الآخرين، فتضيع الشعوب وتُدَمَّر الأوطان، وتكون تلك الثورات والتحرّكات وبالاً على أهلها وأوطانها وشعوبها.

إنَّ الله -تبارك وتعالى- قد أوجد ترابطًا وتلازمًا شديدين بين أداء الواجب والحصول على الحق، فربط نعيم الآخرة وعذابها بالعمل الإنسانيّ، وما أكثر الآيات التي تُختم -بعد ذكر نعيم أو عذاب- بأنّه جزاءً بما كانوا يعملون، كما أنَّه -جلَّ شأنه- قد أرسى في كتابه العزيز قاعدة ذهبيَّة، لو تشبثت البشريَّة بها لتخلّصت من كثير مما تعاني منه، هي: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة:7-8)، وإذا كان المفسّرون -وتأثر بهم عامة الناس- يرون أنَّ ذلك كله مرتبط بالآخرة، فإنّنا لا نرى أيّ داع لربط ذلك العموم بخصوص الآخرة، فالهلاك الذي يصيب أممًا في الأرض لا شك أنَّه شأن يحدث في الحياة الدُّنيا، ويقول جلّ شأنه: (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا) (الكهف:59)، ويقول: (وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ*فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ*فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) (الأنعام:42-44)، وقال جلّ شأنه: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)

(الأعراف:58)، وقال تبارك وتعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ*ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ*وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ*أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ*أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ*أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ*أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ*تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ*وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) (الأعراف:94-102)، فهذا الجانب -الذي يُنبّهنا القرآن إليه- كثيرًا ما يغفل عنه الناس في مراحل الصراع بين الحقّ والواجب، ولو أنَّهم التفتوا إليه بالقدر الكافي لما انتشر الفساد حتى عمّ البرّ والبحر والجو، ومنه الفساد في قضايا القيام بالواجبات وأداء الحقوق.

إنَّ شعوبنا الثائرة في حاجة إلى وعي بهذه الأمور؛ ذلك لأنَّ ثقافة الحقّ في مرحلة من المراحل -حين طغتْ الماركسيَّة- استهانت واستهترت بثقافة الواجب نحو الله ونحو الأمَّة ونحو المجتمع ونحو البشريَّة كلها، فكل هذه الواجبات قوبلت بكثير من الهزء والسخريَّة، خاصَّة في المرحلة التي عرفت بمرحلة الحرب الباردة، حتى إنَّ بعض قادة الأمم المنتمين إلى المحيط الإسلامي لم يتردّدوا في الاستهزاء بالجزاء الأُخروي على خصال البرّ؛ ومنها الصبر والتّحمّل وأداء الإنسان ما عليه وطلب ما له بالمعروف دون تخريب أو إضرار.

إنَّ الثقافة الإسلاميَّة الحقيقيَّة القائمة على التوازن بين الحقّ والواجب غائبة أو مغيّبة للأسف الشديد، وهي في حاجة إلى استعادة واسترجاع لئلا تبقى آثار الثقافات الأخرى -سواء أكانت ماركسيّة أو ليبراليّة- هي التي تتحكم في تحرّكات المسلمين فتزيده خبالاً على خبال واضطرابًا على اضطراب وفسادًا على فساد. فإلى ثقافة القرآن من جديد، ثقافة الميزان والتوازن والتّكامل بين الحقّ والواجب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

نسأل الله -جلّ شأنه- أن يهدينا جميعًا سواء السبيل.

خطر يواجه الشخصية المصرية

تُعدّ مصر -بفضل من الله- كتلةً سكَّانيَّة كبيرة، وشعبًا تربطه روابط عديدة ساعدت على توحيده في مختلف الظروف، فلم يتعرّض للتمزق والتفتت مثل غيره من شعوب الأرض وأقطارها. وتلك نعمة كبيرة لها عوائد ضخمة على وحدة الجماعة والشعب واقتصاديَّاته ونظمه وعلاقاته ونظرة أمم الأرض وشعوبها إليه. والمصريون يدركون أهميَّة هذه الوحدة في حياتهم، بل وضرورتها لهم. وقد عمل الشعب المصري على حماية وحدته هذه وتكريسها ومواجهة شتَّى ظروف التَّفتيت ومحاولاته وعوامله في مختلف العصور، وقد بقيت هذه الوحدة واستمرت وصارت مصدر استقرار وأمن، لا على المستوى القطري وحده، بل على المستوى الإقليمي كذلك.

المرونة والسّعة المصريّة

ثمة ظاهرة نلحظها لدى المصريين، ألا وهي ظاهرة المرونة والسّعة، بحيث يمكنهم إدخال تعديلات ملموسة على أيّ أيدلوجيّة أو رؤية أو مذهب أو معتقد ليكون وسيلة من وسائل دعم وحدتهم بدلاً من تمزيقها. فكأنَّ المصريّ يجعل تلك الظاهرة -في إسلامه ومسيحيَّته ومذهبيَّاته المختلفة، بشكل مقصود أو غير مقصود- عامل توحيد وليس عامل تفتيت، وهو ما حاولت أن تفعله شعوب كثيرة ولكنّها لم تفلح في ذلك.

حين ضغط الحكَّام الفاطميّون على المصريين لتبنّي «مذهب التّشيع» وجدناه قد تبدّى لديهم خلال حب آل البيت إضافة إلى حب الصحابة والعناية بموالدهم والاحتفال بوفياتهم وولاداتهم. وعلى الرغم من المحبة الشعبية الكبيرة لآل البيت، فإنّ الاحتفال بهم لم يحوِ أحزانًا أو لطمًا أو شقًّا للجيوب كما نرى في العراق وإيران وبعض المناطق الشيعيَّة الأخرى؛ فالاحتفالات المصريَّة بآل البيت أو الصَّالحين أو مَنْ إليهم عبارة عن مهرجانات فرح وحبور، يُحوّلها المصريّون إلى أيام رفاهية، فنجدهم يتناولون «العاشوراء» في ذكرى استشهاد الحسين، ويزورون مراقد آل البيت، ويحتفلون بالإنشاد والتّواشيح وحلقات الذّكر وأشياء كثيرة محبّبة لطيفة عوضًا عن اللَّطم وضرب السلاسل الذي نرى الشيعيّ العراقيّ أو الإيرانيّ يُدمي ظهره وصدره به، بل وقد يموت بعضهم منه. كذلك حين كان «الشيوعي» في كل أنحاء العالم يتنكّر للأديان وينفي وجودها ويعتبرها أفيونًا للشعوب كنا

نعجب حين نرى «مركسيين لينيين» من المصريين و«شيوعيين» -بالمعنى الكامل- يصومون رمضان، ويشاركون أحيانًا في صلوات جمعة أو عيدين. ولا أريد أن أستزيد وأقول أنَّ الراقصة في أي بلد عربيّ أو أجنبيّ تعتبر من الفئات المتحلّلة من الالتزامات الدينيَّة والأخلاقيَّة، لكنَّ الراقصة في مصر قد تُصر على قراءة سورة «يس» قبل أن تعتلي حلبة الرقص، وإذا دخل شهر رمضان فإنَّ معظمهن -الراقصات والفنانات- يعلن توقفهن عن الرقص خلال الشهر الكريم لانشغالهن بالصيام والقيام، كما شهدت «موائد الرحمن» في الشهر الكريم مؤخرًا تبرّعات سخيَّة من كثير من الفنّانات والفنّانين، فبعض الموائد كانت تتسع لألف آكل من الصائمين، ولا يجد الصائم حرجًا في أن يأكل على مائدة الفنانة فلانة ولا تجد الفنانة حرج في أن تقوم بهذا النوع من الخدمة للمجتمع، والبر به في هذا الشهر الكريم.

مؤشرات بداية تغير الشخصية المصرية

إنَّ هذه الظاهرة التي لم ألحظها في أي بلد آخر، كانت تعطيني كثيرًا من الأمل والارتياح والاطمئنان على مستقبل مصر. فالمصري ميَّال للاعتدال بطبيعته، لا يرغب في العنف ولا يميل إليه، ولديه ما يشبه «الفلتر» الدّاخلي للقيام بتعديلات على الأفكار والمعتقدات والأيدلوجيات لتناسبه، ولا يجد في نفسه حاجة لتغيير طبيعته ليناسب الأفكار التي جاءته. لكنَّني بدأت أقلق في الآونة الأخيرة حينما تأثر بعض المصريين بطباع غيرهم ممن خالطوهم، فالحركة السلفيَّة -التي قادتها الدولة السعوديَّة الأولى والثانية في الجزيرة العربيَّة- عُرِفت بالشدة والقوة والتعصب وهدم القبور وتدمير الأضرحة وتكفير المخالف، وفي أقل الأحوال نسبته إلى البدعة، وكان السلفيّون المصريّون –وقد كان رمزهم حينما كنا طلابًا الشيخ حامد الفقي يرحمه الله- يردّدون ما يردّده إخوانهم في المملكة السعوديَّة والخليج، لكنَّهم كانوا أقرب إلى سلفيَّة المغرب العربيّ، والتي آلت إلى أن تكون توجّهًا سياسيًّا وتربويًّا وثقافيًّا يعتز بماضي هذه الأمَّة أو بمَنْ يسمّيهم بـ«السلف الصالح» من أبنائها، لكنَّه لا يُكفّر ولا يُبدّع ولا يُفسّق إلا بحساب. من هنا كان من العسير أن تجد ألفاظ التكفير والتبديع والتفسيق دائرة أو متداولة في كتابات سلفيّي المغرب العربي أمثال الدكتور عبد الهادي أبو طالب وعلال الفاسي وغيرهما. ، وكذا كان الحال في سلفيَّة مصر.لكنَّ الاضطهاد الذي صُبّ على الدّعاة والجماعات الإسلاميَّة بعد ثورة يوليو مهّد لنوع من التوجّهات التكفيريَّة لم

تكن طبيعة الشعب المصريّ تتقبّلها قبل تلك المرحلة، لكن -كما قيل- العنف يولِّد العنف، ويغيّر من طبائع الشّعوب ونفسيَّاتها.

فهل تغيّرت النَّفسية المصريّة؟ وهل الظروف التي مرّت بها مصر منذ قيام دولة إسرائيل، والحروب التي فُرضت عليها، وما أصاب نظمها -واقتصادها بصورة خاصة- من آثار سلبيّة نتيجة تلك الحروب قد غيرّت في طبيعة هذا الشعب وأوجدت للعنف سبيلاً إلى ضميره ووجدانه؟ أرجو ألاّ تكون الأمور قد بلغت هذا المدى، وأتمنى أن يقوم قادة الرأي في مصر مثنى وثلاث ورباع ليتفكّروا في معالجة هذه الظواهر الطارئة وتجفيف منابعها قبل أن تستفحل، ويحدث -آنذاك- ما لا تُحمد عقباه.

تغير الشخصية العراقية

أذكر أنَّني ذات يوم قُبيل انقلاب البعثيين لاغتصاب السلطة سنة (1968م) ألقيت محاضرة في بغداد حذّرت فيها الشعب العراقيّ من الانسياق وراء أفكار وأطروحات «ميشيل عفلق» وسياسات الحزب آنذاك المبنيَّة على تلك الأفكار التي لم تكن على أسس سليمة. حذّرت مَنْ حاضرتهم، والشعب العراقيَّ من ورائهم، من أنَّ اغتصاب السلطة من البعثيين مرة أخرى وتفرّدهم بها وسلوكهم مسلك الطلائع التي كان ميشيل عفلق يمجد بها سوف يُحدث تغييرًا في النفسيَّة والعقليَّة العراقيَّة غاية في الخطورة، فلم أكن آنذاك مهمومًا بمَنْ يأخذ السلطة ولا بمَنْ يتركها قدر اهتمامي بما يمكن أن يحدث من تغييرات في نفسيَّات الشعوب تؤدي إلى تدميرها. ومن المؤسف أنَّ مخاوفي وظنوني في تلك المرحلة قد صدقت، وهاهم العراقيَّون -بعد أن تغيرت شخصيَّاتهم نفسيًّا وعقليًّا- تحوّلوا إلى شيع وأحزاب، يستبيح كل منهم دم مخالفه أيًّا ماكان، ويعتبر الخلاص منه -بأيَّة وسيلة- ربحًا ومكسبًا، حتى وإن كانت تلك الوسيلة هي التحالف مع الأجنبي، وتوجيه الدعوة إليه لاحتلال البلاد والبقاء فيها حتى يقرر هو مغادرتها.

نحو احتواء التغير

إذا تبين ذلك، وأدرك القراء ما أقول على حقيقته، فإنَّني قد بدأت -نتيجة كل تلك التغيّرات- أقلق على وحدة الكتلة المصريَّة، وأكثر ما يقلقني هذا التغيّر في النفسيّة المصريّة، بحيث لم تعد تلك

النفسيّة السمحة المرنة القادرة على استيعاب الآخر وتجاوزه، بل بدأت تميل إلى نوع من الشدّة والضيق بالآخر ورميه بشتى الأوصاف والألقاب التي من شأنها أن تساعد على إثارة عوامل الشحناء والتباغض بين الناس. وذلك ما حملني على كتابة هذا المقال للإفضاء بمخاوفي إلى الغَيَارى على وحدة مصر والشعب المصري، والمهتمين بالمحافظة على طبيعته السمحة الطيبة الهينة اللينة.

من هنا نستطيع مناشدة الإعلام وأجهزته، والأزهر وقيادته، ورموز الجماعات والفئات على اختلافها في البلاد أن تلتفت إلى هذه الظواهر، وأن تتذكر أنَّ النار من مستصغر الشرر، وأنَّ ما نراه اليوم صغيرًا _إذا تُرك وأُهمل_ سيكبر وسيؤدي إلى آثار خطيرة، وآنذاك لن يكون الخاسر فئة أو فئتان، بل المجتمع المصري كله والشعب المصري برمته، ومن بعده جواره العربي والإفريقيّ والإسلاميّ. فلنحرص على رصد الإيجابي والسلبي مما يعتري نفسيّات شعوبنا لننمّي الإيجابي ونتخلص من السلبي قدر الإمكان، وليكن لدينا من النّظم التعليميَّة والإعلاميَّة ما يساعدنا على الوفاء بهذه المهمّة الضخمة.

بين الاحتجاج الإيجابي والتفتت السلبي

لقد عرف عصرنا ما يُسميه الكتَّاب والإعلاميّون ومَنْ إليهم «الحركات الاحتجاجيَّة». يريدون بذلك ما تقوم به بعض الفئات الاجتماعيَّة -من عمال أو فلاحين أو طلاب أو غيرهم- من تنظيم إضراب أو اعتصام أو وقفة احتجاجيَّة تتوقف فيها عن العمل وتُطالب باستحقاقات معيّنة وترفض بقاء الحال على ما هو عليه. وقد حصلت البشريَّة على هذا الحق الذي يُعدّ الآن حقًّا من حقوق الإنسان بعد كفاح طويل. فلكلِّ فئة تشعر بغبن أو ظلم في أجورها أو معاملاتها أو مقادير ساعات العمل الحق أن تحتج على ذلك وتطالب بالتغيير. ولا ينبغي أن تعاقب على ذلك أو تتحمّل مسؤوليَّة إلا إذا صحبت تلك الاحتجاجات أعمال عنف أدّت إلى الإضرار بممتلكات عامَّة أو خاصة أو بأشخاص حقيقيين أو اعتباريّين.

إنّ التحركات الاحتجاجيَّة في مصر قد كثرت بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير، وما تزال تتوالد وتتكاثر. والذي نود أن ننبّه إليه أنَّ البلاد في حاجة إلى الهدوء والاستقرار والسماح بتسيير الأعمال وقيام كل مواطن بواجبه، فإنَّ الثَّائر لا يستمر ثائرًا إلى الأبد، بل يثور لإحداث التغيير وإفساح الطريق للتغييرات الأخرى التي تحتاج إلى وقت وإعداد ومال ومؤسَّسات. وقد أيَّد الشيخ الشعراوي هذا بقوله: "قد يثور المدنيُّون لكي يُنهوا فسادًا، وآفة الثَّائر من البشر شيء واحد: أنَّ الثَّائر يظلُّ ثائرًا، ولكن الثائر الحق هو الذي يثور ليهدم الفساد ثم يهدأ ليبني الأمجاد". ولقد فتحت الثَّورة طريق التغيير، ووضعت المواطنين كافَّة؛ سواء أكانوا عسكريّين أو مدنيّين، شبابًا أو شيبًا أمام مسؤوليَّاتهم؛ ليكملوا المشوار ويحقِّقوا عمليَّة البناء، ويجدِّدوا ما بلي، ويُصلحوا ما فسد.

الاحتجاج الإيجابي

إنّ الفئات والتحركات الفئوية التي غمرت البلاد طولاً وعرضًا في تونس وفي مصر هي محاولة للحصول على مكاسب الثورة لصالح الفئة التي ينتمي إليها هذا أو ذاك، كالسَّائقين وعمَّال السِّكة الحديد والغزل والنسيج والمعلِّمين والأطباء ومَنْ إليهم؛ لأنَّه ما من فئة قد نالت من العدالة نصيبًا في ظل الاستبداد والاستيلاب، فالاستبداد لا ينجح في توزيع عادل إلا في توزيع الظلم على سائر الفئات والنيل منها بالاستلاب ومصادرة الحريَّات كافَّة؛ ولذلك لاحظنا أنَّ سائر الفئات على وجه التقريب

قد مارست اعتصامات وإضرابات ووقفات احتجاجيَّة لتعبّر عن مظلوميّتها وحاجتها إلى الإنصاف، ولخوفها من أنَّ الدخول إلى الاستقرار قبل أن تثبت حقوقها قد لا يُعطيها فرصة أخرى للتعبير عن تلك الاحتياجات، وقد تُحرم حقوقها لعقود قادمة ويتكرر معها ما حدث. فهذه وقفات احتجاجيَّة أو تظاهرات واعية محدودة منظّمة لا تعدو أن تكون تعبيرًا واعيًا عن التَّهميش الذي أصاب تلك الفئة في العهد السابق، وعن رغبتها في أن تحتاط ويُحتاط لها بعدم تكرار عمليَّات التهميش والإقصاء وبتلبية الحقوق وتحديد الواجبات بدقة، لأنَّه إذا لم يحدث ذلك فقد لا تحصل عليه بعد الانتخابات وإعادة بناء الدولة من جديد.

مفهوم التفتت ومسبباته

وأمَّا «التفتّت» و«التفتيت» فهما من تحطيم وتكسير أجسام كبيرة وتحويلها إلى قطع صغيرة، وأكثر ما يُستعمل في الصخور وما إليها، يُقال: "فتت الحجر" أو "...الصخرة" يريدون كسَّره وحطّمه وحوّله من كتلة ضخمة إلى قطع صغيرة. وقد يُستعار للأمور المعنويَّة، فيُقال: "فتت الجماعة" أو "... الفئة" أو "... الحزب"؛ أي: فرّق كلمتهم بعد أن كانت واحدة، ومُزّق جمعهم وأصبحوا كـ«الفتات أو الفتيت»، وهو ما يُستعمل في تقطيع أرغفة الخبز من رغيف كامل إلى قطع صغيرة بقصد الأكل.

إنَّ أخطر تحدٍّ يواجه ثورات –مثل الثورة التي قامت في تونس ومصر وما تزال قائمة في اليمن وسوريا- هو عمليَّة التشرذم والتَّفرُّق واختلاف الكلمة؛ ذلك لأنَّ الاستبداد والقمع قد ترك آثاره السلبيَّة وبصماته الانحرافيَّة على كل جانب من جوانب الحياة، وسَلَب الناس فاعليَّتهم، وصادر الإرادة من قلوبهم، واستلبهم، ليكونوا مجرَّد (ROBOT) يتحرك بأداة (REMOTE CONTROL) ويملك القدرة على التَّلاعب بأزرارها شخص واحد هو الحاكم المستبدّ أو الفرد. وحين يزول ذلك الحاكم المستبدّ أو الفرد ويطمئن المستلَبون إلى زواله تبدأ دفقات من الرغبة في التأكد من بقايا الإرادة لدى كل إنسان، وإلى أنَّه رغم طول فترة الاستلاب والاستبداد ما يزال الأفراد يمتلكون بقايا فاعليّة وبقايا إرادة، فيقومون بما يشبه حركة طفل عندما يبدأ المشي فيحاول اختبار قدرات رجليه، فيقف، فإذا ارتعشت رجلاه هبط إلى الأرض وربما ضحك وأضحك من

حوله لكي لا يُظن أنّه قد فشل، ثم يكرر المحاولة ثانية وثالثة، حتى إذا سار عدة خطوات بعد ذلك فرح وسعد وأحس بالإنجاز وفرح به أهله.

مخاطرالتفتت السلبي وأمثلته

إنَّ الوعي -الذي أشرنا إليه- إن لم يحكم هذه المحاولات الفئويَّة، فإنّها سوف تنتقل من حالة فئويَّة إيجابيَّة، تطالب بالحقوق المشتركة للمواطنين كافَّة، وتنبّه إلى أهميّتها بالنسبة للمجتمع ونُظمه كي ينصفها ولا يسمح بتهميشها إلى حالة سلبيَّة خطرة هي حالة «التفتت». وهي الحالة التي تترتب على ضعف الوعي أو اندساس مندسين، أو وجود عدوّ خارجيّ يتربص بالبلاد. ولدينا نموذج العراق، الذي هدفت أمريكا من احتلاله وإزالة نظام صدَّام وإحلال أصدقائها محلّه إلى إرساء نموذج ديمقراطي يمسح من الذاكرة التاريخيَّة لدى العرب والمسلمين كل آثار الاستعمار السيئة والسلبيَّة، ويُرسي دعائم علاقة جديدة مع المستعمرين الجدد تقوم على ما يشبه الشراكة في ظاهرها. ولكن يستحيل أن تقوم شراكة بين الذئب والغنم بأي حال من الأحوال. ومع كل الضمانات التي قدَّمتها أمريكا، فإنَّ غزوها للعراق قد مهّد لتحويله من القسمة الكبيرة الأوليَّة إلى الأقاليم: «إقليم شمالي: كردستان»، و«إقليم جنوبي: شيعستان»، و«إقليم جنوب غربي: أنبارستان» حيث بدأت عمليّات تفتيت تلك الأقاليم وتفكيكها؛ فكردستان اليوم مثل شيعستان وأنبارستان، كل منها تمرّ بحالات تفتّت خطيرة، بحيث بدأت محافظات عراقيَّة كثيرة تعلن ما يشبه الاستقلال عن المركز في بغداد وعن الإقليم ومراكز الإقليم، ولا يدري أحد كيف يمكن إيقاف حالة التفتت هذه. فالتفتت يوجد مصالح جديدة صغرى للقائمين على تلك المحافظات، يجعلهم يحثّون الخطى نحو الانفصال والتشرذم، وربما تشهد تلك المحافظات صراعات من نوع جديد، وهذا ما نتمنى ألا يقع مثله في أي بلد عربيّ أو إسلاميّ آخر.

إنَّ الأخبار التي جاءت بعد الانتخابات التونسيَّة عن الاضطرابات التي حصلت في مدينة المنطلق «سيدي بو زيد» -التي انطلقت منها الشرارة الأولى- والأصوات التي تعالت بين المتظاهرين الذين أحرقوا كثيرًا من مكاتب الولاية والسيارات وما إليها من الأملاك العامة، وحجّتهم في ذلك كله أنَّ «سيدي بو زيد» هي التي حرّرت تونس وأطلقت الطاقات المكبوتة كلها في العالم العربي،

ولكن ما تزال مهمَّشة ولم تحصل على ما يظن أولئك أنَّها يجب أن تحصل عليه، فانطلقوا بذلك الشكل الذي شهدناه في الأسبوع الماضي.

بناء على ما سبق، فلا بد من ضبط إيقاع تحركّات الوقفات الاحتجاجيَّة والتظاهرات والاعتصامات، وإيجاد نوع أو منظومة متكاملة على مستوى الوطن الكبير؛ كي تمنع تلك الوقفات الاحتجاجيَّة أو المظاهرات أو الاعتصامات من أن تشكِّل محاور خاصَّة بها تدور حولها، وتنسى الهدف الجامع الذي لن يتحقَّق إلا بمعالجة مشكلات الوطن كله دون استثناء، وبروح واحدة لا تتحكم فيها الفئويَّة بأيِّ شكل من الأشكال.

نحو بناء ثقافة الانتخاب

لقد طرح عليّ بعض السائلين هذا السؤال: "لو كنت واحدًا من المنتخبِين الذين سيشاركون فى الانتخابات القادمة فى مصر أو في غيرها. فمَنْ ذا الذى سترشّحه، ومَنْ ذا الذى ستنتخبه؟" وقد أجبت بما وُفّقتُ إليه من قول، وأرجو أن يكون نشره نافعًا ومفيدًا.

السلطات وتقسيماتها بين الحضارتين: الإسلامية والغربية الحديثة

بعد مسيرة طويلة وكفاح شاقّ قضته بريطانيا وبعض الشعوب -التى شكّلت فيما بعد أوروبا_ باتجاه الديمقراطيَّات الحديثة، بدأت بعض النُّظم فى تلك القارة بإقامة نظام ديمقراطى قائم على توازن دقيق بين سلطات ثلاث: السُّلطة القضائيّة «المحكمة العليا»، السُّلطة التشريعية «البرلمانات»، السُّلطة التنفيذيّة «الحكومة».

وكل جهة من هذه الجهات تتوازن مع الجهتين الأخريين بدقّة بالغة لا تسمح لأيٍّ من الجهات الثلاثة أن تخرج عن أهدافها، أو تنحرف عن غايتها. وكل منهم يستمدّ شرعيّته -بطريقة أو بأخرى- من الشعب، فالشعب فى تلك الديمقراطيَّات هو صاحب الكلمة العليا، وهو الذي يمنح تلك المؤسَّسات الثلاث شرعيَّتها، وهو مَنْ يستطيع أن يسحب تلك الشرعية -إذا أراد- بطرق تمَّ تقنينها، وأعراف أخذت أحكام التقنين.

أمَّا بالنسبة لنا -نحن المسلمين- فقد عرفنا موضوع السُّلطات الثلاث فى تاريخنا فحصرناها بين طائفتين من أبناء الأمَّة، أطلقنا عليهما فى مختلف الفترات التاريخيَّة أسماءً وألقابًا تُنبِّه إلى وظائفهما؛ وهم «العلماء» و«الأمراء»، ويندرج تحت مفهوم «العلماء» القضاة والمفتون وأصحاب المدارس والمذاهب والمقالات الفكريَّة، كما يندرج تحت مفهوم «الأمراء» الخليفة ووزراء التنفيذ والتفويض وقادة الجيش وما إلى ذلك، في تفاصيل تُعرف معظمها من المصادر المتخصِّصة في دراسة تلك النُّظم وتواريخها.

إنّ ذلك الترابط بين «العلماء» و«الأمراء»، أو«السلطات الثلاث» فى الديمقراطيَّات الحديثة هو الصيغة التى يرى فيها الشعب -بمختلف فئاته- كيف تتشابه وتتصل ألوان الحياة المختلفة - الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيَّة والفكريَّة- بالنظم والتشريعات عند الشعوب تأثيرًا وتأثُّرًا،

وكيف يُربط بينها برباط وثيق يجعل تلك المراحل -في بعض الأحيان- متناسقة في تحوّلها وسيرها باتجاه المستقبل، أو يجعلها متنافرة في مسيرة التحوّل، بحيث يمكن أن تؤدي إلى تطوّر ثابت راسخ الأقدام، أو إلى ثورة بمعناها الواسع.

إنّ كلاًّ من الفقيه المسلم على المستوى الإسلامي التاريخي، والمشرّع الأوروبي على مستوى التاريخ الأوروبي يحرص -بغضّ النّظر عن سائر أوجه الخلاف الدقيق بينهما- على جعل قوانين ونظم البلاد والتشريعات الحاكمة وأصولها أداة مرنة منظّمة قادرة على تنظيم الحياة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة بكفاءة ومرونة وقدرة تامة على تحقيق الأهداف العليا للشعوب. ومن المعروف أنّ ظروف الحياة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة تتغير ولا تكفّ عن التغير، خاصة عندما تتقدّم التِّجارة وتتطور الصناعة وتزيد الاكتشافات العلميّة وما إلى ذلك.

ما بين النّظام البرلماني ونظام الشورى

إنّ «النِّظام البرلماني» يعتبر من أهم ما وصلت إليه البشريَّة لانفراد الشعب فى حكم نفسه وإعطائه فرصة التعبير عن ذاته، وإدراجه ضمن صُنّاع القرار. وقد يُطلق بعض مَنْ يكتبون في النُّظم على تلك المجالس النيابيّة أو البرلمانات اسم الجمعيّات الوطنيّة أو مجالس الشورى. إنَّ المنشغلين بهذا النوع من المعرفة –منذ ظهرت الديمقراطيَّة في أثينا أولاً- يتحدَّثون عن الجمعيَّة الوطنيَّة وممَّ ينبغي أن تتألف، وعن الحضور والمشاركة، ومكان انعقاد الجمعيَّة، والتمييز بين اجتماعات الجمعيّة الهامّة والأقل أهميّة، وكيفيَّة التصويت؛ سواء بالإشارة بالرأس أو برفع اليد. وتتولى الجمعيّة الوطنيّة النّظر فى معظم الشؤون العامّة التى تتصل بالحرب أو السلم، والتشريعات واختيار السفراء ومراقبة الشؤون الماليّة، كما تنظر فى بعض المسائل الدينيّة والماليّة، وكثير من الشؤون الأخرى.

أمَّا في واقعنا التاريخيّ فإنّنا لا نجد تنظيمًا دقيقًا ومفصَّلاً، يفصل ويحدِّد كل ما يتعلّق بالـ«شورى» وكيفيَّة ممارستها؛ لأنَّ الأمَّة كلّها قد اعتبرت مسؤولة عن القيام بالشهادة والحضور، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحماية الأمَّة وحياتها من الانحراف. وكان للعرف -الذي اعتبره بعض الفقهاء أصلاً من الأصول- تأثير فى هذا المجال، لكنَّ قضيَّة الشورى ظلّت حاضرة في الذَّاكرة المسلمة - ولو على سبيل الإجمال - التي لا يمكن أن تنفصل انفصالاً تامًّا عن القرآن

المجيد. ، وبقيت الأمَّة تُثني الثَّناء الكثير على السُّلطة التنفيذيَّة أو الخليفة أو السلطان إذ يُعنى بالشورى ويضعها فى المجال المناسب، وكانت المقاصد القرآنيَّة العليا ومقاصد الشريعة في كل مستوياتها الأساس الملهم لقوى الأمَّة بما ينبغي أن تكون عليه نُظمها، وبرزت فكرة الدَّولة الشرعيَّة وشكلها والقواعد التى تقوم عليها في الذِّهن المسلم، وبقيت حاضرة فيه. ولعلَّ وجود صورة الدَّولة الشرعيَّة في العقل والوجدان المسلم هو الذى يجعل المسلم فى كثير من الأحيان يشعر بالأزمة تجاه ما يقوم على أرضه من نظم، لأنّه من كان ينظر إلى النُّظم التى تقوم فى بلاده ويحدد موقفه منها وجدانيًّا بالقياس إلى تلك الصورة.

ملامح الدولة الشرعيَّة في كتب الإمامة والسياسة والفقه

أولاً: الدَّولة الشرعيَّة هى دولة دعامتها الأولى «الشريعة» المنبثقة عن العقيدة، وجوهرها هو التَّوحيد. ولذا ينبغي ملاحظة التوحيد بكل تجليّاته وانعكاساته على السلطة عند تحديد دورها. أمَّا ممارسة السّلطة نفسها فهي تخضع للقواعد التي تصدر عن الشريعة. وهنا تجتمع العقيدة والشريعة لتحديد ورسم قواعد النظام السياسي.

ثانيًا: تتقرّر شرعيّة الدولة في إطار ممارسة تجمع بين الحكم والهداية والقوة. فالقوة مقيّدة في استخداماتها في حدود الحقّ المنـزَّل، وليس الحق كما يراه كل فرد من النَّاس حسب هواه -حاكمًا كان أم محكومًا- والحق هو الذى يحدّد الوجهة التي على الدولة الشرعيّة أن تتجه إليها.

إنَّ الحق هو ما يحدّده الكتاب والميزان؛ أي الشَّرع، فنحن أمام معادلة بين الكتاب والميزان والحديد، قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (سورة الحديد: 25) وهذه الأصول الثلاثة ترتبط بالشرع والشريعة، فلا تكون الدولة شرعيّة إذا لم تضع -جنبًا إلى جنب- الكتاب والميزان والحديد؛ ليقوم النَّاس بالقسط، ولتتحقق منافعهم.

ثالثًا: إنَّ الأمَّة هي قاعدة الدولة الشرعيّة، فرسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- جاء للنَّاس بالتوحيد وبناء الأمّة وإقامة الدَّعوة بها. فالأمَّة هي قاعدة الدَّولة الشرعيَّة، وهي الجماعة السياسيَّة المنوط بها -بحكم العقيدة والشريعة والدَّعوة والرسالة- أمانة الخلافة، وبذلك يكون الخليفة أو الرئيس أو صاحب الولاية العامَّة في الأمَّة هو القائم على حراسة الدِّين، وسياسة الأمَّة به فى إطار

الشريعة، فهو موكل من الأمَّة بهذه الأمانة بموجب عقد البيعة؛ ولذلك كانت البيعة للتعبير عن الأصل فى القيادة الشرعيَّة القائمة على الاختيار والرضا لا على الفرض والإرغام، فهي علاقة تعاقديَّة تُشكِّل جوهر الرِّضا؛ ولذلك قال الماوردي: "هي عقد مراضاة واختيار". أمَّا الهيئة أو المؤسَّسة التي تقوم بهذا العقد، وتسهر على احترام شروطه وتوفير فرص الوفاء من جميع الأطراف له ، فإنَّما هي التي عُرِفت في تاريخنا بـ«أهل الحلِّ والعقد»، فإذا اقتضى العقد أن تكون الطاعة والالتزام حقًّا على المحكومين بموجب عقد البيعة أو الإمامة، فثمَّة حدود لتلك الطاعة وشروط لا بد من استيفائها؛ ومنها أن يكون الإمام المختار أهلاً للإمامة. ولا تنتهي واجبات الأمَّة عند التأكُّد من أهليَّته، بل لا بد أن تستمر الأمَّة فى عمليَّة الرِّقابة على الحاكم، ولها حقٌّ المحاسبة والمساءلة والتأكُّد التَّام من التزام ذلك المنتخَب بالشرع، والتزامه القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما دامت الأمَّة هي القاعدة فهي مسؤولة دائمًا عن مراقبة القيادة والاطمئنان إلى سلامة أدائها، وحالة الرضا -رضا الأمَّة- يجب أن تكون مستمرَّة ما دام الحاكم يمارس مسؤوليَّة الحكم، وحالة الرضا هي معيار موضوعي، لا ينبغي أن تتحكم فيه أو في التعبير عنه أو في إظهاره أو إخفائه ظروف أو مصالح، ولا يمسّه تضليل للمحكومين أو استحواذ على رضائهم بأيِّ شكل من الأشكال.

رابعًا: إنّ النِّظام فى الدولة الشرعيَّة يقوم على وحدة اندماجيَّة بين الحاكم والمحكوم، فالحاكم ينبغي أن يكون منكم لا عليكم: "أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم"، وحين يصبح الحاكم حاكمًا عليك -أي متسلِّطًا- فذلك يعني وقوع انحراف لا بد من المسارعة إلى تقويمه.

فروق بين الدولة الشرعيَّة والدولة الدينيَّة

قد يتبادر إلى بعض الأذهان أنَّ الدولة الشرعيَّة التي نتحدث عنها هي الدولة الدينيَّة، على اعتبار أنَّ كلاًّ منهما يقوم على الدين بوجه من الوجوه. ولإزالة هذا الوهم نستطيع القول أنَّ «الدولة الشرعيَّة» نتجت عن الخبرة الإسلاميَّة، ورسم معالمها القرآن المجيد وسنة الرسول صلَّى الله عليه وسلم. أمَّا «الدولة الدينيَّة» فهي دولة عرفتها الدول الأوروبيَّة في العصور الوسطى، حيث قامت مؤسَّسة الكنيسة -وهي المؤسسة الدينيَّة الأم- لتعلن نفسها مصدرًا وحيدًا لقيادة القواعد التي تسير الدولة عليها، ومنحت تلك القواعد صفات القداسة، فلم تترك مجالاً لأحد سوى رجال الكنسية

وقادتها ليقوموا على تطويرها أو تفسير فحواها، مما أدى إلى أن تصبح الكنيسة قمّة هرم لطبقة اجتماعيَّة ذات مصالح اقتصاديَّة واجتماعيَّة متميزة، تحتكر تفسير الشؤون الدينيّة بما يخدم صالحها وصالح الطبقة التي تمثّلها، مما أدّى إلى تلك المشكلات الكثيرة التي امتلأ بها التاريخ الأوروبي.

إنَّ الدولة الشرعيَّة في الإسلام لم تعتمد على أيّ مؤسّسة، ولم تكرّس وجود طبقة أو فئة على سواها، فهي مختلفة اختلافًا بيِّنًا عن الدولة الدينيّة، كما أنها تختلف عن دولة القانون والدولة المدنيّة والدولة العقائديّة وسائر تلك الأشكال إذا ما تمّ إمعان النَّظر فيها.

إذا تبيَّن ما ذكرنا فإنّ مَنْ أنتخبه هو من يتصف بالصفات الآتية

أولاً: إنسان فاهم للدولة الشرعيّة ولسائر الفروق الدقيقة بينها وبين أنواع الدول الأخرى، وهو يشاركني الاعتقاد بضرورة إقامة تلك «الدولة الشرعيّة» التي تستند إلى المعادلة التى ذكرنا، ويكون إعطاء صوتي له عقدًا بيني وبينه على الالتزام بذلك.

ثانيًا: إنَّ لهذه الأمَّة هوية، فهي أمَّة تم اصطفاؤها وتحميلها أمانة الكتاب: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (سورة فاطر:32)، والالتزام بهويّة الأمّة هو جزء من التزام بيني وبين النَّائب الذي سأرشِّحه، فلا بد له من فهم تام لعناصر الأمَّة، ومقوماتها ودعائمها، ووحدتها.

ثالثًا: أن يكون ذا فقه في وظائف الشورى والمجالس النيابيَّة وطريقة عملها وما أنيط بها من مسؤوليَّات، ويكون له قدرة على إيقاف ما يتعارض مع العقيدة والشريعة إذا ما عُرض على المجلس ما يوصف بذلك.

رابعًا: أن تكون لديه خبرة بالمشكلات الاقتصاديَّة والاجتماعيّة على مستوى الأمّة وعلى مستوى القطر المحلي، وله عقليَّة معرفيَّة وعمليَّة لتقديم مشاريع حلول لتلك المشكلات؛ ومنها الفقر والمرض والتخلّف والبطالة والعنوسة والفساد الإداري وفشل خطط التنمية والتربية والتعليم، وتكون لديه فكرة عن كيفيَّة إصلاح كل منها إصلاحًا علميًّا، يضع الأمَّة على طريق الصلاح والتنمية والعمل على تحقيق العدالة والمساواة وحراسة الحريات وحمايتها من أيَّة محاولات للاعتداء عليها.

خامسًا: أن يضع المرشَّح كل تاريخه وتاريخ أسرته وأملاكه،وتوجّهاته السياسيّة وعلاقاته المتنوعة بين أيدي الناخبين، ليعرف الناخبون كل شيء عن ماضيه وتاريخه وعمله وممارساته؛ لأنّ الناخبين هم مَنْ سيقرِّر ما إذا كان يصلح لتولِّي هذا الأمر أم لا، وإذا كان سيحمل هذا الأمر أم لا؟

سادسًا: أن يتصف المرشح بالعدالة، وهي صفة تقوم بالنفس بحيث تمنع الإنسان من خيانة ربه، أو أمته أو نفسه، وتمنعه من الوقوع في الكبائر أو الإصرار على الصغائر. كما يجب أن يتصف بتقوى الله في السر والعلن، فضلا عن الأمانة والقوة.

العرب والبركان المصري

إنّ ما يجري في مصر منذ الخامس والعشرين من يناير 2011 وحتى اليوم هو ثورة بركان. وإنّ البراكين لا تنفجر إلاّ إذا اختزنت في داخلها كميات هائلة مما تختزنه الأرض من غازات ونيران وما إليها. وقد انفجر البركان المصري أول ما انفجر في الخامس والعشرين من يناير وأطاح برأس النظام المصري الذي حكم ثلاثين عامًا ومثل آخر شرعيَّة لثلاثة وعشرين يوليو 1952. وكأنَّ البركان المصريّ ظل منذ ذلك التاريخ _أي يوليو 1952_ يتفاعل تحت السطح حتى حانت ساعة الانفجار فانفجر ثمّ هدأ. وها هو البركان ينفجر مرة أخرى وقد يهدأ، ولكنَّه قد ينفجر بعد ذلك أيضًا كطبيعة البراكين الكبرى في العالم. لذلك، فإنَّ التفسيرات التي أعطيت وما أكثرها لم تبدُ مقنعة في بعض الأحيان. فالبراكين وثوراتها لها منهج في التفسير يستقصي جميع الأسباب ويستقرئ جميع العوامل ليخرج بعد ذلك بتفسير قد لا يتجاوز الوصف وذكر الأسباب والعوامل ثم الاستسلام للبركان حتى يتوقف من نفسه. وقد ملأ المثقفون _الذين يلوكون الكلام كأنه طعام وما هو بطعام_ الفضائيّات بكلامهم. والذين يمثلون تعبيرًا صارخًا عن قوله -عليه الصلاة والسلام: "إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا ، وهَوًى مُتَّبَعًا ، ودُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ..." حين نرى هذه الخصال فلن نرى بعدها إلا الفرقة والانقسام والأزمة والتحارب والتشتت والتشرذم وقد يلحقنا ذلك -والعياذ بالله- بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا فبرّأ الله رسوله منهم وقال: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) (الأنعام:159) وقد يحق علينا قول ربنا: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (الأنعام:65).

لم يسقط النظام بعد

وقد تبين العديد من الأسباب والعوامل والمؤثرات التي فجرت ذلك البركان منذ الخامس والعشرين من يناير وحتى اليوم. والعامل السياسيّ أول سبب لتفجر البركان، فمن الجلي أن عمر ثورة يوليو 1952 قد بلغ الستين، ذلك يعني أنَّ مجموعة من الأجيال العربيَّة والمصريَّة ولدت ونمت وترعرعت وشبت وشابت في ظل الأوضاع التي أوجدتها موجة الثورات العسكريَّة وحكومات

العسكرتاريا بعد محاولات فاشلة للبروليتريا والأحزاب المختلفة. وقد استمر العسكر في الحكم، ليؤكدوا أنّ النظام السياسي المصري ما زال مستمرًا ولم يسقط في الخامس والعشرين من يناير، بل لم يعد الأمر أكثر من استبدال عسكري بعسكري.

من اقتصاد الكفاية إلى اقتصاد النقص

أمّا السبب الثاني لتفجر البركان فهو القصور الاقتصادي الناتج عن سياسات اقتصادية فاشلة من ناحية، واتفاقية كامب ديفيد التي عزلت مصر عن عمقها العربي من ناحية أخرى، وحرمتها الكثير من الروافد. لقد كان الاقتصاد المصريّ قبل الخمسينيات اقتصاد كفاية، ولكنه تحول بعد ثورة يوليو 1952 إلى اقتصاد نقص وأزمة. فقد فشلت كل محاولات التصنيع وقيدت بأشد القيود، ومنها إلغاء محاولات التصنيع العسكريّ. وأهملت الزراعة، وأرغم الفلاح المصريّ على التحول من زراعة الغذاء إلى زراعات الزينة، ودمرت بعض الأراضي الخصبة بالمخصبات المسرطنة إلى غير ذلك من أمور معروفة شائعة. وبذا، تحول خمس وأربعون في المئة من أبناء هذا الشعب إلى ما تحت خط الفقر.

وبخلاف السياسات الاقتصادية المدمرة، هناك السياسات العمرانية العشوائية. إنَّ هناك العشوائيَّات التي تحيط في كل حاضرة من الحواضر بدءً بالقاهرة، وتفتقر إلى أبسط مقومات العيش الإنسانيّ بل والحيوانيّ، فلا مياه شرب نظيفة ولا مصارف مجاري صحيّة ولا مساكن تقي الحر والبرد ولا مراعاة لأي من آداب الإسلام في الخصوصيّة والسكن الذي يحفظ الكرامة الإنسانيّة. ولم تراع في تلك المساكن العشوائيَّة أحكام البناء في الإسلام، التي كان يفترض أن يحرص الأزهر وأئمة المساجد والدعاة على التوعية بها والتنبيه إلى ضرورة العمل بها، وإلا فإنَّ جرائم الزنا بالمحارم وغيرها والاتجار بالمخدرات والاتجار بالتسول، وسقوط الناس في كثير من الأزمات والرذائل، وقسوة القلوب، وتدمير النفوس، وتحجيم العقول ستكون ظواهر مفهومة في ظروف عيش كهذه. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل وجدت طوائف من البشر لم تستطع العشوائيّات على كثرتها أن تستوعبهم، فقذفت بهم إلى الشارع، فصاروا للشارع أبناء وأحفاد وقيل أطفال الشوارع وأبناء الشوراع. ولقد كان الوعي بهذه المشكلة ضعيفًا أو شبه معدوم. فلم يدرك الناس ماذا يعني وجود ملايين في شوارع المدن والحواضر المصريَّة يطلق عليهم أبناء الشوارع. ثم بعد ذلك يلام الناس

إذا اتجهوا هذا الاتجاه أو ذاك ورسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: "كاد الفقر أن يكون كفرًا" ويقول الإمام علي –كرم الله وجهه:"عجبت لمن لم يجد قوت يومه كيف يجلس ولا يحمل سيفه ويقاتل ليصل إلى طعامه".

كل تلك الظواهر الاقتصادية المفزعة لم تؤثر كثيرًا في كبار رجال الأعمال المصريين ومحترفي تهريب الأموال، فتجعلهم يحوّلون ما جمعوا فأوعوا، إلى مشاريع في البلاد تشغل العاطلين، وتوجد الأعمال، وتيسر اللقمة الحلال للشباب والقادرين على الكسب والذين لا يريدون إلا فرصة عمل وعيش كريم، والذين أعطوا الإنذار بعد الإنذار، خاصّة حينما أصبح المئات منهم يقذفون أنفسهم في مراكب لا تصلح للسير في الأنهار يمخرون بها عباب البحر ليصلوا إلى شواطئ أوروبا بحثًا عن فرصة عمل فيدرك الغرق ستين أو سبعين بالمئة منهم، ويلقي البحر بقليل منهم إلى الشواطئ الأوروبيَّة ليحيوا حياة مذلة لفترة طويلة لعلها تنتهي بفرصة عمل يكسب الواحد منهم فيها قوته.

محيط البركان المصري

ولكنَّ البراكين حين تثور لا يقف تأثيرها ولا أضرارها عند فوهة البركان أو المحيط الصغير المتصل به_ ولقد رأينا بركان أيسلندا في العام الماضي كيف عزل أوروبا كلها_ وهنا أود أن أقول للعرب: أيها العرب أنتم المحيط الجغرافي للبركان المصري وأنتم العمق الاستراتيجي له وأنتم أول متضرر بعد المصريين بشظاياه وآثاره وكل ما ينجم عنه شئتم أم أبيتم، فالبراكين لا ينحصر ضررها في محيطها المباشر بل قد يصيب محيطها غير المباشر بأضرار أكبر بكثير من محيطها المباشر نفسه.

ومصر هي كنانة الله في أرضه وهي جعبة العرب من السهام، وهي العمق الاستراتيجي للعرب ولقضاياهم. فالعمل على إنقاذ مصر من البركان، وإنقاذ البلدان العربيَّة كلها ومحيط مصر العربي من آثار ذلك البركان الخطيرة، تستحق منكم النظر الدقيق الفاحص، وتجاوز النظرات البلهاء التي ينظر الكثيرون بها إلى البركان المصريّ وهو ينفجر بين الحين والآخر بأساليب مختلفة.

بادروا أيها العرب قبل أن تضيع كل الفرص لمساعدة مصر في السيطرة على البركان المتفجر فيها والحيلولة دون استمراره فأمن مصر هو أمنكم وسلامة مصر هي سلامتكم ورفاهيّة مصر رفاهيّتكم، فمصر كما قال حافظ إبراهيم شاعرها صادقًا:

أنا إن قدر الإله مماتي لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي

أي شعب أحق مني بعيش وارث الظل أخضر اللون رغد

إنما الحق قوة من قوى الديان أمضى من كل أبيض هندي

قد وعدت العلى بكل أبي من رجالي فأنجزوا اليوم وعدي

وردوا بي مناهل العز حتى يخطب النجم في المجرة ودي

ارفعوا دولتي على العلم والأخلاق فالعلم وحده ليس يجدي

وتواصوا بالصبر فالصبر إن فارق قوما فما له من مسد

واستبينوا قصد السبيل وجدوا فالمعالي مخطوبة للمجد

نظر الله لي فأرشد أبنائي فشدوا إلى العلا أي شد

إنَّنا نعرف أنَّ في الخليج العربي وحده ما لا يقل عن أربعة عشر مليون فرصة عمل. فماذا لو عقدت اتفاقات بين الحكومات الخليجيَّة والحكومة المصريَّة لتدريب عمال مصريين من بين آلاف الشباب العاطلين، وتقوم القوات المسلحة المصريّة بتدريب هؤلاء الذين تجندهم على الأعمال الفنيّة من نجارة ونقاشة وسباكة وزراعة وما إليها مما تتقنه الأفرع الفنيَّة في الجيوش الحديثة؛ لتحويل العامل المصريّ إلى عامل فنيّ ينافس العامل اليابانيّ والكوري والصيني. وتعطي حكومات الخليج الأولويّة في الأعمال لهؤلاء العمال المصريين الفنيّين. لكن ذلك يحتاج إلى وعي خليجيّ ومصريّ مشترك بالأزمة وإرادة سياسيَّة من الطرفين لفعل ذلك وتحويله إلى واقع. إنَّ الشاب المصريّ لا يحتاج إلى أن يقضي في الجيش سنتين في التدرب على الأسلحة، فلعله يستطيع أن يهضم البرامج العسكريَّة ويستوعبها في غضون ربع المدة التي يجند فيها ولنقل ستة أشهر، وفي ما بقي من فترة التجنيد يتعلم حرفة وصناعة ولا يسمح له بأن يخرج من الجيش قبل أن يخرج من الأميّة بكل أشكالها، ويتحول إلى عامل فني يقرأ ويكتب ويمارس حدادة أو نجارة أو نقاشة أو بناء أو صناعة وتصليح سيارات وكهرباء وما إلى ذلك. ذلك كله من الأمور المقدور

عليها والتي يمكن تنفيذها في جلسة عمل واحدة لو وجدت الإرادة والرغبة الصادقة في إنقاذ الموقف، وبذلك يمكن أن ننقذ مصر من ثورات بركانيّة لاحقة أو قادمة لا يعلم مداها إلا الله.

خارطة طريق لأزمة نوفمبر2011

أولا: على الحكومة المصريَّة أن تتحلى بالصبر وضبط النفس، وتطلق سراح جميع المعتقلين وتعلن عن أنَّ المدنيين لا يقدمون إلا إلى المحاكم المدنيّة.

ثانيًا: دفع التعويضات للمتضررين من أسر الشهداء والجرحى، ومعالجة الجرحى والمصابين، والاستفادة من مستشفيات الجيران خاصّة المستشفيات السعوديّة والأردنيّة الراقية لبعض الحالات الصعبة.

ثالثًا: على الحكومة المصريَّة أن تشكل لجان تحقيق محايدة يمكن أن تضم بعض الخبراء العرب المشهود لهم بالكفاءة والنزاهة لتتبع العناصر المندسة والمحركة لأحداث العنف، والتي تقوم بعمليَّات الاستدراج للعنف بين القوات المسلحة والشرطة من ناحية وبين المعتصمين والمتظاهرين من ناحية أخرى، ورصد هذه العناصر وعزلها بعد التعريف بها، وأيَّة إجراءات أخرى يستلزمها إطفاء البركان المشتعل.

رابعًا: تحقيق انتخابات حرة نزيهة برلمانيَّة ثم رئاسيَّة.

خامسًا: تقديم المساعدات العاجلة للحكومة المصريَّة، وتمكينها من تلبية احتياجات البلاد المتنوعة لمدة لا تقل عن عام كامل حتى تستلم الحكومة الجديدة والرئيس المدني الجديد مقاليد الأمور، ويستقرون في السلطة ويتمكنون من تنفيذ السياسات الإصلاحيَّة اللازمة.

سادسًا: فتح المجال لتوظيف وتشغيل العمالة المصريَّة والخريجين العاطلين عن العمل وتشكيل دورات ومؤسسات للتنمية البشرية لتأهيلهم بأسرع ما يمكن للقيام بالأعمال الفنيّة، واستبدال العمالة الوافدة غير الفنيّة من البلدان الأخرى الخارجيَّة بالعمالة المصريَّة فالأقربون أولى بالمعروف، والثقافة العربيَّة الإسلاميَّة التي يحملها المصريّ تعتبر نقطة هامّة ترجح كفته على كفة الآخرين.

سابعًا: التعجيل بمد جسر الحب بين السعوديَّة ومصر لتمكين الشعب المصريّ والشعب السعوديّ من الاستفادة بهذا الجسر في التنشيط التجاريّ والاقتصاديّ والعمَّالي، وفي إفساح المجال للتواصل بين شرق العالم العربيّ وغربه، وإيجاد فرص للتبادل التجاريّ وانتقال الأموال والأشخاص

وإيجاد الأجواء اللازمة للتحضير لقيام الجماعة العربيّة على غرار الجماعة الأوربيّة ولو بعد حين.

وهناك مقترحات كثيرة يمكن تقديمها في هذا المجال لكن ما ذكرناه يعد مقدمة لازمة لذلك. وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

بين الاحتجاج الإيجابي والتفتت السلبي

لقد عرف عصرنا ما يُسميه الكتَّاب والإعلاميّون ومَنْ إليهم «الحركات الاحتجاجيَّة». يريدون بذلك ما تقوم به بعض الفئات الاجتماعيَّة -من عمال أو فلاحين أو طلاب أو غيرهم- من تنظيم إضراب أو اعتصام أو وقفة احتجاجيَّة تتوقف فيها عن العمل وتُطالب باستحقاقات معيّنة وترفض بقاء الحال على ما هو عليه. وقد حصلت البشريَّة على هذا الحق الذي يُعدّ الآن حقًّا من حقوق الإنسان بعد كفاح طويل. فلكلِّ فئة تشعر بغبن أو ظلم في أجورها أو معاملاتها أو مقادير ساعات العمل الحق أن تحتج على ذلك وتطالب بالتغيير. ولا ينبغي أن تعاقب على ذلك أو تتحمّل مسؤوليَّة إلا إذا صحبت تلك الاحتجاجات أعمال عنف أدّت إلى الإضرار بممتلكات عامَّة أو خاصة أو بأشخاص حقيقيين أو اعتباريّين.

إنّ التحركات الاحتجاجيَّة في مصر قد كثرت بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير، وما تزال تتوالد وتتكاثر. والذي نود أن ننبّه إليه أنَّ البلاد في حاجة إلى الهدوء والاستقرار والسماح بتسيير الأعمال وقيام كل مواطن بواجبه، فإنَّ الثَّائر لا يستمر ثائرًا إلى الأبد، بل يثور لإحداث التغيير وإفساح الطريق للتغييرات الأخرى التي تحتاج إلى وقت وإعداد ومال ومؤسَّسات. وقد أيَّد الشيخ الشعراوي هذا بقوله: "قد يثور المدنيُّون لكي يُنهوا فسادًا، وآفة الثَّائر من البشر شيء واحد: أنَّ الثَّائر يظلُّ ثائرًا، ولكن الثائر الحق هو الذي يثور ليهدم الفساد ثم يهدأ ليبني الأمجاد". ولقد فتحت الثَّورة طريق التغيير، ووضعت المواطنين كافَّة؛ سواء أكانوا عسكريّين أو مدنيّين، شبابًا أو شيبًا أمام مسؤوليَّاتهم؛ ليكملوا المشوار ويحقِّقوا عمليَّة البناء، ويجدِّدوا ما بلي، ويُصلحوا ما فسد.

الاحتجاج الإيجابي

إنّ الفئات والتحركات الفئوية التي غمرت البلاد طولاً وعرضًا في تونس وفي مصر هي محاولة للحصول على مكاسب الثورة لصالح الفئة التي ينتمي إليها هذا أو ذاك، كالسَّائقين وعمَّال السِّكة الحديد والغزل والنسيج والمعلِّمين والأطباء ومَنْ إليهم؛ لأنَّه ما من فئة قد نالت من العدالة نصيبًا في ظل الاستبداد والاستيلاب، فالاستبداد لا ينجح في توزيع عادل إلا في توزيع الظلم على سائر الفئات والنيل منها بالاستلاب ومصادرة الحريَّات كافَّة؛ ولذلك لاحظنا أنَّ سائر الفئات على وجه التقريب قد مارست اعتصامات وإضرابات ووقفات احتجاجيَّة لتعبّر عن مظلوميّتها وحاجتها إلى الإنصاف، ولخوفها من أنَّ الدخول إلى الاستقرار قبل أن تثبت حقوقها قد لا يُعطيها فرصة أخرى للتعبير عن تلك الاحتياجات، وقد تُحرم حقوقها لعقود قادمة ويتكرر معها ما حدث. فهذه وقفات احتجاجيَّة أو تظاهرات واعية محدودة منظّمة لا تعدو أن تكون تعبيرًا واعيًا عن التَّهميش الذي أصاب تلك الفئة في العهد السابق، وعن رغبتها في أن تحتاط ويُحتاط لها بعدم تكرار عمليَّات التهميش والإقصاء وبتلبية الحقوق وتحديد الواجبات بدقة، لأنَّه إذا لم يحدث ذلك فقد لا تحصل عليه بعد الانتخابات وإعادة بناء الدولة من جديد.

مفهوم التفتت ومسبباته

وأمَّا «التفتّت» و«التفتيت» فهما من تحطيم وتكسير أجسام كبيرة وتحويلها إلى قطع صغيرة، وأكثر ما يُستعمل في الصخور وما إليها، يُقال: "فتت الحجر" أو "...الصخرة" يريدون كسَّره وحطّمه وحوّله من كتلة ضخمة إلى قطع صغيرة. وقد يُستعار للأمور المعنويَّة، فيُقال: "فتت الجماعة" أو "... الفئة" أو "... الحزب"؛ أي: فرّق كلمتهم بعد أن كانت واحدة، ومُزّق جمعهم وأصبحوا كـ«الفتات أو الفتيت»، وهو ما يُستعمل في تقطيع أرغفة الخبز من رغيف كامل إلى قطع صغيرة بقصد الأكل.

إنَّ أخطر تحدٍّ يواجه ثورات –مثل الثورة التي قامت في تونس ومصر وما تزال قائمة في اليمن وسوريا- هو عمليَّة التشرذم والتَّفرُّق واختلاف الكلمة؛ ذلك لأنَّ الاستبداد والقمع قد ترك آثاره السلبيَّة وبصماته الانحرافيَّة على كل جانب من جوانب الحياة، وسَلَب الناس فاعليَّتهم، وصادر الإرادة من قلوبهم، واستلبهم، ليكونوا مجرَّد (ROBOT) يتحرك بأداة (REMOTE

(CONTROL) ويملك القدرة على التَّلاعب بأزرارها شخص واحد هو الحاكم المستبدّ أو الفرد. وحين يزول ذلك الحاكم المستبدّ أو الفرد ويطمئن المستلَبون إلى زواله تبدأ دفقات من الرغبة في التأكد من بقايا الإرادة لدى كل إنسان، وإلى أنَّه رغم طول فترة الاستلاب والاستبداد ما يزال الأفراد يمتلكون بقايا فاعليّة وبقايا إرادة، فيقومون بما يشبه حركة طفل عندما يبدأ المشي فيحاول اختبار قدرات رجليه، فيقف، فإذا ارتعشت رجلاه هبط إلى الأرض وربما ضحك وأضحك من حوله لكي لا يُظن أنّه قد فشل، ثم يكرر المحاولة ثانية وثالثة، حتى إذا سار عدة خطوات بعد ذلك فرح وسعد وأحس بالإنجاز وفرح به أهله.

مخاطرالتفتت السلبي وأمثلته

إنَّ الوعي -الذي أشرنا إليه- إن لم يحكم هذه المحاولات الفئويَّة، فإنّها سوف تنتقل من حالة فئويَّة إيجابيَّة، تطالب بالحقوق المشتركة للمواطنين كافَّة، وتنبّه إلى أهميّتها بالنسبة للمجتمع ونُظمه كي ينصفها ولا يسمح بتهميشها إلى حالة سلبيَّة خطرة هي حالة «التفتت». وهي الحالة التي تترتب على ضعف الوعي أو اندساس مندسين، أو وجود عدوّ خارجيّ يتربص بالبلاد. ولدينا نموذج العراق، الذي هدفت أمريكا من احتلاله وإزالة نظام صدَّام وإحلال أصدقائها محلّه إلى إرساء نموذج ديمقراطي يمسح من الذاكرة التاريخيَّة لدى العرب والمسلمين كل آثار الاستعمار السيئة والسلبيَّة، ويُرسي دعائم علاقة جديدة مع المستعمرين الجدد تقوم على ما يشبه الشراكة في ظاهرها. ولكن يستحيل أن تقوم شراكة بين الذئب والغنم بأي حال من الأحوال. ومع كل الضمانات التي قدَّمتها أمريكا، فإنَّ غزوها للعراق قد مهّد لتحويله من القسمة الكبيرة الأوليَّة إلى الأقاليم: «إقليم شمالي: كردستان»، و«إقليم جنوبي: شيعستان»، و«إقليم جنوب غربي: أنبارستان» حيث بدأت عمليّات تفتيت تلك الأقاليم وتفكيكها؛ فكردستان اليوم مثل شيعستان وأنبارستان، كل منها تمرّ بحالات تفتّت خطيرة، بحيث بدأت محافظات عراقيَّة كثيرة تعلن ما يشبه الاستقلال عن المركز في بغداد وعن الإقليم ومراكز الإقليم، ولا يدري أحد كيف يمكن إيقاف حالة التفتت هذه. فالتفتت يوجد مصالح جديدة صغرى للقائمين على تلك المحافظات، يجعلهم يحثّون الخطى نحو الانفصال والتشرذم، وربما تشهد تلك المحافظات صراعات من نوع جديد، وهذا ما نتمنى ألا يقع مثله في أي بلد عربيّ أو إسلاميّ آخر.

إنَّ الأخبار التي جاءت بعد الانتخابات التونسيَّة عن الاضطرابات التي حصلت في مدينة المنطلق «سيدي بو زيد» -التي انطلقت منها الشرارة الأولى- والأصوات التي تعالت بين المتظاهرين الذين أحرقوا كثيرًا من مكاتب الولاية والسيارات وما إليها من الأملاك العامة، وحجّتهم في ذلك كله أنَّ «سيدي بو زيد» هي التي حرّرت تونس وأطلقت الطاقات المكبوتة كلها في العالم العربي، ولكن ما تزال مهمَّشة ولم تحصل على ما يظن أولئك أنَّها يجب أن تحصل عليه، فانطلقوا بذلك الشكل الذي شهدناه في الأسبوع الماضي.

بناء على ما سبق، فلا بد من ضبط إيقاع تحركّات الوقفات الاحتجاجيَّة والتظاهرات والاعتصامات، وإيجاد نوع أو منظومة متكاملة على مستوى الوطن الكبير؛ كي تمنع تلك الوقفات الاحتجاجيَّة أو المظاهرات أو الاعتصامات من أن تشكِّل محاور خاصَّة بها تدور حولها، وتنسى الهدف الجامع الذي لن يتحقَّق إلا بمعالجة مشكلات الوطن كله دون استثناء، وبروح واحدة لا تتحكم فيها الفئويَّة بأيِّ شكل من الأشكال.

الجريمة بين الوحدة والكثرة

يقول الله -تبارك وتعالى- في كتابه العزيز: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) (المائدة:32)، فالقاتل حينما يقتل نفسًا واحدة فإنَّ في ذلك مؤشر على أنَّه يحمل رغبة في «قتل الحياة»، وكأنَّ ما استطاع تنفيذه من رغبته هو قتل تلك النفس، لكنَّ اتجاهاته النفسيَّة وطبيعته تدل على استهانته بالحياة الإنسانيَّة وإقباله على تدميرها واستعداده للقضاء على الناس جميعًا لو استطاع، فتصبح عمليَّة قتل الفرد أو إحيائه رمزًا لاستعداد إجراميّ خطير جدًّا. وكمثل ذلك يُقال فيمَنْ هتك عرضًا أو كشف سترًا، فضروريَّات الإنسان الخمس: «العرض والنفس والعقل والمال والدين»، تندرج كلها تحت مقومات ومكونات الشخصيَّة الإنسانيَّة، فلا بد من المحافظة عليها، وليس لأحدٍ من حق في الاستهانة بعرض أحد، أو الاعتداء على ذلك العرض، ولو بالكلام؛ كأن يقذف إنسان آخر بما يسيء إلى عرضه، حتى لو على سبيل الغمز واللّمز والإشارة، فتلك أمور كلها واجبة الحفظ واجبة الصيانة، وحفظها وصيانتها أعلى وأهم حقوق الإنسان.

لقد استهانت قوات التحالف في العراق وفي أفغانستان وفي باكستان بأعراض الناس وضروريّاتهم الأخرى، وشهدت هذه البلدان المنكوبة انتهاكات لم تعتد عليها، أو كانت تنظر إليها باعتبارها انتهاكات شاذة لا تُقبل بأي حال من الأحوال، ومن أي وعاء صدرت. وشهد سجن «أبي غريب» في العراق انتهاكات مثل هذه. وأذكر أنَّ دعوى رُفعت في الولايات المتحدة من قِبَل بعض المناصرين لحقوق الإنسان ضد اعتقال الأطفال والنساء وضد الاعتداءات الجنسيَّة عليهم، وعُدَّ أمر كشف الحجاب عن المرأة المحجبة -آنذاك- اعتداء على العرض وتحرشًا جنسيًا خطيرًا وفقًا لتقاليد البلد، وصدرت وقتها عقوبات دفعت رئيس الولايات المتحدة إلى إصدار قانون حماية لجنده من المطاردات القانونيّة ضد تصرفاتهم تجاه أهل البلاد المحتلة.

من المعلوم أنَّ مَنْ يحكم العراق منذ سنوات الاحتلال وحتى يومنا هذا -وحتى قبل إعلان سفر القوات الأمريكيَّة التي كانت تقيم في العراق إلى الكويت ووجود قواعدها في المنطقة لتكون جاهزة للعودة في أي وقت ترى ذلك فيه ضروريًا- هو «حزب الدعوة الإسلامي»( )، فهو الحزب الحاكم

في العراق، وهو المسيطر على جميع المراكز الأساسيَّة في السلطة، وهو حزب أسّسه الشهيد الصدر للحيلولة دون إقبال الشباب الشيعيّ على الانخراط في جماعة الإخوان المسلمين المعروفة باتجاهها السنيّ السلفيّ في العراق. كما تأسّس حزب فاطميّ وحزب لذوي القمصان الزرق في ذلك الإطار. وكان أكثر ما استغربته ما كان إثر ما نُشر عن اعتداءات تمت ضد أكثر من أربعمائة من حرائر العراق في سجن أبي غريب من قبل سلطات السجن الأمريكيَّة وقتها، حيث صرَّح السيد الربيعي( ) بتصريحين عجيبين، قال في أولهما: "إنَّ الحكومة العراقيَّة ليست مسؤولة عن هذا السجن أو ما يقع فيه؛ فليس من حقنا أن نتدخل فيها لأنَّها تحت سيطرة القوات الصديقة، وشخصيًّا لا أستطيع الدخول إلى ذلك السجن لأعرف ما يجري فيه"، ثم عاد وصرّح تصريحًا ثانيًا، قال فيه: "لقد سمعت بأنَّ هناك اعتداءات جرت على مئات النساء العراقيَّات في سجن أبي غريب...."، وقال أنَّ الدم قد طفر إلى رأسه لأنَّه عربيّ مسلم لا يقبل الاعتداء على العرض مهما كان، وأنَّه نتيجة لتلك الغيرة الطارئة التي دفعت بالدم إلى رأسه زار السجن فاكتشف أنَّه لا يوجد في السجن أكثر من ستة نسوة كلهن ممن أُلقي عليهن القبض لمساعدة خارجين عن القانون -ولعله يقصد عناصر المقاومة آنذاك- ومع ذلك -والكلام ما يزال للسيد الربيعي- فإنَّه قد تأكد من حسن معاملتهن وعدم وقوع أي اعتداء على شرف أيّ منهن! وكأنَّه -حين ذكر العدد الذي اعتبره العدد الحقيقي- ورأى أنَّ الشائعات ذكرت أنَّ السجينات في أبي غريب كن يتجاوزن الستمائة، وأنَّ الاعتداءات على العرض شملتهن جميعًا أو أكثرهن، كأنّه حاول أن يخفف الامر بأنَّهن لم يكن أكثر من ستة! ونسي الداعية المنسوب لحزب الدعوة -أو تناسى- أنَّ الاعتداء على واحدة كالاعتداء على نساء الأرض كلهن، والاستهانة بعرض واحد تمثِّل استهانة بالعرض، بما فيه عرض سيادته.

وقد لاحظنا أنَّ هذا الاتجاه -اتجاه النظر باستهانة إلى الجريمة إذا ما وقعت تجاه فرد- قد صار شبه سائد، فكثيرًا ما تحدث اعتداءات على سيدة، فيُقال: إنَّها لم تكن إلا واحدة، ثم توجّه الطعون إلى تلك الواحدة بأنَّها لم تكن مستقيمة، أو أنَّها استدرجت البوليس أو جهات التحقيق إلى الاعتداء عليها، فلم يجد المساكين من رجال البوليس أو التحقيق بُدًّا من الدفاع عن أنفسهم بالاعتداء عليها، وإسماعها شتى العبارات القذرة، وربما لمس مواضع من جسمها أو تعريتها أو ما إلى ذلك من اعتداءات! ولعمري إنَّ ذلك لا يخفف من جريمة المجرم؛ سواء أكان من حزب الدعوة أو من حزب الخنازير أو من أي حزب آخر، ولقد رأينا جنودًا إسرائيليّين تشتد بعض أخواتنا الفلسطينيَّات

في مقاومتهم، وقد تقوم سيدات فلسطينيات بضرب بعض الجنود وشتمهم والبصاق عليهم، وفي كثير من الأحيان كنَّا نرى الجنود ينسحبون من أمام السيدات؛ لا لأنَّهم أخيار ولكن ليُروا العالم أنَّهم أناس متحضرون يعذرون هؤلاء النسوة اللواتي غضبن لاعتقال أزواجهن أو أبنائهن أو هُدمت بيوتهن، فلِمَ يتناسى مسلمون ودعاة وأمثالهم هذه القيم؟! ووقد يمتد الأمر فتُتهم المعتدى عليها بأنَّها لم تكن ذات سلوك حسن، فكأنَّهم يقتلونها مرتين؛ مرة بالاعتداء المباشر عليها، ومرة بسلبها شرف تحمل المكروه، وحقيقة كونها حيَّة... إذا كان ثمّة ما يسمى في بلداننا باحترام الضحيَّة وردّ الحقوق إليها.

أمَّا الأمريكان في «أبي غريب» فإنَّ الجنديّ منهم يُربى على أن مهمتك القتل، وأنَّك إن لم تقتل فستُقتل، وأنَّ البلد الذي تذهب إليه كل مَنْ فيه معاد لك، ولا صديق لك إلا سلاحك وضباطك وجنودك في وحدتك نفسها. وقد اطلعت على كثير من المقابلات التي جرت لجنود عملوا في ڤيتنام والعراق وأفغانستان، وأذكر أنَّ أحدهم سُئل في مقابلة من هذه المقابلات عن شعوره في اليوم الذي يقتل فيه واحدًا أو اثنين، وهل يستطيع الأكل والشرب والنوم بشكل عادي؟ فتضاحك بهستريا ليقول للمعلق بعد أن فرغ من ضحكته المجنونة فيقول إنَّه كان في بعض الأحيان لا يجد طاولة يضع طعامه عليها فيسحب جثتين أو ثلاثة من جثث القتلى حوله؛ ليضع عليها صينيَّة طعامه ويأكل مستلذًّا ومستمتعًا بذلك. ولمّا سألته المذيعة: وكيف تستسيغ ذلك؟ قال: لأنَّني عُلِّمت ودُرِّبت على أنَّه إمَّا أنا أو هو، وأنَّني بما دمت حيًّا فأنا الغالب المنتصر وهو قد انتهى وصار لا شيء.

إنَّ مَنْ يُربون على هذه المشاعر من الصعب أن نجد ألفاظًا أو عبارات يمكن أن نستخدمها في بيان لومنا لهم أو احتقارنا لما يفعلون، ولكن حين يكون الإنسان يُنسب إلى الإسلام، أو يُنسب إلى حزب دعوة وينتمي إليه، ثم يستهين بأعراض الناس أو أرواحهم أو أموالهم وينشر الفساد في الأرض فإنَّ ذلك أمر يجب أن يستوقف الباحثين، ويجب أن نبحث عن تفسير للأمر في طرائق تدريب هؤلاء، والأفكار التي وُضعت في أذهانهم وفي القلوب التي تضخ الدم في عروقهم؛ كي نعرف من هؤلاء؟

إنَّ المعتصم العباسيّ حين بلغه وهو في مجلس شرابه -كما ذكر المؤرخون- أنَّ الروم قد اعتدوا على امرأة من نساء المسلمين وضع شيئًا على كأسه، وقال: "لن أُتمّه قبل أن أنتصر لتلك المرأة، وأعود ظافرًا، وأنتقم لهذه المؤمنة من كلاب الروم"، وغزا غزوته الشهيرة وفتح عمُّوريَّة، كبرى حواضر الحدود الروميَّة البيزنطيَّة على حدود الدولة الإسلاميَّة. فمَنْ هم هؤلاء الذين يعتدون اليوم

على أعراض الناس ويستهينون بهم؟ وقد يقولون ويقولون عن ضحاياهم ما يريدون، وما هي الدروس التي يتلقونها أثناء تدريباتهم بحيث يتحوّلون إلى أعداء لشعوبهم ومواطنيهم؟

لقد اعتنت كثير من الكليَّات التي تُعِدّ ضباط الشرطة بإنماء قدراتهم في مجال القانون، حتى أصبح ضابط الشرطة يتخرج بشهادتين: شهادة في العلوم الشُرَطيَّة وأخرى في القانون، ويبدو أنَّ ذلك غير كاف، ولا بد من تضمين تلك البرامج دراسات في الأخلاق والفلسفة؛ فلسفة الأخلاق وحقوق الإنسان وضرورة احترامها؛ لتكون أجهزة الشرطة -في كل مكان- في خدمة القيم العليا للأمَّة، وحراسة أعراض وأموال ونساء وأرواح وأديان المواطنين، فهل من مستجيب؟

الأمن

«الأمن» أعظم نعمة يتطلّع الإنسان للتمتُّع بها بعد الصحة والعافية، فهو حاجة أساسيّة لا يستطيع إنسان أن يستغني عنها، فحياة الإنسان بدون أمن لا يمكن أن تكون تامة أو كاملة. فالأمن يرقى إلى مستوى المقاصد العليا كـ«ـالتوحيد» و«الحريّة» و«التزكية» و«العدالة»؛ ولذلك نجد القرآن الكريم وقد عُني به عناية شديدة، وامتنّ الله -تبارك وتعالى- على قريش بأن آمنهم من خوف: (الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) (قريش:4)، فالطعام قوام البدن «والأمن» قوام النفس والعقل والقلب والفؤاد. وقد أُثر عنه -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- أنَّه قال: "مَنْ أصبح آمنًا في سربه، معافىً في بدنه، عنده قوت يومه، فقد حِيزت له الدنيا بحذافيرها"، أو كما قال صلّى الله عليه وآله وسلَّم. وقد امتنّ -تبارك وتعالى- على المؤمنين بقوله: (وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (الأنفال:26). والدولة لا تقوم إلا على «الأمن»، فهو ضرورة للأفراد وللدول والجماعات والشعوب والقبائل وسواها، ويقول جلّ شأنه: (أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) (الأنعام:82)، ودول العصر تُنفق الجانب الأكبر من ميزانيّاتها على قوّاتها الأمنيّة وجيوشها، وكل ما يستلزمه أمنها من إعداد قوة ورباط وما إلى ذلك، ومَنْ لم يجد ما يُحقّق به «الأمن» فهو عرضة للاستضعاف بكل مستوياته.

وعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- اشتهر بالاهتمام بـ«ـالأمن»، وتحقيقه لكل منتمٍ إلى دار الإسلام، سواء أكان مسلمًا أو غير ذلك، وكان يحافظ على أمن الناس من قضاته وبهم، ومن عمّاله وبهم كذلك، بحيث تشعر أجهزة الدولة كلُّها -القضائيَّة والتنفيذيَّة والسياسيَّة- أنَّ مهمتها الأولى والثانية والثالثة والعاشرة هي جعل جميع المنضوين تحت راية الأمَّة المسلمة والدولة المسلمة يعيشون في أمان، لا يخافون إلا الله والذئاب على أغنامهم. ووصلت حساسيّة عمر -ومَنْ سار على دربه من خلفاء المسلمين- أن اعتبر ما لا يمكن تحقيق «الأمن» دونه واجبًا من أهم الواجبات؛ ولذلك قال قولته المشهورة: "لو أنَّ جملًا على شط الفرات زلق، فهلك ضياعًا، لخشيت أن يُسأل عنه عمر: لِمَ لم يُعبّد له الطريق"، فحساسيّة ضميره باعتباره رئيسًا للدولة جعلته يشعر بأنَّ مسؤوليّته تتجاوز البشر إلى الحيوان والحجر، فعليه أن يُعبّد الطرق، ويُوفّر المياه والغذاء، ويُؤمّن

السبل، ويحمي الناس في بيوتهم وطرقهم ومدنهم وقراهم من سائر الأخطار، بما في ذلك الأخطار الطبيعيَّة.

و«الأمن» -أمن المواطنين والمنتمين إلى الأمَّة- مقياس لقوّة الدولة وسلامتها، واستقامة القائمين عليها وعدالتهم، فإذا اختلّ الأمن فإنَّ كل ذلك البريق يصبح مجرد أسماءٍ فارغة لا قيمة لها، فمهما لُقِّب الحكّام وأُطلق عليهم، ونطق الشعراء بقوَّتهم، لا يمكن أن يشفع للدولة أو يعفيها من تحقيق الأمن لكل مَنْ وما على أراضيها.

لقد استطاعت بلدان أوربيّة وأمريكيّة وسواها أن تحقّق إنجازات كبيرة، لكن حين تفشو الجريمة ويفقد الناس أمنهم لا يشعرون بقيمة تلك الإنجازات، ولا يستطيع كثيرون منهم التمتُّع بها والإشادة بمَنْ حقّقوها، وقد يغترب الإنسان عن مجتمعه، ويشعر بالانطواء وهو يعيش في مدن كبرى عامرة، فيها أنواع ومستويات عديدة من المؤسَّسات الأمنيَّة، ولكنَّها لا تستطيع أن تُحلَّ في قلبه ووجدانه "الأمن" الذي يتطلّع إليه.

إنّ فمفهوم «الأمن» مفهوم قرآنيّ من أهم وأخطر المفاهيم التي تشتدُّ حاجة أمّتنا إلى الوعي بها وفهمها، وإدراك طبيعتها، وكيفيَّة تحقيقها في حياة الأمّة. وقد ورد في القرآن المجيد بصيغ عديدة، منها المصدر، كما اشتقّ منه اسم «الأمانة» و«الإيمان».

و«الأمن» طمأنينة النفس، وانعدام الشعور بالخوف والقلق والتهديد لكل ما يهمّه من ضروريّات وحاجيّات وتحسينيّات؛ ولأهميّة مفهوم «الأمن» عدّه بعضٌ كلمة «التوحيد»، وفسّرها به؛ لأنّ الأمن لم يكن يتحقق إلا بها، وقال بعضهم: إنّه «العدالة»؛ لأنّها الركن الَّذِي لا تتحقق الطمأنينة إلا به.

وقال بعضهم: "إنَّه «الحريّة» التي تجعل الإنسان يتصرف وملؤه الإحساس بأنّه آمن، لن يُحاسب أو يُعاقب أو يُلاحق؛ لأنّه آمن. و«الأمن» في الحقيقة يتوقف على ذلك -كلّه- وكل ما ذكرنا هو من متطلّبات الشعور بالأمن؛ فلا بد لـمَنْ يُريد الوصول إلى حقيقته والاستمتاع به، وجعله حالة نفسيَّة يحياها القلب، وتستشعرها النفس، ويطمئن بها الفؤاد والوجدان من الارتباط بالله وتوحيده، وتزكية النفس وتطهيرها، والتمتّع بالعدالة والحريّة والمساواة. وقد امتنّ الله -تعالى- على البشريّة «بالحرم الآمن»:(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ) (العنكبوت:67)، وقال جلّ شأنه: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا) (البقرة:125)، و امتـنّ الله -تعالى- على قريش بأنّه: (أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (قريش:4).

و«المأمن» هو المنزل الَّذِي يطمئنّ الإنسان فيه، ويشعر بالسكن والطمأنينة، ويُزال به الخوف لوجود مَا يؤدّي بالإنسان إلى الشعور بحالة «الأمن». ووسائل تحقيق الأمن كثيرة؛ أهمّها أن تكون هناك منظومة أخلاقيّة يلتزم بها أبناء المجتمع، فيطمئن الإنسان في إطار هذه المنظومة الأخلاقيّة؛ لأنّه لا يتوقع من أيّ أحد أن يتجاوز عليه، أو يتعدّى عليه، أو يُصادر حقوقه. وكذلك نظام العدل يجعل الإنسان آمنًا مطمئنًا للعيش في ظلاله، لا يخشى أن يضيَّع له حق، أو يُفرض عليه شيء بظلم.

وقد يجد الإنسان في «السِّلم» أمنًا، ولا يجد ذلك في حالة «الحرب»، و«استجارة» غير المسلم بالمسلمين ليسمع كلام الله -تعالى- تُوجب عليهم إجارته حتى يسمع كلام الله تعالى، ثم عليهم أن يقوموا بحمايته إلى أن يصل إلى مأمنه؛ أي: إلى المكان الَّذِي يأمن فيه على دياره وديار ذويه، وقد جعل الله -تعالى- بيته المحّرم آمنًا، بحيث يشعر داخله بـ«الأمن والطمأنينة» في قلبه ونفسه ووجدانه؛ ولذلك فقد نهى الله -جلّ شأنه- أن يُنفّر صيد الحرم، أو يُقطع شجره، أو يُعرّض اللّائذ به للخوف؛ ليكون نموذجًا للأرض كلّها -وهي التي استُخلف آدم وبنوه فيها ليقوموا بعمرانها- للأمن والحق والعدل (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود:61) ولا يمكن تحقيق مقاصد الشارع الحكيم في «التوحيد» و«التزكية» و«العمران» بدون حياة آمنة مستقرّة، يسودها «السلام» و«الأمن»، وتغمرها «الطمأنينة».

و«الأمن» مطلب إنسانيّ عالميّ، سلك البشر مختلف السبل ابتغاء الوصول إليه، لكنّ تلك السبل والوسائل -التي توسّلوا بها لتحقيق هذه الغاية في بلوغ «حالة الأمن»- كانت جلّها -إن لم تكن كلّها- مناهج إنسانيّة، وطرقًا بشريّة نسبيّة.

إنّ بعض الحكّام من أبناء هذه الأمّة نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأوهمهم شياطينُهم أنّ أمنهم وأمن نظمهم، وخلاصهم وخلاص نظمهم هو في خارج بلدانهم، بعيدًا عن أمّتهم، فاستقووا بهم على أمّتهم، ونفّذوا للأجنبيّ كل ما كان يحلم به؛ لقد كانوا يتسابقون لإرضائه فينفذون ما يتوهّمون أنّه يجب أن يفعلوه، فيحقّقونه له قبل أن يطلبه، حتى إذا لم تعد به إليهم حاجة ألقى بهم كما يُلقي بعقب سجارة غير مأسوف عليهم.

ومع أنّ هذه الحالة قد صارت ظاهرة مطّردة منعكسة في كل من هؤلاء لكن لم تجد لاحقًا منهم قد اتعظ بسابق، لا في القديم ولا في الحديث، بل يأتي اللّاحق والوهَمُ يستبّد بأنّه مختلف ولديه مناعة مما حدث لغيره.

ولو علم هؤلاء أنّ الخارج والجهات الخارجية ليست مؤسسات خيريّة، ولا جمعيات تطوعيّة، نذرت نفسها -أموالها وجهودها- لحماية الضعفاء والمظلومين والمضطهدين، بل هي دول ومنظمات كبرى مليئة بالمطامع، مشحونة بالطموحات، تسعى إلى تحقيق مصالحها وخدمة أهدافها، ولا ترى في عمليات الاستقواء بها والاستنصار إلا مداخل سهلة تفسح لها المجال لتحقيق تلك المطامع والطموحات. والتاريخ حافل بالأمثلة على ذلك، وأمّة كالأمّة المسلمة -في عظمتها واتساعها وتاريخها وتنوع شعوبها ومواردها- إن لم تستطع أن توحّد كلمتها وتُشكل كيانًا موحدًا، فلا أقل من أن تشكل مؤسسات ومنظمات ووسائل تستطيع أن تُعين شعوبها وأبناءها على معالجة مشكلاتهم وتجاوز أزماتهم، والخروج من المآزق التي قد يسقطون فيها نتيجة بغي الخلطاء بعضهم على بعض.

ليت الأمّة المسلمة أقامت لنفسها آليات لفضّ المنازعات، ومؤسسات لمعالجة الاختلافات التي تُعد من الأمور الطبيعية حتى في داخل الأسرة الواحدة، فلا بد من محكمة إسلاميّة عليا تتولى معالجة القضايا التي يمكن أن تتأزم وتتحول إلى مشكلات إذا لم تجد مَنْ يُعالجها أولًا بأول، وكذلك تفعيل المنظمات الإقليميّة والإسلاميّة لتحقيق هذه الأغراض، ومحاصرة المنازعات والمشكلات.

مصطلحات سياسية معاصرة

يتواصل الناس فيما بينهم، فيتبادلون أفكارًا، أو يُسيّرون أمورهم –سواء عظيمة أو هينة- من خلال اللغة المشتركة بينهم، فاللغة وسيلة تواصل هامة للإنسان. وتدخل اللغة باستمرار مصطلحات جديدة تبعًا للحاجة لها. وربما دخلت مصطلحات بمعان غير محددة تمامًا، أو ربما دخلت مصطلحات وتغير معناها مع الوقت؛ لذا فمن المهم مراجعة ما يرد من جديد المصطلحات، أو تحديد ما مُوّه معناه مع الزمن؛ ليمكننا التواصل بفهم واضح فيما بيننا، ولندرك ما لتلك المصطلحات من تأثير في وعينا الجمعي مع مرور الزمن.

مصطلح «الشرق الأوسط»

لقد استمعنا خلال الأسابيع القليلة الماضية إلى العديد من المصطلحات التي تعبّر عن مزيد من الحيرة والقلق والاضطراب الفكري والمعرفي الذي يعاني منه أبناء المنطقة المسمّاة «الشرق الأوسط»، وهي المنطقة التي كانت تُعدّ قلب «دار الإسلام» أو «دار الإجابة» أو ديار «أمّة الإجابة» أو «العالم العربيّ»، والتي لم يعد شيء من ذلك كله يُطلق عليها منذ بدايات الاستعمار والاستحمار لها ولأقطارها. فهذه المنطقة العزيزة من العالم الإسلاميّ -التي تمثل منطقة عربيَّة تشمل الجزيرة العربيَّة والأقطار المحيطة بها- أُفقدت هُويَّتها عن عمد وسبق إصرار، وزُيّف اسمها حتى نسي الناس أصلَه الحقيقي، فصارت تُعرف بـ«الشرق الأوسط»، أو جزء من دول البحر الأبيض المتوسط، أو منطقة النظام الإقليميّ العربيّ. وصارت تُسمى منذ الحرب العالميَّة الثانية - في سائر الدراسات الغربيَّة ووسائل الإعلام والعلوم الاجتماعيَّة- «منطقة الشرق الأوسط»، يُضيف عليه بيريز لقب «الكبير» ويقوله الآخرون مجرّدًا: «الشرق الأوسط» فقط، ولم يُسائل أحد نفسه: شرق بالنسبة لـمَنْ ولماذا، وأوسط بالنسبة لـمَنْ ولماذا؟ وأين أسماؤه الأخرى التي كانت تُطلق على هذه المنطقة؟

ما وراء مصطلح (الشرق الأوسط)

إنّ تسمية المنطقة بـ«الشرق الأوسط» تسمية يردّدها المنتمون إلى المنطقة مقلّدين، ويُطلقها أبناء القوى العظمى وهم يعرفون أنَّها تسمية منحازة غير حقيقيَّة، لا تعكس أي شيء ذاتيّ بالنسبة لهذه

المنطقة، بل هي تسمية أوروبيَّة محضة، على اعتبار أنَّها -المنطقة- تقع شرق أوروبا. فلماذا تُطلق هذه التسمية على هذه المنطقة العربيَّة الإسلاميَّة؟ لأنَّهم يريدون من كل مَنْ يعيش فيها أن ينفصل عن هويته ويتبرأ منها وينساها تمامًا، حتى من خلال الاسم. هذه ناحية، والناحية الأخرى ألا يُربط بين المنطقة وبين الدين واللغة والتاريخ والمستقبل بأي رباط، وتصبح منطقة مفتوحة، يدخل فيها مَنْ تشاء القوة العظمى أن تُدْخله، ويخرج منها مَنْ تريد القوة العظمى أن تُخرجه، فمرّة تعد إيران وتركيا وباكستان جزءًا منها، بحيث يمكن أن ينتظمها حلف مثل حلف بغداد في الخمسينات، ويمكن أن توسع بعد ذلك لتشمل إسرائيل، وفي الوقت نفسه تقطع الصلة بينها بتلك التسمية -«الشرق الأوسط»- وبين دول وبلدان المغرب العربي، فالشرق شرق والغرب غرب، علمًا بأنَّ تلك الدول المغاربيَّة تنتمي إلى ذات الهُوِيَّة التي ينتمي إليها عرب هذه المنطقة التي حُرّف اسمها ليصبح «الشرق الأوسط»، وهذه التسمية لا تنزع عنها الهُوِيَّة الإسلاميَّة للمنطقة فقط، بل تنزع عنها الهُوِيَّة العربيَّة أيضًا، وتحوّل مفهوم الوحدة بينها -سواء أكانت من منطلق قوميّ أو ثقافيّ- إلى مفهوم خياليّ لا يسنده الواقع. يفتح ذلك الأمر -في الوقت ذاته- المجالَ أمام إسرائيل لتصبح جزءًا من هذا الذي سموه بـ«الشرق الأوسط»؛ ليتمكن بيريز -رئيس وزراء إسرائيل- أن يكتب عن الشرق الأوسط الكبير الذي تقوده إسرائيل.

أصل هوية منطقة (الشرق الأوسط)

إنَّ هذه المنطقة تقوم هُوِيَّتها الحقيقيَّة على مضمون ثقافيّ يمثل التلاحمَ فيها من المحيط الأطلسي حتى الخليج، وأوجد فيها تلك المنظومة المتميزة من القيم المشتركة والمقاصد والغايات والأهداف المشتركة، وأوجد ذلك التجانس العجيب بين أقطارها، فكانت -حتى مدى قريب- تتحرك كلها بأحداث معينة وتتأثر بها -مجتمعة- سلبًا أو إيجابًا. إنّ هذا المضمون قام على انتشار الإسلام فيها، وهو الذي أوجد التجانس القائم بين أبنائها وأقطارها بقيمه المشتركة التي بناها. وإن كان الإسلام لا يقف عند حدود العروبة والمنطقة العربيَّة، بل يتجاوزها إلى مناطق أخرى في العالم هي التي يُطلِق عليها البعض «العالم الإسلاميّ» فيُوجِد مستوى آخر من مستويات التجانس، بحيث يصبح هذا الذي عرف بـ«العالم الإسلاميّ» بمثابة محيط أو عمق استراتيجي للمنطقة العربيَّة والعكس؛

ولذلك فقد كان لا بد من تقديم تعريف للمنطقة العربيَّة نابع من المنظور الحضاريّ الإسلاميّ العربيّ( ).

مصطلح «الدولة الدينيَّة»

ولم تقتصر فوضى المفاهيم والمصطلحات على مصطلح «الشرق الأوسط»، بل تجاوزت ذلك إلى مفاهيم أخرى، فقد صمّ الإعلاميّون الآذان بالكلام عن «الدولة المدنيَّة» والتأكيد عليها، ورفض ما سموه بـ«ـالدولة الدينيَّة والعسكريَّة» وما إلى ذلك؛ ولأنَّ أحدًا من هؤلاء لم يقدم لنا تفسيرًا للـ«ـدولة الدينيَّة» ولا للـ«ـدولة المدنيَّة» يبين خصائص ومزايا ومواصفات كل منهما فقد جعلوا في الأمر نوعًا من الفوضى، بحيث صار كلٌّ يفسر هذه المصطلحات بحسب ما يحمل من أفكار( ).

إنّ الليبراليّين من أبنائنا والعلمانيّين يخشون السقوط في «الدولة الدينيَّة»؛ ولذلك فقد حذّروا بشدة -بلغت حدَّ تخويف الأقليّات الدينيَّة- من الوصول إلى الدولة الدينيَّة، وهم يعرفون أنَّ المسلمين لم يقيموا عبر تاريخهم «دولة دينيَّة»؛ ابتداءً من الخلافة الراشدة وانتهاءً بالدولة العثمانيَّة التي انتهت في مارس 1924.

إنَّ -«الدولة الدينيَّة»- نبتت في الخبرة الأوروبيَّة، واتسمت بفقدان المرونة والجمود التام لارتباطها بمؤسسة الكنيسة التي اعتبرت وحدها المصدر لصياغة القواعد التي تسير عليها الدولة، وأضفت على تلك القواعد -التي تتعلق بالشأن المدنيّ والمعاشيّ- صفة القداسة، فمزجت بين المقدس وما ليس كذلك، وبذلك لم يعد من الممكن أن تستجيب للتطور الاجتماعيّ أو لمقتضيات التحول والتغير، وحصرت تأسيس المبادئ وتفسيرها بأيدي رجال الكنيسة، الذين سرعان ما تحوّلوا إلى طبقة اجتماعيَّة مهيمنة على كثير من المصالح الاقتصادية التي وُظّف الدين لخدمتها ولتحقيق مصالحها، مما أدى إلى انفصال طبقة رجال الدين عن القوى المنتجة في المجتمعات الأوروبيَّة وتفاعلها، ووقفت في موقع اجتماعيّ مناوئ لسائر تلك الفئات، وبذلك أصبح الأوروبيّ والأمريكيّ -وكل الذين تأثروا بقواعد التفكير المشتركة التي أسسها الفكر الغربيّ في عالمنا المعاصر- أصبح هؤلاء تحت سيطرة رعب تام كلما ذُكرت «الدولة الدينيَّة»؛ لأنَّ الذاكرة التاريخيَّة قد ربطت بين ذلك النوع من الحكم وبين ما ذكرناه من قسوة وجمود وخلط للمقدس

بغيره، وإضفاء صفات القداسة والنصوصيّة وعدم جواز التغيير أو التطوير لأي شيء تشرّع الكنيسة له، فصار مجرد ذكر «الدولة الدينيَّة» يثير الرعب والخوف.

ولقد أجهض الإعلام المعاديّ للاتجاهات الإسلاميَّة في الجزائر ثورة الإنقاذ برفعه شعار «الدولة الدينيَّة»، وأنَّ جبهة الإنقاذ سوف تؤسس «دولة دينيَّة» كتلك الدولة التي أسستها الكنيسة في أوروبا، التي انبثقت عنها كل تلك المجازر والمصائب التي ما يزال التاريخ الأوروبيّ يذكرها بكثير من الأسى. وفي مصر اليوم يرفع بعض الإسلاميّين ذات الشعار؛ أي يدّعون أنَّهم يعتزمون إقامة «دولة دينيَّة»، لا يعنون بذلك «دولة إسلاميَّة»، بل تلك الدولة ذات الصورة المخيفة في العقل الأوروبيّ، فالمطلوب إذن هو الوعي بمفهوم «الدولة الدينيَّة» ومعرفة الفروق بين البرامج المعلنة للفئات الإسلاميَّة الانتخابيَّة، التي أعلنت أنَّها تعمل لتحقيقها، فعلى الإسلاميّين وإعلامهم أن يميّزوا بين «الدولة الشرعيَّة» التي تستمد شرعيّتها من التراضي بين الأمَّة وقيادتها، والتعاون على تحقيق شرعيَّة الدولة ومؤسساتها، وإيجاد المؤسسات الضامنة لعدم خروج أيَّة مؤسسة من مؤسسات الدولة عن الشرعيَّة، وتوضح الفرق بين «الدولة الدينيَّة» في الذاكرة الأوروبيَّة و«الدولة الشرعيَّة» التي يفترض أن يسعى لإقامتها الليبراليّ والعلمانيّ والإسلاميّ بمستوى واحد.

لكنَّ هناك شيئًا آخر لا بد لنا من الإشارة إليه، ألا وهو التجارب الإسلاميَّة الحديثة في العالم العربيّ، فلقد قامت تجارب لتطبيق نظام حكم يراه أصحابه حكمًا إسلاميًّا، فقامت «الدولة السعوديَّة» الأولى على التحالف الذي حدث بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود، وقامت «الدولة السنوسيَّة» في ليبيا، وقامت «الدولة المهديَّة» في السودان، وهذه الدول في حاجة إلى دراسة تاريخها وممارساتها للحكم، وتقييم كل منها، وتحديد آثارها، ومعرفة مآلات كل منها وما انتهت إليه، ثم ما أعقبتها من حكومات أخرى أعطت لنفسها صفة الإسلاميَّة، ونادت بما سمّته «تطبيق الشريعة» حسب فهمها، والذي يكاد ينحصر في النظام العقابي وقضايا الحدود، حدث ذلك بالنسبة لطالبان في أفغانستان، وفي إيران وفي السودان وفي باكستان، وفي بعض المناطق النيجيريَّة، وفي بعض مناطق الصومال، ورأى الناس كافَّةً صورًا أقل ما يُقال عنها أنَّها كانت صورًا شائهة وغير دقيقة، وما كان ينبغي أن تُعرف بوصفها تطبيقًا للشريعة الإسلاميَّة أو للإسلام في أقل الأحوال.

لقد عرض حكم طالبان مجموعة وقائع لرجم أو جلد نساء بتهمة الزنا بصورة أدّت إلى نفرة نساء العالم -ومنهن النساء المسلمات- من ذلك النظام. كذلك بعض ما حدث في السودان ونيجيريا

وباكستان وما إلى ذلك، ورأى الناس أنَّ بعض هذه الدول ضربت أرقامًا قياسيَّة في الفساد والتخريب وعدم الانضباط واستغلال النفوذ والاستئثار على فصائل الشعب الأخرى، فيمكن أن يُقال: إنَّها سياسات ليس بينها وبين الإسلام نسب.

الإسلاميون بين الدعوة والسياسة

واستمرت الحركات الإسلاميَّة المختلفة في توثّبها إلى السلطة، ورغبتها في الوصول إليها في بلدان مختلفة، فقدّم الإسلاميّون في تركيا -بقيادة حزب «العدالة والتنمية»- نموذجًا متميزًا، سرعان ما اكتسب تعاطف وولاء الجمهور التركي؛ ولذلك فإنَّه قد أحدث تأثيرًا هامًّا في الحياة التركيَّة، جعل الإسلاميّين يكسبون في صفوفهم كثيرًا من الليبراليّين الأتراك والقوميّين، وجعلهم يزعزعون كثيرًا من مسلَّمات عهد أتاتورك، ويفرضون على القوى والمؤسسات العلمانيَّة المتطرفة أن تفكّ قبضتها عن السيطرة والهيمنة على مقدّرات الشعب التركيّ، وأعادت الحريّة إلى المرأة التركيّة دون تدخل يفرض عليها ارتداء لباس معين، فإن شاءت ارتدت الحجاب وإن شاءت تخلّت عنه. في حين كانت حريّة المرأة مصادَرَة في ظل الحكومات العلمانيَّة التي لم تأذن لسيدة -انتخبها الشعب لتكون عضوًا في البرلمان- أن تدخل ساحة البرلمان وقد غطّت شعرها، فأصبح الإسلاميّون الأتراك في نظر الشعب التركي دعاة للحريَّة وحماة لها وليس العكس.

إنّ الاتجاهات الإسلاميَّة التي اختارت ممارسة العمل السياسيّ ما تزال -وهي تتقدم باتجاه البرلمان وقبة الحكم- تسلك سبيل الدعوة لا الدولة، فحين يقول أحد الإسلاميّين لسيدة تحاوره في قناة فضائيَّة: "تحجبي قبل أن يفرض عليك الحجاب"، هذا كلام لو قاله داعية لم يتقدم لممارسة دور سياسيّ قد يُقبل منه، لكن حين يقوله إنسان يرشّح نفسه للبرلمان أو مجلس الشعب، قد يصبح غدًا أو بعد غد وزيرًا يمارس سلطة تنفيذيَّة، فإنَّ من حق هذه السيدة أن تشعر بالخطر على حرّيتها حال وصول هذا الشخص لموقع السلطة. وإذا كان الله -تبارك وتعالى- في قضيّة التوحيد -التي هي أساس الإسلام وسنامه- لم يُكره أحدًا على قبوله، ولم يأمر نبيه -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بإكراه أحد على ذلك، بل -على العكس- نهاه عن ذلك، وقال: (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس:99) وقال: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)(البقرة: 256)، فهل يمكن لأحد أن يظن أنَّ من حقه أن يُكره فتاة اختارت أن تكشف شعرها على تغطيته؟ أو اختارت أن تكشف وجهها على تغطيته بالنقاب؟

وهنا أود أن أحيل إلى مقالة سالفة لي بعنوان «الإسلاميّون بين الدعوة والدولة»، والتي ذكرت فيها ما ينبغي أن يتذكره أصحاب البرامج السياسيَّة والذين يتقدمون للأمَّة من الإسلاميّين ببرامج

سياسيَّة، ليدركوا تلك الفروق الهامَّة والدقيقة بين الدولة والدعوة، فالداعية من حقه أن يدعو إلى النقاب وإلى غيره، وأن يعرض مذهبه بأدلته، وأن يعرض فقهه على الناس، ولكن ليس من حق السياسيّ أن يفرض على الناس مذهبه أو رؤيته الشخصيّة، بل عليه أن يفهم بأنَّ الحريَّة في الإسلام قيمة تعد في الدرجة الثانية بعد التوحيد.

مما تقدم يتبين أنَّه لا علاقة بين «الدولة الشرعيَّة» و«الدولة الدينيَّة» بما في ذلك الدولة الشرعيَّة التي تستند إلى الدين في شرعيَّتها.

الدولة المدنية

إنّ «الدولة الشرعيَّة» و«الدولة المدنيَّة» من المصطلحات التي ملأت الفضائيَّات والصحف وسائر وسائل الإعلام في هذه المرحلة، و«الدولة المدنيَّة» هي النموذج الذي طرحه الغربيّون في أوروبا ليكون بديلًا عن «الدولة الدينيَّة» الكنسيَّة في خبرتهم الحضاريَّة، وفي الدولة المدنيَّة تصبح الحريَّة أعلى القيم، تتقدم على التوحيد وعلى العدالة وعلى أيَّة قيمة أخرى، والدستور والقانون وسائر المؤسسات تعد ضمانات للحريَّة المذكورة، والأساس الفلسفيّ الذي تستند إليه «الدولة المدنيَّة» هو الفرديَّة، أمَّا المنطق الذي يسودها فهو العقلانيَّة أو المصلحة الرشيدة كما يراها الخبراء. وتفترض «الدولة المدنيَّة» التعدد في بنية المجتمع، وتعالج إشكاليَّة التضارب بين المصالح بالقانون، الذي يُعد ضرورة لازمة لترويض الناس كافّة لقبول ذلك التعدد، ولقبول التحديدات والقيود التي توضع على مصالحهم. وتُعد المصلحة العامَّة في «الدولة المدنيَّة» هي المصلحة المنبثقة عن توازن القوى، بحيث تمثّل ما يشبه الاتفاق بين الإرادات المتعددة التي تقوم الدولة عليها، وليست هناك معايير تضبط هذه المصلحة العامَّة أو تميّزها؛ ولذلك تتخذ القوى الاقتصاديَّة وزنًا كبيرًا في تحديد المصلحة؛ ولذلك تصبح السياسات والقرارات -في النظام الذي تقوم «الدولة المدنيَّة» عليه- انعكاسًا لميزان القوى بين أطراف الصراع، فهي لها وعليها، وهي «دولة ليبراليَّة»، ولا تستطيع أن تحسم عمليَّة تصارع القوى بشكل حاسم. وإذا لاحظنا الأنظمة الأوروبيَّة والنظام الأمريكيّ -القائم على نظام الحزبين- فذلك سوف يوضح لنا الكثير من مزايا وعيوب «الدولة المدنيَّة».

وهناك الدول التي تسمى نفسها بـ«الدول العقائديَّة» كالدول التي أقامتها «الماركسيَّة اللينينيَّة» في الاتحاد السوفيتي وغيره، فهذه الدول في الحقيقة تمثل الامتداد العكسيّ للـ«دولة الدينيَّة» ويأخذ الحزب فيها مقام الكنيسة الذي كان.

عند النظر في ذلك كله نستطيع القول بأنَّ أفضل النماذج التي تناسب بلداننا هو نموذج «الدولة الشرعيَّة»، وهي التي تستمد شرعيَّتها من القيم والمقاصد الأساسيَّة التي اجتمعت كلمة الأمَّة عليها، ومن الرضا الشعبيّ العام، الذي لا يستثني أيَّة فئة من فئات الشعب لدين أو لون أو لمذهب أو لانتماء حزبيّ أو ما شاكل ذلك، ولعل أولئك الذين يخرجون لحوارات في الفضائيَّات وفي غيرها يبذلون شيئًا من الجهد في تحرير المصطلحات والمفاهيم التي يجري تداولها، ولا يجعلون المستمع في مزيد من الحيرة والقلق وفقدان الثقة بكل شيء، فما أشد ضرر من يهرف بما لا يعرف على عقول الناس.

ونسأل الله للجميع التوفيق.

الغرب والعلاقة مع الشعوب العربية

الأحداث الجارية في العالم العربيّ والتي تلاحقت بشكل ملحوظ لفتت الأنظار بشدة إلى أبعاد كثيرة منها الإيجابيّ وهي الأكثر، ومنها السلبيّ وهو الأقل. أمّا الإيجابيّ فلأول مرة يُظهر الغرب حرصه على أن تكون علاقاته بالشعوب العربيّة المسلمة هي الأصل، وعلاقاته بالحُكّام المستبدين هي الفرع أو الجزء الجانبي من تلك العلاقة. ففي تونس استطاع ابن علي أن يحمل فزاعة الإسلاموفوبيا ويبيعها على الغرب، مقنعًا إياهم بأنّ البديل عن ديكتاتوريته واستبداده في تونس وتخليه عن أي فعل ديمقراطي جاد وصادق أمر ضروري لمكافحة الإرهاب ودرء خطر الإسلاموفوبيا، وحتى حين كان يقال له: الإسلاميون في تونس معتدلون ميالون للديمقراطيّة يتقبلون مبدأ تداول السلطة، كان دفاعه مستمرًا أنّ هؤلاء منافقون في هذا الذي يظهرونه، ولو تمكنوا فلن تجدوا منهم أي صدق في هذا المجال، وسيظهرون على حقائقهم طُلّاب خلافة شموليّة مستبدة، يتمتع الخليفة فيها بكل الصلاحيّات دون حساب ودون مؤسسات، يكفيه أن يطبق الشريعة فيقطع يد السارق ويجلد أو يرجم الزاني ويجلد شارب الخمر وما إلى ذلك. فيسكت الغرب خاصّة وقد وجد أنّ العمليّة الديمقراطيّة في الجزائر دائمًا تأتي لهم بالإسلاميين مما يجعلهم يشعرون بكثير من القبول لتحذيرات ابن علي وأمثاله من أن الديمقراطيّة قد يستغلها الإسلاميون حتى إذا بلغوا السلطة وأمسكوا بها تنكروا للديمقراطيّة وانصرفوا إلى عمليّة تطبيق الشريعة وتنكروا لكل ما أعلنوه. وقد يضربون على ذلك أمثلة في نظم قائمة في بعض البلدان المسلمة، وهكذا فعل صدام من قبل، وفعل مبارك وآخرون.

ولكن بعد أن أفسدت هذه النظم ولم يعد فيها أي جانب من جوانب الصلاح يمكن لإنسان غربي يؤمن بالحريّة والديمقراطيّة أن يتقبله؛ ثمّ انطلقت شرارة الثورة الشعبيّة في تونس أشعرت أمريكا والقوة الغربيّة ابن علي بعد تردد بأنّها لن تقف معه ولن تدافع عن نظامه إذا أسقطته الجماهير الشعبيّة، ولن تبارك له لو أراد قمع تلك القوى الشعبيّة بالقوى، بل ستعمل على المحافظة على هؤلاء الجماهير وعلى المحتجين وعلى حقوقهم الإنسانيّة. وحين اشتعلت ثورة مماثلة لها في مصر، وانطلقت من ميدان التحرير لم يكن موقف الغرب من حسني مبارك مخالفًا لموقفه من ابن علي. فما الذي حدث؟ أهو تغير في وسائل التغيير من الاغتيال السياسي إلى الانقلابات العسكريّة إلى الاحتلال إلى الثورات الشعبيّة، أم هو إدراك بأنّ المصلحة المستقبلية للغرب تكون علاقاتها مع

شعوب المنطقة لا مع حكامها ؟ ولذلك فما دامت الشعوب قد سلكت سبيلها للتعبير عن نفسها وتعلمت كيف تشق طريقها إذًا فلابد من إفساح المجال لها وعدم اعتراض سبيلها، وأنّ احتياجات الشرق إلى الغرب والغرب للشرق سوف تجعل أمر بناء علاقات مع هذه الشعوب تحقق المصالح الغربيّة ولا تخل بها أمرًا ممكنًا ومتاحًا. الأمر مطروح للنقاش.

الإسلاميون بين الأمة والدولة

كثير ممن يشرفونني بالزيارة يثيرون أسئلة، منها تساؤل عن «متى؟» بدأ الإسلاميون المعاصرون طريقهم إلى السلطة و«إلامَ» سينتهون؟ وكثيرًا ما أسمع تساؤلاتهم وأستمتع بحواراتهم دون تدخل مني، فإذا حَمِي النقاش بينهم ووصلوا إلى ما يشبه الطريق المسدود قد يلتفت بعضهم إليَّ التفاتة مَنْ نسي شيئًا ثم تذكره، ليقول: لم نسمع رأيك يا فلان، فأغمغم بما قد يناسب اللحظة، ويوقف سخونة الجدال، أو أنقلهم إلى موضوع آخر ضاربًا الذكر صفحًا عن ذلك الموضوع! لكن كثرة ترديد الموضوع على مسامعي جعله يشغلني، سواء كنت مع الناس أو خاليًا بنفسي، وقد خطرت لي خواطر لا ترقى إلى مستوى الرأي في هذا الموضوع، فرأيت أن أُعجِّل في طرحها لعلّ في طرحها ما يفيد في الوصول إلى رأي يساعد على الإجابة الدقيقة على التساؤل المذكور، فأقول وبالله التوفيق:

أمّة أم دولة؟

لقد كانت بداية المنطلق للمسير نحو السلطة تطرح سؤالاً خاطئًا، ذلك السؤال إذا أردنا إتقان صياغته ووضعه بشكل دقيق جعلناه: ما الذي أسسه رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- في المدينة المنورة بعد هجرته إليها؟ أهو الأمَّة -ومنها المجتمع المدنيّ التوافقيّ- أم هو الدولة؟ فأمّا مَنْ قالوا أنَّها الأمَّة، والنموذج الأصغر هو ذلك المجتمع التوافقيّ، فإنّ ذلك يعني أنَّ الدولة ستكون مؤسسة من مؤسسات الأمَّة، للأمَّة أن تجتهد في تأسيسها في أفضل شكل وأحسن إطار، دون تقيّد بشكل معيّن تاريخيّ، ولعل هذا كان فهم الأكثرين من أولئك الذين قبلوا من الأمَّة أن تأخذ بكل الأشكال السياسيَّة التي عرفتها الأرض إلا الأشكال الظالمة، فأقامت خلافة وإمامة وسلطنة وممالك وإمارات ومشايخ وجمهوريات، وتلك تقريبًا معظم أشكال مظاهر الحكم والسلطة في العالم.

وأمَّا الذين أجابوا على ذلك السؤال ببيان أنّ ما قام به سيدنا رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- في المدينة المنورة هو دولة بالمفهوم المعاصر للدولة؛ أي: أرض وشعب وقيادة ودستور، فهؤلاء قد اعتبروا أنَّ شكل السلطة الذي برز في المدينة بعد الهجرة هو الشكل المطلوب تكراره وإعادة

إنتاجه على الدوام؛ لأنَّه يمثّل الشكل المشروع والمسنون عن رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- الواجب اتباعه، فتكون تبعًا لذلك كل الأشكال -عدا الخلافة الراشدة- أشكالاً تحتاج إلى ما يدعمها.

إنّ الناظر في جميع الأحداث التي حصلت يصعب أن يجد لفكرة الدولة -بمفهومها المعاصر- ما يدعمها، لكنَّه يستطيع أن يجد الأمَّة وفكرة الأمَّة بوضوح. كما أنَّه يستطيع أن يجد المجتمع التوافقيّ بشكل بارز لا يقبل اختلافًا. وحيث إنَّ طبيعة الرسالة الخاتمة العالميَّة لا تقبل الانحصار في جغرافيا محددة، ولا شعب محدد، ولا زمن معين، بل لا بد أن يغمر نورها العالم كله ويُظهر دين الأنبياء الواحد بإصداره الأخير على يدي خاتم النبيّين والمرسلين محمد -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- فذلك يمكن أن يدل على أنّ ما تم تأسيسه ابتداءً إنَّما هو الأمَّة، وأنَّ الاجتهاد الذي كُلّفت الأمَّة به -كما كُلّفت بالجهاد- كفيل بأن يُعينها على حسن اختيار وبناء مؤسساتها، ومنها الدولة والحكومة والسلطة وأشكالها. وهذا الذي يمكن أن يفسر لنا طبيعة الجدال والحوار الذي دار في «سقيفة بني ساعدة» إذا صحت روايات المؤرخين له ، كما يفسر لنا الاختلاف وأسبابه في قضيَّة الإمامة التي ما سُلّ سيف في الإسلام لمثلها، والتي كان الاختلاف فيها وراء سائر الاضطرابات والفتن الداخليَّة، وما تزال إلى يومنا هذا مصدر الانشاقاق والاختلاف والتحزّب الطائفيّ وما إليه.

إنَّ «التوحيد» هو قمَّة المقاصد الشرعيَّة التي جاء القرآن المجيد بها، والقاعدة التي يقوم عليها ويتفيّأ ظلالها وينتشر بها ولها هي «الأمَّة» بكل أطيافها، والوسيلة التي يستخدمها وينطلق بها ويطير بها هي «الدعوة». هذا الإطار يكاد يكون الإطار الوحيد الذي يمكن أن يشيع المسؤوليَّة بين سائر المنتمين إلى ذلك الكيان الذي هو الأمَّة المستظلة بـ«الملّة» ملّة أبيكم إبراهيم. بيد أنَّ الانحراف في الإجابة على السؤال المطروح أدى إلى اختزال ذلك كله «التوحيد والأمَّة والدعوة» في دولة وبرنامج سياسي وحكومة انحصر التنافس عليها بين مجموعة أسر في القديم والحديث، هي أسرة «الأمويّين» و«العبَّاسيّين» و«العلويّين» أو «الطالبيّين»، ثم تأرجح الأمر بين مجموعة من القوميّات والأحزاب لتكون شركة أو دولة بين «العثمانيَّة» و«العلويَّة» و«العباسيّة» وما آلت إليه من «شعوبيَّة» أو «فارسيَّة» أو «عروبيَّة». وقد تراجع مفهوم «الأمَّة والملة» أمام تلك المفاهيم الناشئة التي استمرت لتتحول إلى نوع من قوميَّات، فيكون «الديلم» و«السلاجقة» و«البويهيين» ثم «العثمانيّين» و«الصفويّين»، كل ذلك على حساب تقزيم مفهوم «الأمَّة والملة».

لا غرابة بعد أن حدث ذلك أن يختزل مفهوم «الدعوة» ليُدرج تحت «الفتح» أو يُفسّر «الفتح» به، وما بعث محمد –صلّى الله عليه وآله وسلَّم- بالرسالة العالميَّة الخاتمة -وهي جماع رسالات النبيّين كافّة- ليُخضع البشريَّة إليها بالفتح، بل بالدعوة، فهو يعلم أنَّ هذه الرسالة الخاتمة إنَّما تقوم على «أمة وملة»: أمَّة تكون قطبًا مثالاً ونموذجًا تستقطب الناس حولها وتدفعهم إلى الانضمام إليها في إطار مجموعة من القيم التي تناسب فطرتهم؛ فطرة الله التي فطر الناس عليها من «توحيد و«تزكية» و«عمران» و«حرية» و«عدل» و«مساواة» و«وحدة إنسانية» تقوم على الأخوَّة في الله وبه، وتستهدي بالحق ودينه وتستنير به، وتستظل بوارف ظلاله. وإنَّ الوعي بذلك سوف يعصم الأمَّة من السقوط في مهاوي الضلال.

وإنّنا في عصرنا هذا أحوج ما نكون إلى إعادة طرح السؤال الذي ذكرنا لنهتدي به في حياتنا هذه، وندرك أنَّنا بعد بناء التوحيد في القلوب وترسيخه في سويدائها، وانعكاسه على كل أنواع السلوك والتصرف لا بد من بناء الأمَّة به؛ أمَّة التوحيد الواحدة، أمَّة الأنبياء كافّة، أمَّة الدين القيِّم والقيم المشتركة، فإذا بنيت الأمَّة انطلاقًا من التوحيد فإنّ الدعوة تكون هي الوسيلة الأساس للإبقاء على وحدتها كأمّة الانبياء، ووحدة الملَّة، وممارسة الدعوة لهداية كل مَنْ حولها إلى مثل ما اهتدت إليه، وقامت عليه، ولن تكون -آنذاك- ثمّة أسرة أربى من أسرة، ولا عائلة أربى من عائلة، ولا قوميَّة ولا طائفيَّة أربى من الأخرى، ذلك لأنَّ نموذج «الأمَّة القطب» الذي عمل القرآن على بنائه يجعل من هذه الأمَّة أمَّة الأمم.

الدولة القومية

لا يختلف اثنان في كونّ النظام العربيّ المعاصر نظامًا ترشّح عن غزو استكباريٍّ لبقايا عالم استظل بالإسلام فترة، وتحول في داخل كيانه مرات عديدة بين أسر وقوميَّات، وتعرّض لحروب صليبيَّة ومغوليَّة شغلته عن «الدعوة» و«الأمَّة» و«الملّة» قرونًا، وقد أسس هذا الغزو الاستكباريّ لما عُرف بـ«الدولة القوميّة» ودول الأقاليم التي تعيش في المنطقة حاليًا، فتحولت إلى تلك الجمهوريّات والممالك والسلطنات والإمارات المختلفة والمتعددة. ومع أنَّ بعض الأسر ما زالت تحكم إلا أنّ أحزابًا وجيوشًا لم تختلف كثيرًا عن نظام الأسرة مضمونًا وإن اختلفت عنه شكلاً قد استبدلت ببعضها الآخر.

الإسلاميون اليوم

واليوم يبرز الإسلاميّون ويصلون إلى مستوى صناعة القرار في هذه الأقاليم والبلدان المقتطعة من الجسم الكبير، ويقدِّمون برامج سياسية انطلاقًا من رؤيتهم للقطر والإقليم الذي بلغوا فيه ذلك المستوى وصاروا منفردين أو شركاء مع غيرهم في صناعة سياساته، والمنطلق هو النظر إلى الدولة والأحكام وتطبيقات الأحكام. فإذا قيل: "وماذا عن الأمَّة وماذا عن الملة؟" فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون: "نحن في مرحلة نقدم فيها الإقليم الذي نصل إلى السلطة فيه نموذجًا لعلّ ذلك يلفت أنظار الأقاليم الأخرى لتقتدي بنا وتتبع نهجنا وتسلك سبيلنا، فنعمل بعد ذلك على إعادة تشكيل «الأمَّة» و«الملة» وتوحيد الكيان"، فهل نستطيع التسليم بهذا؟ وهل يُعدّ ذلك من قبيل التدرّج في إعادة بناء «الأمَّة» و«الملّة»؟ أم أنَّ ذلك لن يكون إلا أملاً مرجوًّا يخيب آمله أو يصيب؟ إنّنا لنرجو أن يكون الأمل حقيقة في يوم من الأيام، لكن التجارب التي مرت، والتي سقط بعضها وما يزال بعضها قائمًا لم تشعر بأنَّ مفاهيم «الأمَّة» و«الملّة» و«الدعوة» قائمة في الأذهان قيام مفهوم «السلطة».

إنَّ من حق الإسلاميّين أن يتوثّبوا إلى السلطة في الأقطار التي ينتمون إليها وفي غيرها، ومن حقهم أن يحكموا أو يتقبّلوا حكم سواهم، ولهم الحق في أن يخوضوا هذه الانتخابات أو تلك، ويكونوا أغلبيَّة في البرلمانات أو أقليَّة، ويتحالفوا مع مَنْ يشاؤون من الفئات السياسيَّة الموجودة على الساحة، ذلك كله حق لهم لا ننازعهم فيه، لكنَّ ما نحذِّر منه هو أن يجعلوا من الإسلام مجرد برنامج سياسيّ مختزل لحزب أو لفئة، وأن يختزلوا الدعوة فيما يسمونه بـ«ـالدعوة تحت قباب البرلمانات»، هذان الأمران ليسا من حق أيَّ فئة أن تدعي شيئًا منهما، فالإسلام رسالة عالميَّة خاتمة، على حملها توحّدت أمَّة الأنبياء والمرسلين، وتعاقب الأنبياء والمرسلون على حمل مسؤوليَّاتها من لحظة العهد، وستستمر حتى يأتي أمر الله وتنتهي هذه الحياة الدنيا، ما من حق أحد ولا باستطاعته أن يختزل الإسلام ويقزّمه ويحجّمه ويضعه في قارورة أو أمبوبة الحزب أو الفئة أو مؤسسة حكم أو سياسة، فهو أكبر من ذلك وأعم وأشمل، هو رسالة عالميَّة إلى البشريَّة كافَّة، ما من نبي ولا رسول إلا شارك في وضع بعض لبناتها، حتى استوت على سوقها في عهد «ابن الذبيحين» خاتم النبيّين والمرسلين، محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وينبغي أن تبقى تلك الرسالة نهرًا جاريًا ترد البشريَّة إليه وتصدر عبر تاريخها، وفي كل مراحل حياتها إلى يوم الدين، فلا ينبغي أن تُظلم البشريَّة وتُوهم بأنَّ برنامج الفئة الفلانيَّة أو الحزب الفلاني يمثّل الإسلام، فتلك جناية ما بعدها جناية على الإسلام والمسلمين، وهي مصدر انحرافات كثيرة في فقه التدين. وإذا أريد بالرسالة الأحكام، فالأحكام لا تمثّل من الدين إلا جزءًا من اثني عشر جزءًا أو أقل، والبشريَّة كلها أحوج ما تكون إلى مَنْ يدعوها إلى هذه الرسالة الخاتمة، وينبّهها إلى أن نجاتها وخلاصها لا يتحققان إلا بها، ولن ينبثق النور والهدى ويعلو الحق إلا بالدعوة إليها. إنَّ هذه البرامج السياسيَّة التي يقدِّمها مَنْ يُطلَق عليهم «الإسلاميَّون» ما هي إلا فهم أصحابها لهذه الرسالة، يخضع للاستدلال والاستنباط، ولا يمثِّل إلا جزءًا يسيرًا من تلك الرسالة... والله أعلم.

نهضة الأمة بالقرآن

أمم مصطفاة

هناك أمم اصطفاها الله وشاء لها أن تُبنى بكتاب من كتبه، وأن يقود رسله وأنبياؤه عمليَّة بنائها حتى تكتمل، وتقف -بعدها- نموذجًا ومثالاً بين الناس. هذا النوع من الأمم يقوى ويضعف ويتقدّم ويتخلّف وينطلق ويتراجع حسب معالم علاقتها بهذا الكتاب الذي بُنيت به، وعلى قدر تمسّكها بهدي أنبيائها ورسلها.

ينطبق هذا الأمر بوضوح في عصرنا هذا على أمّتين قائمتين موجودتين، بينهما من الصراع ما لا يخفى؛ هما «الأمَّة اليهوديَّة» و«الأمَّة المسلمة» فـ«ـالأمَّة اليهوديَّة» بُنيت وأُسّست على أيدي موسى وهارون وداوود وسليمان وغيرهم من أنبياء الله عليهم السلام، وبُنيت بكتاب الله «التوراة»، التي أُنزلت على سيدنا موسى، وبـ«ـالتوراة» اصطفاه الله -جلّ شأنه- وبكلماته الأخرى. وأمّا «الأمَّة المسلمة» فقد تم تأسيسها على يدي إبراهيم، وتم تجديدها وإعادة بنائها باعتبارها أمَّة الأنبياء كافَّة على يدي خاتم النبيّين والمرسلين محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم. هاتان الأمتان –اليهوديّة والمسلمة- حينما تتراجع أي منهما فإنَّها لن تستطيعا أبدًا إعادة بناء ذاتها وتجديد شخصيَّتها إلا بالكتاب المنزّل. وحين غفل بنو إسرائيل عن ذلك؛ فرفضوا القرآن ورسالة محمد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- تراجعوا ودخلوا مرحلة الشتات في الأرض بعد أن كان الله قد منَّ عليهم باتخاذ أئمة منهم -أولئك الذين كانوا يستمسكون بالكتاب- يهدون بأمر الله وبه يعدلون، لما صبروا وكانوا بآيات الله يوقنون.

ما بين الأمتين «اليهوديّة» و«المسلمة»

لقد عمل سيدنا رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- على إعادة بناء الأمَّة -أمَّة الأنبياء- ودعا بني إسرائيل ليكونوا جزءًا منها، ودعامة أساسيَّة من دعائمها، فأعرضوا وجحدوا بآيات الله واستيقنتها قلوبهم، وأنكروا نبوّة نبي كانوا يعرفونها كما يعرفون أبناءهم.

وقد أوحى الله -فيما أنزل على موسى إليهم- صفاته وخصائصه، لكن دفعهم الحسد القوميّ والبغي العنصريّ إلى الجحود برسالته وإنكارها، والتعالي عليها حسدًا من عند أنفسهم، وكتموا ما أنزل الله عليهم، بل لقد تجرّؤوا على تغيير وتحريف بعض ما أنزل؛ لئلا يذهب شيء من ذلك الهدى إلى

غيرهم فيشاركهم في العبوديَّة لله تعالى. فكانهم يرون -بعد أن استبد بهم البغي والحسد- أنَّ الله -تعالى- لهم وحدهم، لا يشاركهم فيه وفي العبوديَّة له أي فصيل أو قبيل من الناس.
وحين أرادوا الخروج من حالة الشتات واستعادة بناء أمّتهم لم يجدوا لذلك سبيلاً إلا بالعودة إلى كتابهم وتراثهم، بقطع النظر عن كل ما أصاب الكتاب من تغيير وتحريف بأيديهم. وكأنَّ الله -سبحانه وتعالى- قد عاملهم بنواياهم، فإذا بهم يؤسسون دولة تتحكم في عالم اليوم اقتصادًا وسياسيةً وعلومًا ومعارفًا بشكل لا نستطيع أن نجد له نظيرًا معاصرًا في أيَّة أمَّة من الأمم. ونلاحظ أنَّ ساستهم وقادتهم قد بلغ بهم الوعي حدّ الإعلان للعالم كله بأنَّهم يريدون إقامة دولة يهوديَّة خالصة إرضاء للرب -سبحانه- ولأنَّ ما وُعدوا به من بركات ونصر وتأييد لا يتحقق إلا إذا أوجدوا الدولة النقيَّة عرقًا ودينًا، وذلك فيما أسموه «أرض الميعاد».
وقد صادف استعادة «الأمّة اليهوديّة» لذاتها فترة انهيار في الأمَّة المقابلة؛ ألا وهي «الأمَّة المسلمة»، والتي نشهد عمليَّة تمزقها وانهيارها منذ ما يزيد عن قرن من الزمان، فكأنَّ هناك صعودًا يهوديًّا قابله تراجع إسلاميّ، وصعودًا إسرائيليًّا قابله تراجع أمّيّ؛ في مقدمته تراجع العرب قادة الشعوب الأميَّة من حملة رسالة الإسلام الأولين.
حين نعود إلى الحسابات التاريخيَّة نجد أنَّه قد مرّ على إخراج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى وهارون -عليهما السلام- خمسة عشر قرنًا ثم جاء السيّد المسيح –عليه السلام- يجدد لبني إسرائيل دينهم ويصدّق على التوراة ويُحلّ لهم بعض الذي حُرّم عليهم، وكأنَّه -عليه السلام- كان يُمهّد السبيل لمجيء حامل الرسالة الخاتمة العالميَّة محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلم؛ ولذلك نجد أنّ البشريَّة لم تكد تدخل القرن السابع من بعثة السيد المسيح حتى ظهر محمد بن عبد الله –صلّى الله عليه وآله وسلّم- وبدأ يدعو إلى الرسالة الخاتمة المجددة لرسالات الأنبياء كافَّة والموحّدة لأمّتهم، والخاتمة لكل رسالاتهم.
ونحن الآن قد سلخنا خمسة عشر قرنًا هي مثل المسافة الزمنيَّة ما بين سيدنا موسى وعيسى لنجد تجديدًا في الأمَّة اليهوديَّة قادها إلى أن تؤسس في قلب العالم دولتها الأخيرة، وتعمل على أن تعطي هذه الدولة سائر ما تعتقد أنَّه من خصائص رسالة موسى وأنبياء بني إسرائيل الآخرين.
إنه لمن الطريف أنَّنا نشاهد هذه الأيام حركة تديّن والتزام شديدة داخل المساحة التي سيطرت اليهوديَّة والصهيونيَّة عليها من أرض فلسطين، فهناك نداءات كثيرة تناهض العلمانيَّة والأطروحات اللادينيَّة، وتدعو بشدة إلى التديّن والتمسك بالكتاب، وها هي تعلن دعوة نساء

إسرائيل إلى الحجاب، وتشتدّ دعوتها في ضرورة الفصل بين الجنسين في سائر المجالات، إضافة إلى تطهير الدولة من سائر القوميّات والأديان... والبقيّة تأتي. في الوقت نفسه شهدنا على الجانب الآخر الإسلاميّ -في أوائل وأواسط القرن الماضي- تمزقًا وتشتّتًا وعودة إلى جذور ما قبل الإسلام؛ من فرعونيّة وبابليّة وفينيقيّة وجاهليّة وما إليها، لكنّها انتهت -ولو بشكل غير متكامل- إلى دعوات هنا وهناك للعودة إلى الدين والتدين السليم به. ومن الطريف أن يحتل الحجاب والنقاب والحدود والعقوبات الشرعيّة مواقع متميزة في الدعوة والخطاب الإسلاميّ كما هو الحال في الخطاب اليهوديّ داخل إسرائيل.

إنّه لمن الصعب أن نقول: إنّ ذلك كله من قبيل المصادفة، فلا مصادفة في هذا الكون، وإنّما هي قوانين وسنن إلهيّة يُصرّفها الله جلّ شأنه، فهو الذي يُداول الأيام بين الناس، والمداولة بين العرب المسلمين وبين اليهود الصهيونيّين قائمة الآن على أشدها، ولا بد لأولئك الذين يدرسون الأوضاع العالميّة والتحولات الكبرى في العالم -ومنه عالمنا العربيّ والإسلاميّ- أن يضعوا هذا الأمر في حسبانهم، وأن ينظروا في ظاهرة التداول بين الأمتين نظرة جادة؛ لأنّها هي التي ستُعِينهم على فهم مجريات الأمور بشكل أفضل وأدق، فيتضح الحاضر وما يجري فيه من أحداث، ومن الممكن أن يُستَشرف المستقبل كذلك.

هناك مَنْ يرى أنَّ إسرائيل قد بلغت الذروة، وأنَّه قد آن الأوان لدخول خط النزول والتراجع بالنسبة لها، لكنَّنا حين ندرس عمليَّة تعاقب الأدوار بين الأمتين نجد الأمر مختلفًا. إنَّ تقديرات أولئك المتفائلين بأنَّ إسرائيل يمكن أن تتفكك خلال عشرين عامًا مقبلة هي من قبيل التفاؤل المفرط، ذلك أنَّ التداول بين الأمتين يؤكد أنَّ تراجع إسرائيل مرهون بنهوض العرب والمسلمين، وقادة إسرائيل على وعي تام بهذه الحقيقة؛ ولذلك فإنَّ أهل الرأي والفكر مثل الرئيس الإسرائيليّ الحالي (شيمون بيريز) وأبا إيبان وزير الخارجيَّة الأسبق، أمثال هذين المفكرين اليهوديين يدركون تمامًا أنَّ أي نهضة للعرب والمسلمين ترتبط بتراجع يهوديّ وإسرائيليّ، فإذا نهض العرب والمسلمون شبرًا فذلك يعني أنَّ إسرائيل قد تراجعت شبرًا؛ ولذلك فإنَّ مَنْ يتوهم أنَّ إسرائيل مستعدة لمساعدة بعض العرب على سلوك سبيل النهضة والتقدم مخطئون، ويرتكبون خطأً جسيمًا في حق أنفسهم وحق العرب والمسلمين؛ لأنَّ إسرائيل تدرك أنَّ في ذلك مقتلها، وليرجع من شاء لآيات سورة الإسراء وليتدبر فيها: (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا*فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ

فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا*ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) (الإسراء:4-6)، (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) (الإسراء:104)، ويربطها في سورة الحشر بقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ) (الحشر:2)، فها هو الشعب اليهوديّ تجمعه الصهيونيَّة واليهوديَّة من شتى بقاع الأرض لتضعه في فلسطين التي أطلقوا عليها إسرائيل، وتجعل من بقي خارجًا جابيًا ومؤيِّدًا وداعمًا لهذا الموجود داخل الدولة حتى حين. والجلاء الذي حدث في عهد رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- لا بد أن يُربط بالمجيء بهم لفيفًا؛ فقد كتب الله عليهم الجلاء في عهده -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ليكونوا البداية والنواة التي بقيت في هذه الأرض المقدسة كل تلك القرون منتظرة يوم المجيء بهم لفيفًا إلى هذه الأرض.

تساؤلات

هنا لا بد من تساؤل من شقّين؛ الشق الأول: هل نستطيع أن نعد ما عُرف بـ«ثورات الربيع العربي» مقدمة في هذا الاتجاه لنهوض عربيّ إسلاميّ يترتب عليه تراجع صهيونيّ يهوديّ؟ لا أود أن أجيب بنفسي الآن؛ لأنَّني أريد أن يشاركني القرَّاء هذا الهَمَّ ويفكّروا ويتدبّروا ويتذكّروا ويتعقّلوا هذا الواقع لعلهم يستطيعون أن يأتوا بالجواب المناسب. أمَّا الشق الثاني: فما تمخضت عنه هذه الثورات من مجيء «حزب النهضة الإسلاميّ» في تونس إلى السلطة، و«الإخوان» و«السلفيين» في مصر، واقترابهم من مراكز صنع القرار، وما سبق ذلك من وصول مشايخ إيران إلى السلطة فيها، والشيخ الترابيّ وحلفائه العسكريين في السودان، و«حزب الدعوة الشيعيّ» و«الحزب الإسلاميّ السنيّ» في العراق، هل هذه الظاهرة هي ظاهرة مواجهة للوعي اليهوديّ والنَّهضة الصهيونيَّة، أم هي شيء آخر؟ هذا أيضًا سؤال أريد من قرَّائي التفكير فيه، والتعمق في النظر في مدلولاته، فإنَّ ذلك أدعى للوعي من إعطاء إجابات فرديَّة جاهزة، ولعلَّهم يستجيبون.

الإسلاميون ونهوض الأمّة

من الواضح أنَّ الساحة العربيَّة الإسلاميَّة بدأت تبدي تذمرًا شديدًا من كثير من الأطروحات السابقة، ولأول مرة يجد الإسلاميّون -الذين كانوا يقولون «الإسلام هو الحل» ثم يستريحون ليتركوا الناس يكدّون عقولهم في هذا الحل السحري ليتفهّموا المراد به ومنه- عامة المسلمين قد شقّوا طريقهم إلى الأسئلة المعرفيَّة التي لم يكونوا يلتفتون إليها، وهي: لِمَ، وكيف، ولماذا، وأي شيء هذا؟ إلى آخر سلسلة الأسئلة التي صار عامَّة المسلمين والعرب يطرحونها اليوم؛ ولذلك فإنَّ القائلين بأنَّ «الإسلام هو الحل» بدؤوا يشعرون بذلك التغيّر وذلك الانكماش، فيقدّمون أنفسهم بصيغ مختلفة تحمل أسماء أخرى، فهناك «وسط» و«عدل» و«تنمية» و«حرية وعدالة»، وعناوين أخرى لا يمكن للإنسان -إذا ما طرحت عليه- إلا أن يدخل في تفاصيل من شأنها أن تُشعر صائغي الخطاب الإسلاميّ بأنَّ الشعارات المجردة لم تعد كافية ولا مغرية.

إنَّ الدولة العبريَّة قد تجاوزت حالة التخلف بسائر المعاني اللهم إلا بمقاييس التديُّن النقيَّة التوحيديَّة. في حين أنَّ العالم العربيّ والإسلاميّ ما يزال التخلف مكلكلاً ومهيمنًا على جوانبه المختلفة، وبرامج الهداية والإصلاح لا تقبل الظهور على أيدي المتخلّفين، فلا بد من اجتياز حاجز التخلّف بكل أنواعه؛ لأنَّ اجتياز حاجز التخلف شرط أساس سابق لتقديم الرؤية الإصلاحيَّة والتجديديَّة، إذ إنَّ مَنْ أدركه البِلى لن يستطيع أن يُجدد أو يتجاوز حالة البِلا قبل أن يخرج منها. ففي حساب النهوض والتراجع نستطيع القول أنَّ تحقيق حالة النهوض قد صار وشيكًا لو أنَّنا تجاوزنا حاجز التخلف كما تجاوزته الأمَّة الأخرى «إسرائيل»، وبدأنا نشق طريقنا بمقتضى ذلك لنتبوّأ المكان اللائق بنا بعد ذلك، فنكون وسطًا ونكون أمَّة خيّرة ونكون أمَّة شاهدة... وهكذا.

إنَّ ما نراه ونشهده من مظاهر التدين التي طرحتها الفئات التي تكوّنت أثناء ذلك الربيع أو كانت قبله وحاولت الاستفادة به تبحث -في جُلّها- عن خلاص فرديّ، وفي أذهان قياداتها فكرة الأجر والثواب والخلاص الفرديّ لدخول الجنَّة وعتق الرقاب من النَّار، وهذه أمور حسنة جميلة، لكنَّها لا تدل على وعي «أمتيّ» ينطلق لخلاص الأمَّة وتجديدها وإعادة بنائها.

سبُل نهوض الأمّة بمنهج قرآني

هنا يقف القرآن شامخًا ليقول للناس: هلمُّوا إليَّ، فأنا الباني للحق والهادم للباطل، أنا وحدي الذي تركني رسول الله فيكم محجَّة بيضاء، أُذكّركم إذا نسيتم، وأُنبّهكم إذا غفلتم، وأبني لكم ما هدمتم،

وأُطهر لكم ما دنّستم، وأضعكم على الصراط السويّ، وأؤلف بين قلوبكم، وأُثبّت أقدامكم، وآخذ بأيديكم إلى التزكية والتنمية والفلاح، إنَّني وحدي مَنْ يستطيع أن يُقيم العدل فيكم، ويُحقّق المساواة بينكم، ويُهيّء لكم السبيل ليكون أئمتكم منكم، إنَّني وحدي الذي أحمل لكم نبأ مَنْ قبلكم وخبر مَنْ بعدكم وحكم ما بينكم، أنا وحدي القول الفصل لست بالهزل، ولا الهزل يقربني، أنا وحدي الذي لا يأتيني الباطل من بين يدي ولا من خلفي؛ ولذلك فإنَّني وحدي القادر على إخراجكم من الظلمات إلى النور، فلا الديمقراطيَّة الزائفة ولا الليبراليَّة المنحرفة ولا الاشتراكيَّة البائدة ولا الرأسماليَّة السائدة بمغنية عنكم شيئًا، لكنَّني أنا القرآن مَنْ يستطيع أن يأخذ بأيديكم ويعبر بكم أزماتكم ويأخذ بأيديكم ويوصلكم إلى شاطئ النجاة، لكنَّني أريد أن يكون منكم حَمَلة لي، بي يهتدون وبآياتي يتمسّكون وبهديي يلتزمون، إذا تُليَتْ عليهم آياتي خرّوا إلى الأذقان يبكون ويزيدهم الله خشوعًا، حملة يحملونني قانتين ساجدين راكعين مخبتين، ينظرون إلى البشر كلهم على أنَّهم أسرة واحدة ممتدة، كلهم لآدم وآدم من تراب، أسرة يمكن أن يكون فيها ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات بإذن الله، أسرة يهمها أن تعلوا كلمة الله على كل كلمة وأن يخرج كل أبنائها من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، أسرة لا تعبد إلا الله ولا تحنو الجباه إلا لعظمته، أسرة تدخل في السلم كافَّة لأنَّها تدرك أنَّها أهبطت لهذه الأرض لتُستخلف فيها، ولتقود قافلة التسبيح لله -جلّ شأنه- وحَصْر العبادة والاستعانة والحمد والثناء والحاكميَّة والبقاء في ذاته -جلّ شأنه- أسرة لا ترضى أن يُقَسّم البشر إلى عبيد وأسياد، ومتسلطين ومُتَسَلّط عليهم؛ لأنَّهم جميعًا عباد لله، به يؤمنون وعليه يتوكلون وبكتابه يتمسكون وبهدي نبيّه يستنيرون ويستضيؤون، آنذاك تشرق الأرض بنور ربها وتحيا الأسرة البشريَّة حياة طيبة. إنكم تعظّمونني ولا شك، وقد تحفظون ألفاظي، لكنَّ ذلك وحده لا يكفي، فرُبَّ قارئ لي تحل عليه لعنة الله ولعني، ورُبَّ قارئ لي بنيّة خبيثة لا يزداد بقراءته لي إلا عمى وضلالاً؛ لذلك فإنَّ الرجوع لي له قواعده وله شروطه التي أوضحتها وبيّنتها، مَنْ التزم بها فاز ومَنْ انحرف عنها هلك.

وبعد ما سبق، فإني أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

المؤلف في سطور

طه جابر العلواني

من مواليد العراق عام 1354 هـ - 1935.

- دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر 1392 هـ - 1973.

- ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر 1388 هـ - 1968.

- ليسانس كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر 1378 هـ -1959.

- شارك في تأسيس المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ في الولايات المتحدة عام 1401 هـ - 1981 ثم ترأسّه مدة عشر سنوات 1986_1996م.

- رئيس جامعة قرطبة في الولايات المتحدة منذ 1996 وحتى الآن.

- عضو مجمع الفقه الإسلاميّ الدوليّ بجدة ورئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية.

أحدث المؤلفات:

- المحصول في أصول الفقه للرازي. تحقيق ودراسة. القاهرة: دار السلام، 2011.
- أفلا يتدبرون القرآن. القاهرة: دار السلام، 2010.
- نحو موقف قرآني من إشكالية المحكم والمتشابه. القاهرة: دار السلام، 2010.
- معالم في المنهج القرآني. القاهرة: دار السلام، 2010 .
- نحو إعادة بناء علوم الأُمّة الاجتماعية والشرعية بالاشتراك مع د. منى أبو الفضل. القاهرة: دار السلام، 2009.
- مفاهيم محوريّة، بالاشتراك مع د. منى أبو الفضل. القاهرة: دار السلام، 2009.
- التعليم الديني بين التجديد والتجميد. القاهرة: دار السلام، 2009.
- نحو التجديد والاجتهاد، جزءان. القاهرة: دار تنوير، 2008.
- الوحدة البنائية للقرآن المجيد. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006.
- لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006.
- نحو موقف قرآني من النسخ. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006.
- أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2005.

- الجمع بين القراءتين. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2005.
- مقدمة في إسلاميَّة المعرفة. بيروت: دار الهادي، 2001.
- لا إكراه في الدين. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2005.
- إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر. بيروت: دار الهادي، 2001.
- مقدمة في إسلامية المعرفة. بيروت: دار الهادي، 2001.
- مقاصد الشريعة. بيروت: دار الهادي، 2001.
- الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي. بيروت: دار الهادي، 2001.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير. بيروت: دار الهادي، 2001.
- نحو منهجية معرفية قرآنية. بيروت: دار الهادي، 2001.
- العراق الحديث بين الثوابت والمتغيرات.بيروت : مركز صناعة الفكر للدراسات 2010.